على سالم

الآن أرفع القناع

٣٠ سنة من العمل السرى



الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

الآن أرفع القناع

على ســالم

الآن أرفع القناع

٣٠ سنة من العمل السرى

الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

الناشــر : **مكتبة الــدار العربية للكتاب**

شارع الطيران ـ الحى السابع ـ مدينة نصر

تليفون : ٢٦٣٩٨٥١ ـ فاكس : ٣٩٠٩٦١٨

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٢٧٢٤ / ٩٤

الترقيم الدولى : X- 16 - 5366 - 977

طبــع : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م

تصميم الغلاف : عمرو فهمى



أبو علوة .. الشبح

بطل هذه الوقائع والمغامرات هو أبو علوة ، كما كنا نسميه أو الشبح كما يسميه زملاؤه فى العمل السرى ، وكما تذكره الوثائق الدبلوماسية السرية فى دوائر الغرب السياسية . ولكن من هو « أبو علوة ، الشبح » ؟ وما هو اسمه الحقيقى ؟ وماذا يعمل ؟

بصراحة ، لست أعرف ، ولا أعتقد أن أحداً يعرف . كل ما أعرفه عنه أنه كان يسهر معنا ويشترك فى مناقشة قضايا كثيرة ، أدبية وفكرية وفنية واجتماعية وسياسية ، ثم يختفى لعدة أيام أو لعدة شهور ، وعندما كنا نسأله أين كان ؟ وماذا كان يعمل ؟ كان يجيبنا بالصمت وبابتسامة غامضة إلى أن قرر ذات يوم ـ لدوافع لا أعرفها ـ أن يتكلم وأن يبوح لى ببعض أسرار مهماته الدبلوماسية فى الداخل والخارج فقمت على الفور بإثباتها على الورق خشية أن تضيع من ذاكرتى .

أتيح لى بعد ذلك أن أتصفح أوراقه الخاصة فوجدت بينها ما يشير إلى أنه كان يكتب للمسرح والسينما والتليفزيون والصحافة ، ولكن تحت

أسماء أخرى . كما وجدت بين أوراقه ما يشير إلى أنه كان الوحيد فى مصر الذى حصل على ترخيص بفتح مكتب للتحريات الخاصة ولكنه أوقف نشاطه على الأرجح عندما فشل المكتب فى تغطية نفقاته .

أصارح القارىء أن الشك داخلنى فى البداية فى صحة بعض الوقائع التى اطلعت عليها أو تلك التى رواها لى ، تصورت أنها ليست أكثر من نتاج لخيال خصب منطلق بغير حدود . غير أن بعض الأصدقاء من العالمين ببواطن الأمور ذكروا لى أنها جميعاً حقائق فعلية .

إننى أنبه القارىء بقوة إلى أننى لست بطل المغامرات الواردة فى هذا الكتاب ، وإن كنت شاركت من بعيد فى بعضها ، ولقد طلبت من الناشر أن ينشر هذا الكتاب باسم صاحبه ، ولكنه رفض لأسباب تجارية، أهمها أننا لا نعرف اسمه الحقيقى ، ومن المستحيل بالطبع نشر كتاب يحمل غلافه اسم الشهرة لمؤلفه .

وقد يكون من الضرورى أن أنبه القارىء إلى أن جميع الكتب التى تتناول العمل السرى تحتوى على قدر محسوب من الأكاذيب ، غير أن كتابى هذا أفلت من هذه القاعدة ، إذ هو يحتوى على أكبر قدر من الحقيقة .

لقد اختفى « أبو علوة ، الشبح » منذ عدة شهور ، وأنا أخشى أن يكون قد حدث له مكروه ، لذلك قررت أن أنشر على الملأ حقيقة الدور الذى قام به فى الثلاثين عاماً الماضية ، وأنا آسف لأننى أفعل هذا بغير

استئذان ، ولكنى على يقين من أنه سيغفر لى ذلك ، فهدفى الوحيد من النشر ، هو أن يستفيد الجيل الحالى من وقائع هذه المغامرات . وأيضاً لكى تكون فى متناول الباحثين والمؤرخين والمهتمين بالأوضاع السياسية فى المنطقة .

كما أننى أعترف أن أحد أسباب نشر هذا الكتاب هو أن لدى شعوراً قوياً بأنه موجود فى عاصمة ما ، مكلف بمهمة ما ، وأنه سيقرأ حتماً هذا الكتاب ثم يتصل بى .

إذا لم يحدث ذلك ، سأشعر بحزن كبير .

على سالم

سبتمبر ١٩٩٣





جونسون قال لى ....

كان لقاؤنا الأول على مقهى ريش بشارع سليمان باشا ، بالتحديد يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٤ . لم يكن من الصعب أن أكتشف جنسيته للوهلة الأولى ، لأن طريقة تصفيف اللحية والشارب والعمامة الأنيقة كانت تفصح بوضوح عن جنسية صاحبها ، كان هندياً ، وكانت ملامح وجهه الطيبة والبريق الهادىء فى عينيه يقطعان بأنه من السيخ وخاصة أنه كان يمسك بمسبحة أنيقة ، يسبح بها فى همس خافت . لم يكن وجوده على المقهى فى ذلك اليوم شديد الحرارة لافتاً للنظر ، فهذا المقهى ملتقى لأجناس عديدة ، هنود وباكستانيين ، وأمريكيين وسوفيت وانجليز وأدباء شبان ، وأدباء عواجيز بالإضافة إلى الوجوه الثابتة لمندوبى أجهزة الأمن الذين يجلسون على المقهى بصفة دائمة .

جاءت جلستى بجواره ، ولذلك كان من السهل أن أتبين الكلمات التى يسبح بها بالرغم من خفوت صوته ، كان يقول : مصر ، مصر ، . . باحبك يا مصر . مصر . باحبك يا مصر .

وقلت لنفسى ، ليأت الأدباء الساخطون الآن وليستمعوا لهذا الرجل الهندى الأجنبى الذى يحب مصر إلى الدرجة التى تجعله يسبح باسمها .

وخوفاً من أن أضايقه بوجودى ، ولكى أعطيه فرصته كاملة فى التسبيح بحب مصر ، قمت من مكانى ، وانتحيت جانباً بعيداً وجلست فى عزلة وسرحت بأفكارى إلى الهند وشعبها ، لأننى أنا الآخر ـ وهذه حقيقة يعرفها كل معارفى ـ أحب الهند حباً جماً . . إلا أن مشاغل الحياة تجعلنى أقصّر فى حقها .

بعد لحظات جاءنى « فلفل » الجرسون وهمس لى : هذا الرجل الهندى الذى يحب مصر حباً جماً يريد أن يتحدث معك . . فقلت له : على الرحب والسعة . . أهلاً وسهلاً بعشاق مصر .

وجاء الرجل ، كان يجيد العامية المصرية كأحد أبنائها ، والمدهش أنه لم يضيّع وقته بل دخل فى موضوعه مباشرة .

ـ اسمى جُبارة . . ولا أعلم السر فى أنكم فى مصر تصرون على نطق اسمى هكذا . . غُبارة . . وأنا أملك مصنعاً فى الهند لإنتاج الآلات الموسيقية ، وهو مصنع متخصص فى عمل المزامير الهندية المشهورة التى ترقص على أنغامها الثعابين .

قلت له : أهلاً وسهلاً . . حضرتك جئت للسياحة ؟ .

اعتدل الرجل على كرسيه وقال : لا . . . جئت فى مهمة . .

ـ لا بد أنك تريد فتح فروع لمصانعك . . هنا فى القاهرة .

سكت الرجل لحظة ثم قال ببطء : لا ، باختصار شديد ، وبدلاً من اللف والدوران . . أنا هنا فى مهمة محددة ، وهى إعادة إقامة الجسور بين مصر وأمريكا .

أحسست بالخوف ، لأننى أكره المهمات السياسية بكافة أنواعها . (أنا الآن أنقل من مفكرتى التى دونت فيها حديثنا بالحرف الواحد بعد اللقاء . . ع . س) .

ـ وهل تعتقد يا سيد غباره أن مقهى ريش هو المكان المناسب لعملية إعادة الجسور بين مصر وأمريكا . . ؟

غباره : نعـم .

ـ كنت أعتقد أن مبنى وزارة الخارجية هو المكان المناسب لمثل هذه العملية .

فابتسم الرجل ابتسامة حلوة كشفت عن أسنانه اللامعة البيضاء وأكدت فى الوقت نفسه حبه العميق لمصر : استيقظ يا صديقى على حقائق العصر : أن الساسة المحترفين هم أساس المصائب فى كل العلاقات الدولية ، وأن إعادة الجسور بين مصر وأمريكا لن ينجح فيها إلا هؤلاء الأشخاص الذين يحبون مصر حباً عميقاً ويكرهون الشيوعية كراهية عميقة .

ـ وأنت ترى أن كلينا يتمتع بهاتين الصفتين .

غباره : نعم . . . فنحن نعرف عنك كل شيء تقريباً .

ـ حسناً . . استمر .

غباره : لقد اجتمع جونسون مع مكتب الأمن القومى الأمريكى ، ثم أعضاء الكونجرس ثم مع مستشاريه ثم مع أعضاء الوزارة الأمريكية ثم قضى أياماً وحيداً فى مزرعته يفكر ويفكر ، ثم قرر شيئاً واحداً .

ـ ما هو . . ؟

غباره : أن يقابلك .

قالها بهدوء بعد أن التفت حوله لكى يتأكد أن أحداً لا يرانا ، عند ذلك صحت كالملدوغ وقد نسيت أننا نجلس فى مقهى : أنا ؟ !!

غباره : نعم . . أنت . . لقد اختارك أنت بالذات بعد دراسة طويلة قام بها فريق من الباحثين الأمريكيين لمعرفة أحسن عنصر فى مصر يصلح لهذه المهمة . . ستكون مهمتك بالتحديد أن تحمل وجهة نظر جونسون الحقيقية للساسة فى مصر وتحمل وجهة نظر الحكومة المصرية إلى جونسون .

وساد الصمت بيننا . . أنا ؟! . . إننى أبذل مجهوداً خرافياً لكى أتمكن من مقابلة رئيس تحرير مجلة الكواكب . هل ابتسمت لى الأقدار أخيراً . . ؟ . . هل قدر لى تاريخياً أن أقوم بهذه المهمة الجليلة . . ؟ إننى

أعرف قدراتى جيداً ، يكفينى لقاء واحد مع جونسون لكى أسيطر على أفكاره وأجعله ينتهج السياسة التى ترضينى . . إننى قادر كما يقول أولاد البلد على أن (آكله) . . وأحسست بذاتى تتضخم وبأعماقى تتسع ، وبدأت أعرف قيمتى الحقيقية . . التى لم يقدرها أبناء بلدى ، وقدرها الهنود وجونسون . . وأخذت الأصوات ترتفع داخلى وتأتينى من مصدر مجهول فى أعمق أعماقى . . أننى عظيم . . عظيم جداً . . وقادر على أداء هذه المهمة . . وانتابتنى فرحة عظيمة . . إلا أننى سارعت بتمالك نفسى وسألته بهدوء وأنا أحاول أن أضع فى صوتى تلك البحة التى يتمتع بها كبار المسئولين .

ـ مستر غباره . . إننى على استعداد من أجل بلدى ومن أجل أمريكا أن أقابل السيد جونسون . . ولكنه لدى تحفظٌ واحدٌ . . لدى سؤال واحد . . أقسم أننى لن أقابل جونسون إلا بعد أن أعرف الإجابة عليه .

غباره : ما هو ؟ . إننى على أتم الاستعداد لإجابتك بمنتهى الصراحة .

ـ هل جونسون يحب مصر ؟ .

غباره : (بحماس شديد) . . نعم . . نعم . وأقسم على ذلك إنه يحبها أكثر من أمريكا . .

ـ سؤال آخر وأخير . . هل هو يكره إسرائيل ؟ . .

غباره : لا أستطيع أن أخدعك وأقول لك إنه يكرهها . . لأنك تعلم

مدى النفوذ الذى تتمتع به الصهيونية هناك فى أمريكا . . ولكننى أقول لك سراً أرجو ألا تذيعه . . لقد بدأ جونسون يتعرف على نوايا إسرائيل التوسعية وبدأ يكرهها .

ـ يكفينى هذا . . دع الباقى لى . . سأجعلُه يكرهها جداً . . وهناك احتمال كبير أن أتمكن من إقناعه أن يشن عليها حرباً خاطفة تمسحها فى لحظات . . . وننتهى من هذه المشكلة إلى الأبد .

يبدو أن الأقدار لا تبتسم لى وحدى . . لقد بدأت تبتسم للمنطقة العربية كلها . . . سأذهب إلى جونسون وأقنعه بإزالة إسرائيل من المنطقة . . وتنتهى مشاكل العالم العربى ، سنلغى جيوشنا ونتفرغ لمشاريع التنمية . . ستتحول الصحارى كلها إلى حدائق غناء تصدح فيها البلابل وتغرد فيها الطيور ، وتزرع فيها الورود والرياحين والباذنجان . بذلت مجهوداً كبيراً لكى لا أظهر فرحتى الشديدة . ولكى يعلم الرجل أننى على مستوى المسئولية . وعدت لأقول :

ـ بالطبع يا سيد غباره . . جونسون يعلم عنى كل شىء ويعرف كم أنا مشغول هذه الأيام . . فهل يوافق من أجل بلدينا أن يتعب نفسه قليلاً ويقابلنى هنا فى مصر ؟

غباره : نحن نريد لهذا اللقاء أن ينجح ، ووجود جونسون فى مصر سوف يثير تعقيدات كثيرة وأيضاً سوف يقلل من فرص نجاح مهمتنا .

ـ حسناً . . سأقابله فى واشنطن . . ولا تعتبر قرارى هذا نهائياً . . سأرد عليك غداً .

غباره : أنا أعلم أنك تريد أن تحصل على موافقة المسئولين . . ولكننا إمعاناً فى السرية نفضل أن تحصل على موافقة الرجل الكبير فقط .

عند ذلك قلت مندهشاً : يا سيد غُبارة ، يبدو أنك لا تعرف طبيعة المكان الذى نجلس فيه الآن ، إن الموائد مجهزة بميكروفونات دقيقة ومتصلة بغرف استماع فى كل أجهزة الأمن فى مصر ، بالإضافة إلى اثنى عشر شخصاً يجلسون حولنا الآن يضعون فى آذانهم سماعات دقيقة قادرة على سماع دبة النملة على بعد كيلو مترات ، بالإضافة لعشر عدسات لكاميرات تابعة لجهات مختلفة مركبة على هذا الكشك برىء المظهر ، ولا شك أنها قد التقطت لنا الآن عدة أفلام رائعة بالألوان الطبيعية .

ابتسم غباره ابتسامة عريضة وهو يقترب منى هامساً : القمر الصناعى المخصص لمهمتنا يقف الآن فى الفضاء الخارجى فوق مقهى ريش بالضبط ، وذلك للتشويش على كل هذه الأجهزة . . اطمئن من هذه الناحية .

حسناً ، لقد بدأت العبقرية الهندية تعمل فى حماية التكنولوجيا الأمريكية من أجل إنجاح مهمتنا . . بعد دقائق نهض مستر غباره لتحية صديق واضح من ملامحه أنه آسيوى هو الآخر وقدمه لى .

ـ مستر سديكى ويكتبونها بالعربية صديقى .

ـ هل هو هندى ؟ .

غباره : لا . . باكستانى . . ولكنه يحب مصر .

أخرج مستر سديكى من جيبه مسبحة صغيرة وأخذ يسبح بها ، مصر . . مصر . باحبك يا مصر . . وانشرح قلبى ، فإنه لشىء مفرح حقاً أن أقابل فى يوم واحد هندياً وباكستانياً يكنان كل هذا الحب لمصر.

وبعد لحظات من الدردشة العادية عن الجو ومستوى الطلبات فى المقهى ، قال لى مستر غباره : إن السيد سديكى من رجال الأعمال الباكستانيين ، وهو فى مصر من أجل مهمة مماثلة (لم يفصل لى عن طبيعتها . . ولكننى عرفت فيما بعد أنه يتردد كثيراً على منطقة الدرب الأحمر) .

وقبل أن ينتهى لقاؤنا قال لى غباره : ليس لدينا وقت لتعليمك الشفرة الخاصة بالتخاطب معنا . . ولذلك سأعطيك برقية ترسلها لنا إذا سار كل شىء على ما يرام وأخرج من جيبه ورقة أعطاها لى ، كانت صيغة البرقية كالآتى :

To the daughter of the neighbor , stop Hamouda is passing by stop .

ومعناها حرفياً : « إلى ابنة الجيران . . حمودة سوف يمر » .

فى نفس الليلة كتبت تقريراً بلقائى مع مستر غُبارة ورفعته للقيادة السياسية ، وبعد عشر دقائق بالضبط دق جرس التليفون فى منزلى بشارع الناصرية بالسيدة زينب . (الناصرية هو اسم الشارع منذ زمن قديم وليس له صلة بالمذهب السياسى المعروف بهذا الاسم) .

كانت القيادة السياسية هى التى تتحدث فى التليفون ، قالت لى بصوت خافت : اقبل المهمة !

ارتديت ملابسى على عجل ، وخرجت لكى أرسل البرقية إلى واشنطن من مكتب تلغراف عدلى ، وفى طريقى للمنزل عرجت على مقهى ريش لتناول فنجان قهوة ، وهناك وجدت مستر غباره ينتظرنى وعندما رآنى تهلل وجهه فرحاً والتمعت عيناه بحب مصر ، ثم عانقنى وهو يهمس فى أذنى مبتهجاً : لقد وصلت برقيتك إلى جونسون وسر بها كثيراً ، وصرح لبعض أصدقائه المقربين أنه معجب بك جداً ، ولذلك هو يريد أن يراك فوراً .

ـ متـى ؟

ـ الليلة إنْ أمكن .

ـ باسبورى ليس جاهزاً ، ولم أحصل على تأشيرة الخروج بعد ، وأنا فى حاجة لبيجاما جديدة وشبشب ومعجون أسنان وملابس داخلية ، وبدلى كلها لا تصلح لأن أقابل جونسون ، أعطونى فرصة لشراء ملابس جديدة .

قهقه مستر غباره بصوت عال أثار انتباه الموجودين ثم قال :

ـ سيكون كل شىء جاهزاً فى الوقت المناسب . . المطلوب أن تذهب الآن إلى منزلك لتنام .

استولت على سعادة طاغية وأنا أتأهب للنوم . غرقت فى النوم وأنا أغوص فى أحلامى الوردية ، أن مستقبل المنطقة العربية يتوقف على نجاح مهمتى ، لا بد أن أستنجد بكل قدراتى على الإقناع والإيحاء والتأثير لإقناع جونسون أن يساعدنا ، سأقنعه أن يعطينا آلاف المصانع ، وأن يساعدنا فى محو الأمية ، وفى القضاء على البلهارسيا ، وفى عمل شبكة هائلة من الطرق السريعة تنتظم الوطن العربى كله ، واستيقظت من هذه الأحلام على رنين التليفون ، وجاءنى صوت غباره هادئاً وأنا بين اليقظة والنوم :

- قم الآن وارتد ملابسك . . ستلتقطك سيارة على ناصية الشارع .

ارتديت ملابسى على عجل ونزلت . كان الوقت فجراً ، وعلى ناصية الشارع وجدت سيارة أمريكية كبيرة يقودها سائق أنيق ، وانطلقت بنا السيارة فى شوارع القاهرة ، غير أنه لدهشتى الشديدة لم تأخذ السيارة طريق المطار وإنما سارت فى طريق الاسكندرية الصحراوى ، أحسست باضطراب بل وبالخوف ، ولكن ملامح السائق الهادئة ، التى تقطع أنه يحب مصر حباً جماً طمأنتنى وأشعرتنى بالسلام . وعند الكيلو ٩٠ توقفت السيارة فى مكان منعزل ، واستطعت أن أتبين فى ضوء الفجر طائرة هليوكوبتر تقف فى انتظارى ، فى ثوان كنت أجلس فى الطائرة التى انطلقت بى بسرعة شديدة فى اتجاه السلوم ، طرنا حوالى نصف ساعة ، وفى مكان ما على شاطىء البحر هبطت الطائرة ، ووجدت فى انتظارى زورقاً صغيراً ، انطلق بى فى عرض البحر . . وبعد حوالى ربع ساعة وصلنا إلى مدمرة أمريكية سريعة كانت فى انتظارنا .

فى دقائق كنت فى غرفة قائد المدمرة نتناول طعام الإفطار ، وكان مكوناً من الفول المدمس بالزيت الحار وجبنة قريش وطعمية ساخنة وبصل أخضر ، بالفعل هؤلاء الناس يعرفون عنى كل شىء .

ثم جاء الشاى وقال لى قائد المدمرة : معذرة ، إن عملاء السوفيت منتشرون فى كل مكان ولذلك لجأنا لهذه الطريقة لكى لا يعلم أحد عن مهمتك شيئاً .

سكت قليلاً . . ثم قال فجأة : أبو علوة . ألم تفكر فى أن تصبح رئيساً للجمهورية ؟

وقفت اللقمة فى حلقى . ولكنى تمالكت نفسى وقلت : لا . . لم أفكر ، ولكنى على استعداد للتفكير إذا كان هذا ممكناً . . هل هناك حركة تعيينات جديدة ستصدر لرؤساء الجمهوريات ؟

ـ نعـم .

ـ حسناً . . لا مانع . . على شرط أن أكون رئيساً لبلد بلا متاعب ، أنا كسول بطبعى . . لتكن سويسرا أو السويد أو الدنمارك فابتسم وقال :

ـ حسناً . . سأكلمهم فى ذلك .

ـ هل سأصل إلى أمريكا على ظهر هذه المدمرة ؟

ضحك الرجل حتى استلقى على قفاه وقال :

ـ لا . . بعد نصف ساعة سنلتقى بحاملة الطائرات « ساراتوجا » ، حيث تنطلق منها طائرة حربية تحملك إلى واشنطن مباشرة .

وهذا ما حدث بالفعل ، انطلقت بى الطائرة من على ظهر حاملة الطائرات « ساراتوجا » فى حماية سرب من طائرات الفانتوم .

يا إلهى . . كم أنا مهم ! !

كنت متوتراً ومجهداً ، فنمت فى الطائرة نوماً عميقاً وواصلت أحلامى .

بعد رحلة استمرت حوالى عشر ساعات وجدت نفسى فى الجناح الذى خصصوه لى فى البيت الأبيض ، وعلى السرير الفاخر العريض مجموعة كاملة من الملابس الأنيقة ، بالإضافة لكل ما يحتاجه المرء من أدوات رحلة قصيرة ، وهتفت من أعماقى : أمريكا كم أحبك !

وأخيراً . . قابلت جونسون !

كان لقاؤنا فى المكتب البيضاوى ، دخلت على أطراف أصابعى وأنا أحس باضطراب خفيف ، فى منتصف المكتب تماماً كان يقف جونسون العظيم محدقاً فى لوحة كبيرة معلقة على الحائط . لقد كانت صورة لمصر بالحجم الطبيعى . كان يحدق فيها وهو يبكى من التأثر .

أنا لا أطالب أحداً بأن يصدق ما حدث فى هذا اللقاء ، لأنه ليس فى طاقة العقل البشرى أن يصدقه . ولكن بأمانة ، هذا ما حدث فعلاً .

لقد كان يبكى . . وبألم شديد صاح فجأة : آه يا مصر . . يا حبيبتى . . لقد استولى عليك الشيوعيون . . يا درة الشرق لقد قضوا على الحرية والديمقراطية فى ربوعك . . آه !

ازداد اضطرابى . وصمدتُّ احتراماً لمشاعره . إلى أن هدأ أخيراً والتفت لى وقال :

ـ معذرة يا أبو علوة . . انك لا تعلم كم أحب مصر .

ـ هذا واضح يا سيدى الرئيس .

ـ إننى أحبها أكثر من أمريكا !

وتبينت أننا لسنا وحدنا . كان معنا شخص ثالث منهمك فى الكتابة ، واتضح أنه مؤرخ اللقاءات السرية فى البيت الأبيض ، عرفت ذلك عندما شخط فيه جونسون .

لا تكتب جملتى الأخيرة .

وبدأ الحوار بيننا .

جونسون : أيوه يا أبو علوة . . فى دقائق قليلة سنخلصكم من كل مشاكلكم ومتاعبكم ، سنقضى على إسرائيل ، سنقضى على كل أمراضكم ، سنغرقكم فى الدولارات والقمح .

ـ هذا هو عشمى يا سيدى الرئيس .

جونسون : ولكن على شرط .

ـ مـا هـو ؟

جونسون : أن تتخلصوا من النفوذ الشيوعى .

ـ سيدى الرئيس . . لا أدرى من نقل لكم هذه الصورة الوهمية ، لأن مصر ليست مرتعاً للنفوذ السوفيتى أو أى نفوذ غيره ، مصر دولة تملك إرادتها تماماً ، وهذا هو سر متاعبها .

وهنا صاح جونسون وهو يضرب مكتبه البيضاوى بقبضة يده فى عنف شديد : هذا ما تظنونه ، لقد استولت العناصر الشيوعية على كل شىء فى مصر . . استولوا على الثقافة والصحافة والإعلام والتأليف والإخراج والنقد والديكور وكل شىء كل شىء . أمامى تقرير يقول إن عدد الشيوعيين فى مصر يفوق عدد الشيوعيين فى الاتحاد السوفيتى .

ـ لا بد أنك تمزح يا سيدى الرئيس .

عند ذلك تناول من على مكتبه مجموعة كبيرة من الكشوف قدمها لى وهو يقول : تفضل . . هذه الكشوف تحتوى على أسماء الشيوعيين فى مصر.

ألقيت نظرة على الكشوف وأحسست بالهلع ، كانت الكشوف تحتوى على كل أسماء المفكرين والكتاب المصريين تقريباً . انفعلت أنا الآخر وصحت فى وجهه .

ـ لا يا سيدى ، عملاؤكم فى المنطقة يخدعونكم ، هذه العناصر

كلها ، عناصر وطنية تضم الموهوبين من أبناء مصر والمنطقة العربية . . وهم فى النهاية يمثلون العقل الحقيقى لمصر . ويشكلون مع غيرهم القيادة الفكرية للمنطقة العربية .

جونسون : يعنى شيوعيين . . وعملاء للسوفيت !

نهضت واقفاً وأنا غير قادر على ابتلاع الإهانة ، وقلت له بحزم وانفعال شديدين : أنا أحتج يا سيدى الرئيس . والتفكير من هذا المنطلق لن يبنى جسوراً بين مصر وأمريكا . . إنه لن يزرع سوى الحقد والمرارة . . لا داعى لتصدير المكارثية إلينا ، هذه الأسماء كلها ليست عملاء ، ولا يصلحون للعمالة ، لأنهم موهوبون ، وأنت تعلم وأجهزتك أن العجزة وغير الموهوبين والأشرار هم فقط الذين يصلحون للعمالة . . دعنا نعترف يا سيدى الرئيس أن لقاءنا فاشل ، ولو سمحت روَّحنى !

عند ذلك أخذ يهدئنى ، وطلب لى عصير ليمون أمريكى وخرجنا إلى حديقة البيت الأبيض ومعنا المؤرخ .

وفى الحديقة وجدت برجاً كبيراً فى حجم برج القاهرة وسألته :

ـ ما هذا البرج ؟

فأجابنى بابتسامة : هذا ليس برجاً ، إنه رغيف كبير من أحدث أنواع القمح الأمريكى ، عندما تتخلصون من الشيوعيين ستصلكم كل الكمية التى ستطلبونها .

ـ حقيقة يا سيدى الرئيس لست أفهمك . . ما هو المطلوب

بالضبط؟ . . أن نفك مصانعنا وأن نعيدها للكتلة الشرقية . . ؟ أن نجمع سلاحنا وطائراتنا ومدرعاتنا ونعيدها للاتحاد السوفيتى . . ثم نقف عرايا فى مواجهة إسرائيل ؟

جونسون : نعم . . إذا فعلتم ذلك سنعطيكم كل شىء .

ـ ما هو الضمان ؟

جونسون : كلمتى .

ـ هل تعتقد يا سيدى أننا شعب من المعتوهين لكى نصدق مثل هذا الكلام . أرجوك أطلب منى أشياء معقولة لكى أقولها لهم هناك .

جونسون : ما أطلبه معقول تماماً .

ـ حسناً . . سأقول لهم ذلك . . وإذا لم يوافقوا ؟

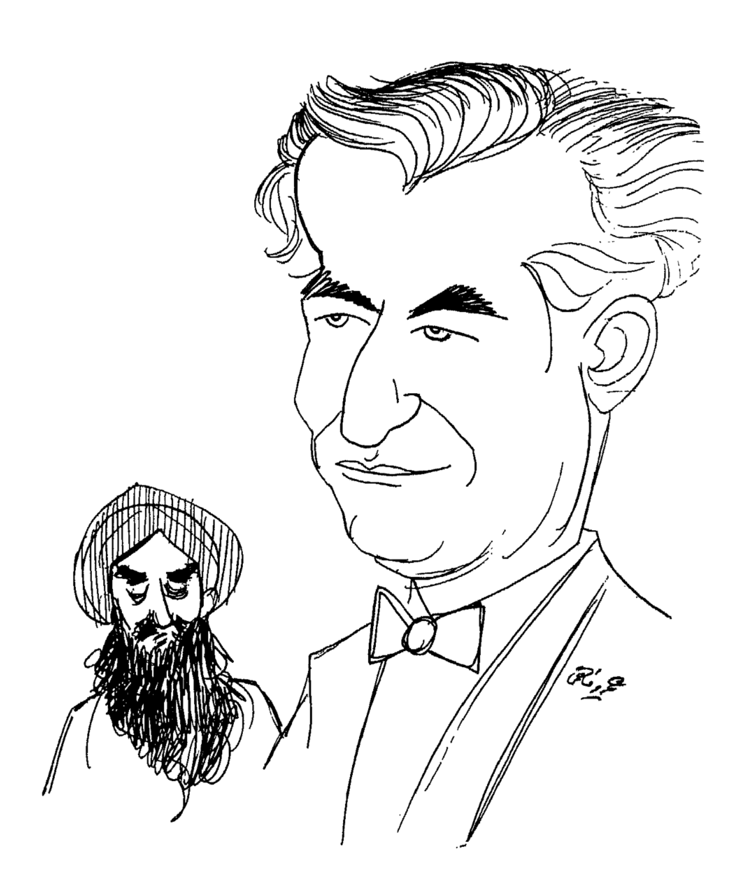
جونسون : سنضربكم بشدة ، سنقصم ظهوركم . . سنعطيكم درساً لن تنسوه . . إننا نحبكم ونحب مصر ولن نسمح لكم أن تترددوا فى هوة الإلحاد .

لا فائدة من الكلام مع هذا الرجل . قمنا نتمشى فى الحديقة . وتحت الرغيف الفينو الكبير ، كانت هناك ماكينة صغيرة فى حجم الآلة الكاتبة ، تصدر أزيزاً خفيفاً ، استرعت الآلة انتباهى فقال لى : إنها آلة لطباعة الدولارات . . طاقتها مليون دولار فى الدقيقة ، وأنا أساعد منها دول العالم الثالث التى تتخلص من الشيوعيين . إنها الطريقة الوحيدة

لمساعدة هذه الدول دن المرور على الكونجرس . العناصر الشيوعية فى الكونجرس تعاكسنى . . وهذه الماكينة متصلة بأنابيب تفرغ شحنتها من الدولارات فى وزارة الخزانة بكل الدول الصديقة . . تحب تأخذ شوية ؟

شكرته بلطف ، وأنا أحس بأحلامى وآمالى تتحطم ، لقد فشلت مهمتى ، إن تصديق وجهة نظر جونسون فى حاجة إلى كم من السذاجة لا أتمتع به . وقد يكون غيرى أكثر قدرة منى على إقامة الجسور بين مصر وأمريكا .

وفعلاً ، قلت هذا للقيادة السياسية فى مصر وانتهت مهمتى عند هذا الحد . وأظن أن رجال جونسون بحثوا بعدها عن وسيط آخر ، لا يتمتع بمثل خيبتى .





حقيقة الدور الذى قمت به بين الشاه والخمينى

من المؤلم أن تكون صديقاً لرجلين يكره كل منهما الآخر كراهية بشعة . والأكثر إيلاماً أن يلجآ إليك من أجل حل مشاكلهما ، تلك المشاكل والخلافات التى كان من الممكن حلّها برقة ولطف منذ عشرة أعوام وخاصة بعد أن تفاقمت واستفحلت ووصلت لحد القتل . ولا زالت الضحايا بسبب هذه الخلافات التى كانت بسيطة يوماً ما تسقط كل يوم، بل كل ساعة ، بل كل لحظة .

الصديقان هما آية الله الخمينى ، وشاه إيران .

فأنا أعرف آية الله الخمينى منذ زمن طويل . منذ أن كان الشيخ الخمينى فقط . وقبل أن يحصل على لقب آية الله . كان رجلاً ورعاً ، متديناً ، مرح الأعطاف ، حلو القسمات ، حاضر البديهة ، عف اللسان، عالماً ، كريماً ، مضيافاً .

أقول كان ، وينهش الألم قلبى وأنا أقول كان كل ذلك .

أما الشاه فقد بدأت علاقتى به عندما دعانى للاحتفال بأعياد قورش الشهيرة التى تحدث عن ولائمها القاصى والدانى .

بدأت علاقتنا بحكاية طريفة . فقد شاءت الظروف أن أجلس فى طرف مائدة الملوك والرؤساء ، فصاح من بعيد (كانت هذه هى المرة الأولى فى حياته التى يرتفع فيها صوته) قال :

ـ أبو علوة . . هل جربت شوربة زلومة الفيل البنغالى الأبيض ؟

بصراحة لم أكن قد ذقتها من قبل ، وأيضاً لم يكن لدى الاستعداد لذلك . فأحنيت رأسى بأدب وأجبته بصوت خافت : كم كنت أود ذلك يا مولاى، غير أن شوربة الفيل تسبب لى حساسية شديدة .

فابتسم الشاه ابتسامة عذبة وهو يعلق على إجابتى مع السيد نيكسون (رئيس الولايات المتحدة السابق . . يالله . . عظماء كثيرون من الذين حضروا هذه الأعياد حصلوا الآن على اللقب « سابقاً ») .

اكتفيت فى طعامى بورك طاووس هندى مقلى فى السمن البلدى ثم طبق مهلبية صغير مصنوع من لبن عصفور البهاما الأبيض . (يقول الخبراء فى مطعم مكسيم . إن الطبق الواحد يستلزم حلب ٢٠٠٠ (أَلْفَىْ) عصفور بشرط أن يتم اصطيادها فجراً فبعد الفجر بدقائق يتحول لبنها إلى زبادى) .

بعد الاحتفالات مباشرة توجهت إلى مدينة قم لمقابلة عمى الخمينى ولكنى للأسف لم أجده وقال لى بعض تلاميذه : إن الشاه نفاه .

غضبت غضباً شديداً وعدت من فورى للقصر الامبراطورى وطلبت مقابلة الشاه فى الحال ، فقيل لى إنه فى الحمام ، فأصررت على أن أدخل عليه الحمام (على فكرة الحمام الشاهنشاهى ليس مثل تلك الحمامات العادية التى يستخدمها بقية البشر . هو مكتب فخم جداً « ووتربروف » يتسرب إليه البخار من فتحات صغيرة فى الجدران . ويمارس فيه الشاه أعماله العادية . توقيع البوسطة ، تسيير شئون الامبراطورية . . إلخ . . وذلك بعد أن يتخلص من ملابسه ونياشينه ويكتفى بمايوه صغير) . . أدخلنى مدير مكتبه لشئون الحمام . فلما رآنى الشاه . . صاح بمرح (كانت هذه هى المرة الثانية فى حياته التى يصيح فيها بمرح) . . .

ـ أخبارك إيه يا أبو علوه . . ؟

ـ أخبارى هذه المرة ليست طيبة يا مولاى (عادة كنت أقول له يا مولاى عندما أحدثه فى أمر يثير الاستياء) . . لقد ذهبت لزيارة عم الشيخ الخمينى . . فلم أجده . .

فى هذه اللحظة كان حاجبه الأول يدعك له ظهره بلوفة إليكترونية ، فابتسم لى وأجاب :

ـ لقد نفيته .

ـ تقول نفيته يا مولاى . . ؟

(لعل القارىء يدهش من إصرارى على استخدام كلمة مولاى . . الواقع أننى كنت أصر على استخدام هذه الكلمة فى أى حوار بيننا يختص

بالسياسة أو شئون الحكم . . أما فى الحوار العادى فكنت أناديه ، يا عزيزى الشاه وفى لحظات المرح كنت أقول له ، إيه يا حلاوة . . أخبارك إيه يا عسل . . ؟) .

فأجابنى للمرة الثانية بحزم : نعم . . نفيته . . إننى على استعداد لأن أقتل من أجل رفاهية شعبى . . إننى من أجل إيران وشعب إيران مستعد لما هو أكثر من النفى . . تصور . . هذا الرجل المدعو الخمينى . . يعارضنى .

ـ أفهم من ذلك يا مولاى أنك تعمل من أجل رفاهية شعب إيران وهو يعمل من أجل رفاهية الشعب الهندى . . ؟

ـ من فضلك كف عن السخرية .

ـ صدقنى يا مولاى أنا لا أسخر من أى شىء . . أنا أريد أن أفهم .

ـ حسناً ، باختصار . . هذا الرجل يسبب لى متاعب كثيرة .

ـ وعندما تنفيه يا مولاى ، تتخلص من هذه المتاعب . . ؟

ـ بالطبع .

ـ لا يا مولاى ، إنك تنفيه لكى تبدأ المتاعب الحقيقية . يقولون فى مصر إن الشيخ البعيد سره باتع . . . وأنت حولت الخمينى من شيخ قريب . . إلى شيخ بعيد .

عند ذلك استدار الشاه ليواجهنى بعد أن أشار لمدلكه أن يبتعد .

ـ باتع . هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها هذه الكلمة . . ما معناها ؟

ـ باتع يا مولاى . . يعنى فعّال . . ساحر . . قوى . . . لذلك يا مولاى أهالى قنا يزورون سيدى السيد البدوى فى طنطا ، وأهالى طنطا يزورون سيدى عبد الرحيم القناوى فى قنا . . . عندما تنفى الخمينى يا مولاى ، يزداد سحره وتتضاعف قوته . . إنك تحوله لأن يصبح المهدى المنتظر . . الإمام المنتظر . . المخلّص . . جودو . . . إنه الأمل البعيد والقريب معاً . . والتعساء عادة يتمسكون بشدة بالآمال من هذا النوع .

ـ مصيبتك أنك فنان لا تفهم شيئاً فى السياسة (لو كلمنى شخص آخر بهذا الأسلوب لقتلته على الفور ، ولكنى مع أصدقائى الأباطرة أتساهل كثيراً) . . لذلك ستظل طول حياتك كاتباً مسرحياً فقط . . إسمح لى يا عزيزى الفنان أن أعطيك درساً فى أصول الحكم . .

ـ إتفضل يا مولاى .

وهنا فتح الشاه دش الكولونيا الجاف فخرجت منه سحابة كبيرة غطت جسمه كله . . وهى كولونيا من نوع عجيب تستطيع أن تشمها من على بعد كبير . ويقال إن محطات الإنذار والتصنت والتشمم كانت ترصدها على الحدود الروسية والتركية .

بدأ الشاه يتكلم وبدأ صوته يتخذ نبرات الأستاذ المحاضر : الشعوب تطلب الحرية والإخاء والمساواة والديموقراطية والرفاهية والسعادة إلى آخر

تلك التشكيلة الغريبة من الألفاظ غير المفهومة والتى ليس لها معنى واضح محدد . . هذه هى طلبات الشعوب المعلنة التى يتصايح بها أمثالك من الكتاب والفنانين والنصابين أيضاً . . أليس كذلك ؟

ـ نعم يا مولاى .

ـ جميل ، ولكن التاريخ يقول شيئاً آخر . التاريخ يقول إن الشعوب لن تغفر أبداً لإمبراطور أن يكون ضعيفاً . . الناس كلها ، وكل الأحزاب ، والتيارات السياسية سوف تحترمنى بشدة إذا عاملتها بقسوة ، وهؤلاء الذين يعارضوننى ، يعارضوننى بدافع من الشر . . ولذلك فأنا أسحقهم ، أقتلهم ، أسجنهم ، لا مفر من ذبح البعض من أجل رفاهية الكل . . ولقد كان من الممكن أن أقتل الخمينى ، ومن هو أتخن منه . . ولكننى أبقيت عليه إكراماً لخاطرك . . لأننى أعلم أنه صديقك . . بهذه الطريقة فقط ، أضمن وحدة شعب إيران وأضمن السعادة والرفاهية .

ـ أفهم من ذلك يا مولاى أنك تتعمد أن تسبب كمية من الرعب لجزء من الشعب الإيرانى . . .

ـ نعم . . جزء بسيط جداً . . بضعة آلاف . .

ـ هل تضمن يا مولاى ألا يتسع نطاق الرعب ويشمل الشعب كله .

ـ يبقى خير وبركة . . اعطنى شعباً مرعوباً وأنا أفعل به المستحيل . . الشعب المرعوب شعب منضبط . . يسمع الكلام . . وعندما يسمع

الشعب كلامى . . ستنجح خطة التنمية . .

ـ هل تعلم يا مولاى متى تثور الشعوب ؟

وهنا بدأ الشاه يضحك حتى استلقى على قفاه فى البانيو الأزرق الكبير .

ـ تثور . . ؟ . . ها ها . . يا بنى لقد أفسدتك الكتب والمسرحيات . هل عندك فكرة عن أجهزة الأمن الموجودة لدى . . ربع قوات الأمن الموجودة فى إيران كفيلة بإحباط الثورة الفرنسية فى ربع ساعة ، والثورة البلشفية فى ساعتين . وإذا تمكن خصومى بطريقة ما من الوقوف أمام قوات الأمن ، فلدى القوات المسلحة . . لدى جيش قادر على الوقوف فى وجه الشيطان نفسه . . اطمئن من هذه الناحية .

● ● ●

خرجت من القصر الامبراطورى حزيناً كاسف البال . . . الشاه يفهم جيداً فى أصول الحكم وأنا أفهم جيداً فى الإنسان . . . ترى . . من منا على حق ؟ . . من يدرى ، لعل كِلَيْنَا مخطىء .

باعدت الأيام بينى وبين شاه إيران . وانشغل كل منا بشئونه الخاصة. انشغل هو بذبح معارضيه وانشغلت أنا بمعاركى مع رقابة المسرح .

ولكنى لم أنس عمى الخمينى . وانتهزت أول فرصة لزيارته فى القرية

التى يعيش فيها بالقرب من باريس . سعد جداً بلقائى وكان يكرر بين الحين والآخر « والله زمان يا بو علوة » وهأنذا أعود لأوراقى الخاصة التى سجلت فيها لقائى معه بمجرد عودتى إلى الأوتيل . . . فجأة نظر لى عمى الخمينى ثم قال :

ـ شفت صاحبك عمل فىَّ إيه ؟

ثم قال بعض الألفاظ والصفات السيئة التى لا يمكن نشرها ، ولكنى على أى حال أثبتها فى وثائقى الخاصة .

فأجبته : عمى الخومينى . . خليك أنت الكبير . . ولا يهمك . . وعلى العموم . . سوف أتدخل لإصلاح الأمر بينكما . . وأعدك بأننى سأجعله يعتذر لك علناً . . ويرضيك . . وهنا التمعت عيناه ببريق غاضب لم أر مثله فى حياتى وقال : لا . . لا . . لا . . انظر إلى . . ليس لدى أجهزة أمن . . ليست لدى جيوش . . ليس لدى دعم من أمريكا أو من الاتحاد السوفيتى . . لدى فقط إيمانى بالله . . . أقسم أننى سأقضى عليه وعلى أعوانه واحداً واحداً .

فقلت له مهدئاً : عمى الخمينى . . حتى الآن من الممكن إصلاح الموقف . . سأذهب للشاه ، وأصفّى الأمر كله . . وتعود لإيران معززاً مكرماً . .

فنظر لى بشك وريبة : من الذى أرسلك . . ؟ . . الشاه . . أم السافاك ؟

ـ أرجوك يا عمى الخمينى . . عيب . . إننى أتحرك بوحى من ضميرى، كلاكما صديق لى وعزيز علىّ . . كما أنك ولا شك تعرف علاقتى بشعب إيران . . إن ما يهمنى فى النهاية أن يحيا شعب إيران فى سلام . . من المؤكد أن كارثة ما ستحدث نتيجة لخلافاتكما .

ـ الكارثة ستحدث له هو وأسرته ، وأعوانه ، وأجهزة أمنه ، وجيشه، وكل من يحاول الدفاع عنه . . انظر ، وهنا فتح درج مكتبه وأخرج شريط كاسيت صغير .

ـ هذا هو أقوى الأسلحة الموجودة على الأرض الآن . . هذه القطعة الصغيرة من البلاستيك ستقضى على نظام الشاه . . . هذا الشريط يحمل كلماتى إلى الشعب الإيرانى . . وكلماتى تعنى الثورة والأمل . . بضعة أيام أو بضعة شهور أو بضعة أعوام ويثور الناس . . كل الناس .

سألته : هل سترسل شريطاً لكل مواطن . . ؟

ـ لا . . يكفى أن يتسرب شريط واحد إلى البلاد . . وسيقوم الناس بعمل الباقى . . سينسخونه ويصنعون منه آلاف الأشرطة . . عندما يدور هذا الشريط . . سيدور معه عرش الطاووس ليذهب للجحيم . .

شعرت بقشعريرة مفاجئة . وبدأت أشعر بالقلق الشديد على مصير الشاه . صحيح لديه أجهزة الأمن والجيوش والمعدات والأسلحة . ولكن الخمينى هو الآخر ، اهتدى إلى أقوى سلاح فى الوجود . . الكلمات .

والكلمات الآتية من بعيد ، من الشيخ البعيد . . . وتذكرت كلمتى

للشاه ، الشيخ البعيد سره باتع . وتذكرت مثلاً آخر يقولونه فى ريف مصر « الدّو على الودان أقوى من السحر » . . ومرت خمسة أعوام .

أجهزة القمع تعمل داخل إيران وخارجها مستعينة بكل وسائل تكنولوجيا العصر . . . وشرائط الكاسيت التى تحمل الكلمات تعمل هى الأخرى وتدور . . وفى دورانها تقترب بالشاه من مصيره المؤلم .

وخرج الشعب الإيرانى فى الشوارع يهتف بسقوط الشاه ، نعم ، الشعب كله . اليسار واليمين . . اليسار الوديع ، واليسار الوسطانى ، واليسار اليمينى ، واليسار الفوقانى .واليسار التحتانى . اليسار العميل، واليسار الوطنى واليسار الديموقراطى واليسار الليبرالى . . وبالإضافة لكل ذلك اليسار الإيرانى أيضاً .

وخرج اليمين بكل فصائله . اليمين الرجعى ، واليمين المستنير ، واليمين اليسارى ، واليمين اليمينى ، واليمين المعتدل واليمين المعووج ، وبالإضافة لكل ذلك اليمين الإيرانى . .

وخرجت الاتجاهات الدينية أيضاً . الشيعة والحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية واتجاهات أخرى لا أعرفها .

كلهم خرجوا إلى الشارع ضد الشاه ، بالإضافة للرجال والنساء العاديين والأطفال الذين ليس لهم أى لون سياسى أو مذهبى .

نعم لقد خرج شعب إيران كله يطالب بخروجه (بعض الاتجاهات بالطبع لها مطالب أكثر قسوة وبشاعة من مسألة الخروج) .

بدأت الصحافة فى العالم كله تهاجم الشاه (عرفت من الشاه فيما بعد أن هؤلاء الذين كانوا يقبضون منه كانوا أكثر ضراوة فى هجومهم) وبدأت الصحافة فى العالم كله تمجد آية الله الخمينى . وتتحدث عن قرب عودته لإيران . وكان الخمينى يصدر تصريحات غاية فى الطرافة ، عن المرأة وعن الحياة التى سوف يفرضها على إيران ، وكانت الصحافة فى العالم كله تمجده ، الأمر الذى جعل صديقاً كريماً يقول : (الزعيم الشاعر سنجور) : إننى فى غاية الدهشة والرعب ، هذا الرجل يصفق له العالم كله عندما يقول : إنه سيعود ببلاده للقرون الوسطى .

لقد وضع سنجور أصابعه على الوجيعة . . إن الغرب على استعداد لأن يمجد أى حاكم يعود ببلاده للقرون الوسطى . بشرط واحد ، أن تكون بلده من بلدان العالم الثالث . إن الغرب على استعداد لتمجيد وتدعيم الإمبراطور بوكاسا . ولا ينتابه الخجل إلا عندما يعرف الناس فى العالم كله أنه يقتل الأطفال . ما علينا ، أيها الغرب ، الله يخرب بيتك أنت والشرق أيضاً .

● ● ●

ذات مساء عندما عدت إلى منزلى وجدت تلغرافاً من الشاه يحمل كلمة واحدة . . « إلحقنى » .

فجهزت حقيبة صغيرة وانطلقت على الفور إلى المطار واستقللت أول طائرة إلى طهران . وفى الطريق من مطار طهران إلى القصر الإمبراطورى

أدركت أبعاد الكارثة . متاريس فى كل مكان . سيارات محترقة . جماعات مسلحة تعترض السائرين . كنت وحدى . . فهذا أدعى للاطمئنان من أن أسير فى حماية رجال الشاه .

استوقفتنى جماعة مسلحة وشاهد رئيسهم أوراقى وأعادها لى بأدب وهو يقول :

ـ نحن نعرفك يا سيدى . . أنت تكتب الكوميديا وتضحك الناس ، ونعرف أنك ذاهب لمقابلة صديقك الشاه بعد أن أرسل تلغرافا يطلب حضورك . . ولكنك لن تستطيع أن تجعله يضحك هذه المرة ، سيبكى ، وسنضحك نحن .

بجوار رئيسهم كان يقف مساعده متجهم الوجه . عندما علم أننى من أهل المسرح صاح فى هستريا :

ـ المسرح الكوميدى حرام . . . والسينما حرام . . والموسيقى حرام . . والغناء حرام . . والرسم حرام . . والشعر حرام . . وكل حاجة حرام . . عندك اعتراض ؟

ونظرت إلى فوهات البنادق والسكاكين ولم أعترض بالطبع فتركونى أمر.

عند وصولى للقصر أُدخلت على الفور إلى مكتب الشاه ، لا أنسى ما حييت هذا اللقاء .

لم يكن هو الشاه الذى أعرفه . . لقد فقد الكثير من وزنه ، وفقدت

عيناه بريقها القديم ، بريق القوة والسطوة وبدت هالات زرقاء وبنفسجية حول عينيه دلالة على أنه لم ينم منذ أيام . . عندما رآنى ، هب واقفاً على الفور وعانقنى والدموع تلتمع فى عينيه الشاهنشاهيتين ...

ـ شكراً لمجيئك .

فقلت مخففاً عنه ، ولا يهمك يا حلاوة . . زوبعة وتمر . . سحابة صيف يا عسل .

فهمس بمرارة (كانت هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أراه فيها يهمس بمرارة) : لقد أصيب الشعب الإيرانى كله بالجنون . . سحرهم الخمينى ... وهأنذا أقف وحدى . . لقد خدعنى كل رجالى . . كل تقاريرهم كاذبة ... كلهم منافقون ، مخادعون . .

وبدأ يبكى ...

يا إله السموات . . الشاه يبكى ماذا نفعل نحن البشر العاديين ؟

اهتززت بعنف لبكائه وقلت له : مولاى . . لا زال الأمر كله فى يديك . . دعنا نفكر بهدوء ونضع خطة عمل جديدة . . قل لى يا مولاى . . ما رأى أمريكا . . ؟

وهنا ابتسم ابتسامة امبراطورية حزينة وأجاب :

ـ هذا ما أرسلت أطلبك من أجله . . أريدك أن تذهب لأمريكا الآن

فوراً . أريدك أن تقرأ نواياهم . . ما هو تقييمهم للموقف . . أريدك أن تعرف على وجه الدقة ... هل قرروا التخلص منى ؟

وهنا قاطعته قائلاً : بعد الشر يا مولاى . . إننى أعرف أمريكا جيداً . . لا يمكن أن تفكر أمريكا مثل هذا التفكير السخيف .

وهنا عاد الشاه للحديث بصوت خافت : اننى لا أثق بأحد من رجالى . . ولذلك ستذهب أنت .

ـ تحت أمرك يا مولاى .

أمريكـا .. أمريكـا

إن استدعاء الشاه السريع والمفاجىء لى ، لم يتح لى فرصة ارتداء ملابس مناسبة . ولذلك فقد وصلت طهران مرتدياً قميصاً بسيطاً وفوقه « بلوفر » وبنطلون خفيف .

وبما أن رحلتى إلى أمريكا سوف تحفها مخاطر عديدة وخاصة فى الطريق من قصر الشاه إلى المطار ، لذلك قد سحبنى الجنرال « أمان يالّى أمان » مسئول الأمن فى القصر الشاهنشاهى ، من يدى إلى غرفة الملابس الواقية للحصول على ملابس مناسبة .

وكانت بياناتها كالتالى :

١ ـ صديرى من الفولاذ واقٍ من الرصاص .

٢ ـ جاكت مصنوع من معدن غير معروف واقٍ من المدفعية .

٣ ـ معطف مضاد للقنابل الحارقة .

٤ ـ حذاء مضاد للألغام الأرضية تحته جوارب من الحرير المسقى بالصلب .

٥ ـ نظارة سوداء كبيرة واقية من الشظايا .

وأخيراً وضع على رأسى قبعة عريضة مضادة لقنابل الهاون وبعد أن ارتديت كل هذه الترسانة المسلحة . ابتسم لى الجنرال « أمان ياللّى » وقال لى بحزن : « لقد صنعت من أجلك كل ما أستطيعه . كان الله معك » .

فشكرته وأخذت طريقى للمطار .

أحسست بسعادة غامرة وأنا أخترق المظاهرات وأجتاز المتاريس . كنت واثقاً من سلامتى تماماً وأنا أتحرك داخل هذه الملابس المدرعة . . وأن المتظاهرين لن يستطيعوا إصابتى إلا إذا استخدموا القنابل الذرية وهذا أمر مستبعد تماماً ...

ولكـــن . .

آه من ولكن هذه . . دائماً تقفز فى حياتى فتفسد على أمورى وتشعرنى أن قوتى ليست إلا وهماً فى وهم . . ولكن «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . . ولقد كتب لى قبل المطار بكيلو متر واحد أن أصاب «بزلطة » صغيرة مدببة ذات حواف حادة ، طوح بها طفل عبقرى ، فأصابت أذنى وأنفى إصابة مباشرة . وبدأت دمائى الطاهرة تسيل .

وأخذت ألعن تكنولوجيا الغرب التى لم تضع فى حساباتها وقاية الإنسان من الزلط فى منطقة الشرق الأوسط ...

وتنفست الصعداء عندما وصلت أخيرا إلى المطار .

كانت طائرة الشاه الكبيرة « طائرة سلاح الطيران الإيرانى رقم واحد » تقف على أول الممر وقد دارت محركاتها فى انتظارى . . وبمجرد صعودى إليها ، اندفعت على الممر بسرعة وهى تهدر ثم أخذت تشق طريقها مخترقة أجواز الفضاء .

اقتربت منى المضيفة الجميلة واعتنت بجروحى فتوقف نزيف الدم الطاهر على الفور . وأخذت أتمتع بجو الطائرة المنعش وبحفاوة المضيفات الجميلات (من المعروف لدى الدوائر السياسية الهامة ودوائر صناعة القرار ، أن نجاحى فى مهماتى السرية الخطرة ، يتناسب تناسباً طردياً مع درجة جمال المضيفات . فكلما ازدادت درجة جمال المضيفات كلما ازدادت احتمالات نجاحى فى مهمتى . ولقد تصادف فى إحدى مهماتى السرية أن كان طاقم المضيفين كله من الرجال . ولك أن تتصور النتيجة . فشلت فشلاً ذريعاً وقامت الحرب . ودفع العالم كله ثمن هذه الغلطة . (راجع أسباب الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ص ١٥ ، ١٦) .

غصت فى مقعدى وأنا أتأمل السحاب من خلال نافذة الطائرة ، وبدأت أشعر بصفاء عقلى غريب وهذا شىء نادر الحدوث ... هذا الذى حدث . . لماذا حدث ؟

لماذا انفجرت الثورة فى كل سنتيمتر من إيران . . ؟ . . (لاحظ أنه لا أحد أجاب على هذا السؤال حتى الآن) ووجدتنى أقترب من الإجابة .

ماذا تقول لو فوجئت بالأرض تنشق وبالبراكين تثور وبالأعاصير تهب مقتلعة الغابات والمدن والقرى ؟! .

لا شك أنك ستقول إن الطبيعة قد جنت ، بمعنى أن موازين الطبيعة ومقاييسها وحساباتها قد اختلت وتداخلت فى بعضها البعض . فتكون النتيجة هيجان وفوران وثوران .

وإذا طبقنا مقاييس البشر العادية على هذه الحالة فسوف يبدو لنا أن الطبيعة تناولت فى أحشائها وجوفها طعاماً فاسداً سبب لها كل هذه الحمى وكل هذه التقلصات .

آه ... لقد حدث إخلال بالبيئة الطبيعية داخل جسم الشعب الإيرانى ، لقد حدث تلوث للبيئة .

ترى ؟ ما هو هذا الإخلال ؟ . . ما هو هذا التلوث وطبيعته ؟ . . من الذى قام به أو أحدثه أو تسبب فيه ؟

أحسست بعقلى ينمو ويتسع . واشتد صفاؤه . بدأت الظلمة تختفى من أرجائه ، ويحل محلها ضياء وصفاء عجيبان . (لو استمرت هذه الحالة ساعة أخرى لكسب العالم سقراطاً جديداً ، من المؤكد أن هذه الحالة ليست نتيجة مباشرة لطبق الفول المدمس بالزيت الحار الذى تناولته صباح الأمس . أو لعلها أحد تأثيراته الجانبية) .

وقفزت الفكرة لعقلى بوضوح وجلاء . لقد قضى الشاه على المعارضة الطبيعية ، المعارضة الطبيعية التى تعطى شعبه الوحدة والتماسك والاتحاد . لاحظ استخدامى لكلمة طبيعية . إن وجود الغابات والأنهار والصحارى أمر طبيعى . . من هذا المنطلق تصبح المعارضة أمر طبيعى .

هكذا بدأت أول حلقات تلوث البيئة . لقد رأى الشاه (ويا شؤم ما رأى) أن المعارضة الطبيعية ليست أمراً طبيعياً فقضى عليها . كانت حساباته كالتالى :

هناك مائة عصفور على الشجرة . سأضرب خمسة منها فقط من العصافير المعارضة لكى تنعم بقية العصافير بحياة هادئة وادعة على أغصانها . .

والنتيجة معروفة طبعاً . طارت العصافير كلها . طارت كلها مذعورة، مرعوبة ، يائسة ولكنها لم تستمر فى الطيران وقتاً طويلاً . . هل يستطيع أحد أن يطير هارباً إلى الأبد ؟ . . كان لا بد أن تعود لتنقض . . وقد حولها الفزع والرعب والجوع واليأس والخرافة إلى صقور ونسور وحدأة وأرخاخ (جمع رخ . . لعلك تفضل استعمال كلمة رخات أو رخاريخ أو رخاخين ... أو رخاخخ ... أنت حر) ...

تجاوز الشاه حاجز الرعب المتفق عليه دولياً ... وذلك عندما عامل شعبه بكميات أسطورية من القمح الشاهنشاهى حولته إلى وحش على وشك أن يطيح بكل شىء فيما بعد ، أطاح فعلاً بكل شىء .

عند هذا الحد من التفكير وجدتنى أصل إلى نظريتى الأولى فى الفكر السياسى (إوعى تسرقها وتنسبها لنفسك) عندما نحرم المعارضة الطبيعية من أدواتها الطبيعية . . وهى :

الميكروفون الطبيعى الشرعى ، حق الاجتماع الطبيعى الشرعى ، حق التعبير الطبيعى الشرعى بكل أدواته الموجودة والتى سوف تخترع فيما بعد . .

فإننا نحولها لمعارضة غير طبيعية (نحن الذين نحولها) ... عندما ندفعها إلى هوة اليأس وندفع بظهرها للحائط .

إن عدم الاعتراف بالمعارضة كأمر طبيعى إخلال بالبيئة وتلويث لها . وإذا اقترن ذلك بالفقر « البشع » يصيب قطعاناً كبيرة من البشر بالإضافة للفشل الحتمى فى توزيع الثروة وتخريب مصادرها كنتيجة لغياب جماعات الضغط عن مجالات الضوء الخاصة بصنع القرار . .

إننى أقول إذا حدث هذا كله فى بلد شديد الثراء مثل إيران (تصدر إيران بثلاثين مليار دولار بترول ٣ وأمامها عشرة أصفار . . شوف انت يجيبوا كام كيلو لحمة ؟) ... إذا حدث هذا كله . . فلا يجب علينا أن نشعر بالدهشة أو الصدمة إزاء نتائجه .

● ● ●

دخلت الطائرة الأجواء الأمريكية فى الرابعة صباحاً ، وعلى الفور

بدأت الاتصالات اللاسلكية بين الطائرة وبين كل جهات صنع القرار فى أمريكا . الخارجية ، المخابرات ، الكونجرس ، البنتاجون ، البيت الأبيض . . ومن خلال نافذة الطائرة كنت أرى المبانى التى تضم هذه الجهات تضىء واحداً بعد الآخر . وطبقاً لجهاز التسجيل فى الطائرة والمحفوظ الآن فى أرشيف السفارة الأمريكية مع الرهائن فى طهران ، كانت الرسالة الأولى من الطائرة هى :

ـ سلاح الطيران الإيرانى رقم واحد . . عاجل جداً وسرى للغاية . . إلى كل من يهمهم الأمر . . أبو علوة يطلب مقابلة الرئيس كارتر الآن .

وكان الرد من البيت الأبيض هو :

ـ الرئيس الأمريكى نائم ... ونحن نعرف ونقدر أهمية « أبو علوة » . . غير أننا نرجوه أن يؤجل طلب المقابلة إلى السابعة صباحاً . [وسوف تنتظره فى المطار لجنة سامية تتباحث معه فى ما يريد إلى أن يقابل الرئيس] .

أشرت للطيار بالرفض وأمرته أن يكرر الرسالة فأرسل يقول : أبو علوة مصر على طلبه ... إنها مسألة حياة أو موت شعب بأكمله . . أيقظوا الرئيس الأمريكى .

تحرج الموقف . . كادت أن تحدث أزمة . ولكن الرئيس الأمريكى أنقذ الموقف . . فوجئت بسماع صوته يتدخل فى المكالمات .

ـ أهلاً يابو علوة . . أنا كارتر .

ـ أهلاً يا جيمى . . صباح الخير ونهارك أبيض .

ـ حمد الله على السلامة . . أمريكا نورت .

ـ منورة بأصحابها .

ـ أنا سهران فى انتظارك . . تعال فوراً . .

صلتى بالرئيس الأمريكى تعود إلى سنوات عديدة مضت ... جمع بيننا الفول السودانى . . هو يزرع الفول السودانى فى الجنوب الأمريكى . . وأنا أعشق كل أنواع الفول ، الفول السودانى ، والفول المدمس بكل مشتقاته والفول الأخضر وفول الصويا .

بادرنى الرئيس بالحديث : اسمع يابو علوة . . صداقتى بك تمنعنى من إخفاء أى معلومات عنك . . وتمنعنى من الإجابات الدبلوماسية ... توفيراً لوقتك . . ووقت الشعب الأمريكى ... أقول لك . . لقد قررنا التخلى عن شاه إيران . . تصبح على خير .

قالها ثم ألقى بنفسه على سريره وجذب فوقه الغطاء وراح فى نوم عميق . .

• • •

تخلص كارتر من حمله الثقيل وألقاه على كتفى أنا ثم استغرق فى النوم. وعندما يقول « جيمى » أن أمريكا قررت التخلص من الشاه فمعنى هذا أن هناك آلاف الصفحات قد كتبت ، وأن ملايين الكلمات

قد قيلت ، وأن عشرات بل مئات العقول قد تناطحت وتناقشت لكى تصل لهذا القرار البسيط . قليل الكلمات ، فظيع الأثر والنتيجة .

لم أصدق أذنى . داخلنى الشك فى أن أكون قد أخطأت ترجمة كلماته القليلة ، ولكن كلماته كانت واضحة تماماً . لقد قال جملته ببطء وببساطة وهو يضغط على كل حرف فيها بما لا يدع مجالاً لأى شك . لم أيأس واقتربت من سريره وأخذت أهزه برفق : جيمى ... جيمى ... صديقى جيمى .

كان نائماً نوماً عميقاً ، أو لعله كان يتظاهر بذلك لكى يؤجل نقاشنا إلى الغد ، عند ذلك سمعت صوتاً هامساً يقول لى برفق : من فضلك . . الدستور الأمريكى يمنع إيقاظ الرئيس الأمريكى بهذه الطريقة . . حتى ولو كان الأمير يتعلق بأصدقائه ، وأخلص خلصائه .

والتفت خلفى لأجد جون سليبنج (J.sleeping) وهو مسئول النوم فى البيت الأبيض وهو شخص آخر غير مسئول الاستيقاظ فقلت له بصوت خافت : أنا آسف . . لقد أخرجتنى المفاجأة عن وعيى . . معك حق . . سلوكى يخلو من اللياقة .

اقترب « جون سليبنج » من الرئيس الأمريكى النائم وأحكم الغطاء حوله ثم أضاف لغطائه بطانية أخرى وأشار لى بأن نخرج . فخرجنا بهدوء . وأغلق جون باب الغرفة محاذراً أن يحدث أى صوت .

أنا آسف يابو علوة . . إن مسئوليتى كما هو موضح فى الدستور

الأمريكى ولوائح الكونجرس والبيت الأبيض هى أن أعمل على نوم الرئيس نوماً عميقاً . . إذا انتاب القلق أو الأرق الرئيس بشكل يحرمه من النوم الهادىء فهذا معناه إصابته بتوتر نفسى أو عصبى قد يؤثر عليه فى اتخاذ أى قرار ، الأمر الذى يعرض الشعب الأمريكى أو العالم كله للخطر . . لقد سمحت له أن يظل ساهراً للرابعة صباحاً من أجلك . . ولأننى أقدر الصداقة التى تربطكما . .

أعرف أنه يكذب ، فاليوم السبت وغداً أجازة والرئيس الأمريكى مسموح له بالسهر إلى أى وقت يشاء ليلة الأحد . .

قادنى جون إلى غرفتى ثم تمنى لى أحلاماً سعيدة وهو يبتسم ابتسامة أقرب إلى التكشيرة ، هذا الرجل يتمنى لك أحلاماً سعيدة بطريقة تملأ ليلتك بالكوابيس والأحلام المفزعة .

كانت غرفتى البنفسجية فى البيت الأبيض ، هى الغرفة الوحيدة التى طليت بطلاء مختلف . وذلك بناء على طلبى (الدستور الأمريكى يسمح بذلك فى حدود ضيقة جداً . لا داعى لأن تذهب إلى هناك وتطلب المعاملة بالمثل ، لا داعى للإحراج) وهى نسخة طبق الأصل فى فراشها وأثاثها وأدواتها وأجهزتها من غرفة الرئيس الأمريكى نفسه ولعل القارىء الكريم أو سيىء النية يعتقد أن ذلك قد تم بناء على رغبتى أو طلبى . ثم يعتبر ذلك استغلالاً منى لصداقتى بكارتر ، الواقع أن جيمى هو الذى أصرّ على أن تكون غرفتى كذلك ، حتى لا يشعرنى بأنى أقل منه منزلة . . لقد كان دائماً يقول :

ـ « يخطىء من يظن أن المفكر الفنان أقل منزلة من الحاكم . . بل هو الحاكم الفعلى لأنه يصوغ وجدان الناس ويشكل ضمائرهم عبر التاريخ كله » .

الله يخليك يا جيمى . . ربنا يعطيك الصحة وينصرك على مين يعاديك . لا أحد أنصفنى كما تفعل أنت .

إن كرم الرئيس الأمريكى تجاهى لا تحده حدود ، والوثيقة التى أصدرها من أجلى (وثيقة الصداقة الحميمة) خير شاهد على ذلك ، فعبر التاريخ كله ، لم يحصل عليها سوى شخصين . . أنا وشخص آخر لا أعرفه . (كل المؤسسات والأجهزة هنا تتكتم اسم ذلك الشخص ، يبدو أنه أكثر أهمية منى) والوثيقة بها مواد سرية ومواد علنية . ولا بأس من أن أورد هنا بعض المواد العلنية .

تقول الديباجة :

« أبو علوة مواطن كَوْنى ، صديق لكل شعوب الأرض بشكل عام وصديق حميم للشعب الأمريكى بشكل خاص ، على كل الجهات المسئولة ، الرسمية وغير الرسمية فى كل أرجاء الولايات المتحدة مساعدته كل فى اختصاصه » .

مـادة ـ أ ـ :

على كل شركات الطيران والنقل البحرى والنقل البرى وشركات الفنادق والمطاعم وغيرها أن تهتم به اهتماماً خاصاً . . وألا تتقاضى منه

«سنتاً» واحداً على أن ترسل الفواتير للبيت الأبيض . ويعاقب بالحبس والغرامة كل من يثبت عليه أنه تناول منه أية مبالغ ولو على سبيل البقشيش .

مـادة ـ ب ـ :

من حق حامل هذه الوثيقة أن يسحب من البنوك الأمريكية داخل الولايات فقط ما يشاء بدون حد أقصى ، بلا توقيع وفى أى لحظة من لحظات الليل والنهار وبأى عملة من عملات العالم . وفى حالة أن يطلب سعادته مبلغاً بسيطاً ، على مدير البنك أن « يعزم » عليه بمبلغ أكبر .

مـادة ـ ج ـ :

لا داعى لأن تعرفها ليس لأنها سرية ولكن لأنك إذا عرفتها ، ستحسدنى وتحقد على .

مـادة ـ د ـ :

الحسناوات الأمريكيات فى كل مواقع العمل وأية مواقع أخرى مسئولات مسئولية مباشرة أمام الحكومة الفيدرالية عن معاملته معاملة «حسنة» ويترك لهن تقدير ذلك . (عوقبت حسناء بائعة فى محل بعقوبة الإنذار بالفصل لأن ابتسامتها لى لم تكن على مستوى الموقف . . الواقع أننى لم أكن أهتم كثيرا باستخدام حقوقى الواردة فى هذا البند) .

بقية المواد لا تهمك فى شىء فهى خاصة بالتعليمات المعطاة للمسئولين الرسميين .

أعود لموضوعى ، الشاه ساهر ينتظر منى الآن مكالمة تليفونية . . أطمئنه فيها وأؤكد له أن مهمتى قد بدأت .

وإذا لم أفعل فقد يشتد قلقه وهو مسكين فى ظروف لا يحسد عليها ، وخطرت فى بالى فكرة فتناولت سماعة التليفون الساخن (قدم مسئول الاتصالات فى البيت الأبيض عدة احتجاجات ضدى لأننى أحياناً كنت أستخدم التليفون الساخن فى تسخين القهوة والشاى) . . على الفور جاءنى صوت الشاه : أيوه يا بو علوة .

حاولت أن أضع فى صوتى أكبر قدر من التفاؤل والمرح .

صباح الخير . . كله تمام يا مولاى . . خير إن شاء الله . . سوف أعطيك تقريرى يومياً بالتليفون . . ولكن لدى الآن بعض الاقتراحات لتخفيف حدة المعارضة . . اختر بعض الأشخاص من أسرتك المعروفين بلصوصيتهم وحاكمهم واسجنهم . . ثم اختر رجلاً معروفاً بنزاهته وأجعله على رأس الوزارة . . وليكن الأخ بختيار .

ـ سوف أنفذ اقتراحك فى التو واللحظة فيما يختص ببختيار . . أما اختيار بعض الأفراد من أسرتى ومحاكمتهم بتهمة اللصوصية أو الإثراء الحرام فهى مهمة صعبة ، لأنه كما تعلم . . كل أفراد أسرتى لصوص . . أو أثروا ثراء فاحشاً حراماً . . كيف أختار بعضهم وأترك البعض

الآخر؟ . . وحتى لو فعلت ذلك ، فسوف يقول الناس . . وهل هؤلاء فقط هم اللصوص ؟ وقد ينتهى الأمر بأن أحاكم نفسى . .

عدت لأقول بإصرار : لا بد من هذه الخطوة يا مولاى . . ولا داعى للحيرة . . إذا كان كل أفراد أسرتك لصوصاً . . عفواً . . أقصد إذا فرضنا جدلاً أن كل أفراد أسرتك من اللصوص . . فلا بد أن بعضهم يعتبرون نجوماً فى عالم اللصوصية . . يعنى أسماء لامعة . . اختر كم اسماً منها وقدمه للمحاكمة . . بعد كده ربنا يفرجها ...

ـ حاضر . . تحت أمرك يابو علوة . .

يا نهار أسود ... الشاه ... إمبراطور فارس ... حفيد قورش العظيم ، يقول لى أنا الصعلوك . الضعيف ، الفقير إلى الله . . تحت أمرك ؟ لعن الله الأيام التى سمحت بذلك . .

عند ذلك رددت عليه بسرعة : العفو يا مولاى . . العفو ... أنا اللى تحت أمرك ... وأنا سعيد جداً وشاكر أنك شرفتنى بمهمة إنقاذ جلالتك .

أنهيت مكالمتى بسرعة خشية أن يزداد تأثر الشاه فينهار ويبكى أو تصدر عنه بعض الألفاظ الضعيفة التى لا تليق بالأباطرة ، خاصة وأنا أعلم أن المكالمات التليفونية مع البيت الأبيض يتم تسجيلها على شرائط . وكلنا بالطبع يذكر مأساة الأخ نيكسون . لقد تبحبح فى مكالماته التليفونية بالرغم من أنه يعلم أنها تسجل ، وعندما أرغم على تسليم

الشرائط حدثت الواقعة واتخذت دليلاً ضده ، لم يسمع كلامى هو الآخر. فحدث له ما حدث ولكن هذه قصة أخرى .

نفذ الشاه ما اتفقنا عليه ، جاء ببختيار من الجبهة المعارضة وعينه رئيساً للوزراء . ثم قدم بعض أفراد أسرته للمحاكمة . غير أن صديقى هنرى كيسنجر الداهية قال لى على العشاء عندما قابلته فى اليوم التالى : أبو علوة . . لقد قدمت للشاه نصيحتين من أسوأ النصائح فى التاريخ ، وتدلان على جهل سياسى شديد .

ـ مـــاذا ؟

فأجاب هنرى وكأنه يخاطب تلميذاً صغيراً فى هارفارد : لا تقدم التنازلات فى أى وقت . . لو قدم الشاه هذا التنازل منذ ستة شهور لكان من الممكن أن يظل على عرشه إلى أن يموت . . أما الآن فهذا لا يرضى معارضيه . . أنه يفتح شهيتهم ، يشعرهم بقوتهم . . يشعل حماسهم . . يقوى إصرارهم على إزالته . . لا أمل يا عزيزى . . ما يجب أن نشغل بالنا به الآن ، هو السؤال التالى . . أين يقيم الشاه بعد عزله ؟

ـ مـــاذا . . ؟

قلتها صارخاً بطريقة جعلت الحاضرين فى المطعم الأرستقراطى الأنيق ينظرون ناحيتنا فى دهشة : . . أين يقيم الشاه بعد عزله ؟ . . لن يحدث هذا يا سيد هنرى . . لن يتمكن أحد من عزله ، وإذا كانت أمريكا قد تخلت عنه ، فأنا لا زلت بجواره . . وأعتقد أننى قادر على

حمايته . . إننى قادر على حماية أصدقائى يا سيد كيسنجر . . حتى لو اضطرنى الأمر للوقوف فى وجه الخارجية الأمريكية والمخابرات الأمريكية والسوفيتية بمفردى . . وأنت تعرف مدى قوتى . .

نظر هنرى كيسنجر فى عينى بثبات ثم همس وهو يحتسى الشوربة بتلذذ : إهدأ يابو علوة . . تمالك أعصابك . . اهدأ الله يخرب بيتك . . يوجد الآن بين الحاضرين فى المطعم أربعة من عملاء المخابرات السوفيتية . . واثنان من مخابرات حلف وارسو ... وثلاثة من مخابرات حلف الأطلنطى . . وهم سينصرفون الآن واحداً بعد الآخر لتبليغ المعلومات التى أهديتها لهم الآن . . إهدأ ...

سيطرت على نفسى بصعوبة ، وواصلت تناول العشاء صامتاً وأنا أفكر فى أن هذا الرجل « مترنخ » العصر الحديث ، له ضلع كبير فيما يحدث فى إيران .

ولكن لماذا أستبق الأحداث . . . ؟ لنعد لبداية المسألة .

اتفق معى كارتر على أن أحضر اجتماعاً يضم مجموعة من المسئولين فى الخارجية والمخابرات ومندوباً من مجلس الأمة القومى لشرح وجهة نظرهم عن الأسباب التى دعتهم لاتخاذ ذلك القرار . . الواقع أنه ليست هناك أية نتائج عملية لهذا اللقاء ... ولكنها فرصة أخيرة أمامى . . وأمل ضعيف شاحب فى أن أجعلهم يؤجلون التنفيذ . .

إن تأجيل عزل الشاه يعطينى فرصة لإعادة ترتيب أوراقى والبحث عن

طرق جديدة للقضاء على المعارضة . . « وتسكين » الخمينى فى باريس للأبد .

فى المكتب البيضاوى كان اللقاء (لا داعى لذكر الأسماء) وعرض مسئول الخارجية الأمر ببساطة : لا أمل فى تغيير الشاه ... إنه عبقرى فى إثارة المتاعب ضده ، لقد حاولنا عبثا ولسنوات طويلة أن نفهمه أنه يسير فى الطريق الخاطىء ، وأنه لا بدمن الديموقراطية الحقيقية ، فلم يستمع للنصح . ان قرارنا بالتخلى عنه لا يعنى أننا أشرار . . ولكنه وبصراحة شديدة ، يعنى أنه ليس لدينا ما نستطيع أن نفعله من أجله ... كل ما نعدك به ، هو أننا سنحميه من الذبح . . (بعدها بشهر واحد فهمت جيداً ماذا يعنى التعبير العربى الشهير ذُبِحَ ذَبْح الشاة)... سنحميه من الذبح هو وأسرته .

شعرت برجفة تسرى فى أعضائى ، ووجدتنى أقاطعه : من فضلك يا عزيزى لا تتحدث عن الذبح . . الجيش لم يتدخل بعد . . وعندما يتدخل سيحسم المسألة .

وهنا تدخل مسئول المخابرات وقال برقة شديدة وبلا انفعال من أى نوع : لن يتدخل الجيش . . الآن فى هذه اللحظة ... سافر أحد جنرالاتنا إلى طهران ... وغداً سوف يعقد مؤتمراً صحفياً يقول فيه « إن أمريكا تنصح الجيش بأن يظل على الحياد بين القصر والشعب » . . وبذلك تصل رسالتنا الضمنية إلى الشاه . .

صرخت فيه : وإلى الخمينى أيضاً ... إن رسالتك الضمنية . . تعنى أن يحزم حقائبه استعداداً للعودة إلى إيران ...

ـ نعـــم ...

ـ وماذا يحدث إذا قاوم الشاه ؟ ... إن حرسه الخاص ما زال قوياً ... وأجهزة أمنه ما زالت قوية . . هل فكرت فى أن الشاه فى أشد لحظات اليأس قد يهدم المعبد على كل من فيه وتحترق إيران . . ؟

أجاب مسئول المخابرات : لن يحدث . . لن يقاوم الشاه . . فى هذه اللحظة وصل أحد رجالنا لإقناعه بالقيام بأجازة بسيطة خارج إيران ، وسيرحب هو بهذا الاقتراح بوهم أنه سيعود مرة أخرى بعد أن تهدأ الأحوال ... لقد سبق له أن فعل ذلك أيام « مصدق » ... وخطتى هى الآتى ... بعد أن يغادر الشاه طهران ... يعود الخمينى من باريس ليحكم . . إنها عملية إحلال بسيطة كما ترى .

قلت بانفعال : هذا واضح يا عزيزى من الزفة الشاملة التى تقوم بها كل أجهزة الإعلام فى أوربا وأمريكا من أجل الخمينى . . ولكن يا عزيزى ... لماذا لا تدعمون بختيار ؟ ... إن بختيار قادر على جمع كل العناصر الديموقراطية . . كل المثقفين . . وإنه قادر على قيادة « العقل » فى إيران إلى شاطىء السلامة . . ؟

قال مسئول المخابرات ببرود : العناصر الديموقراطية والمثقفين والعقل . . كل هذه العناصر لا تهمنا فى شىء . . المهم هو الشارع

الإيرانى ... والشارع الإيرانى فى جيب الخمينى ... فى تقديرنا أن وصول آيات الله إلى الحكم يبعد شبح الشيوعية عن إيران لمائة عام على الأقل . .

آه ... هذه هى القضية إذن . هذا هو كل ما يهمه فى الأمر . . إنه أشبه بحلاق الصحة فى القرية ا لمصرية . ذهب إليه أحد الناس يسأله ، كيف يعالج والده من ارتفاع درجة الحرارة فقال له :

ـ دعه يشرب ماء لفت . . إن « ماء اللفت » علاج ناجح للحمى . .

ومر أسبوع فقابله وسأله : كيف حال والدك ؟ ... هل انخفضت درجة حرارته بعد أن شرب « ماء اللفت » ؟

ـ لقد مات .

ـ وبعد أن مات . . هل انخفضت درجة حرارته ؟

ـ نعـــم .

ـ هذا هو ما يهمنى . . لقد نجح « ماء اللفت » فى خفض درجة حرارة المرحوم . . وهذا هو المطلوب ...

● ● ●

لقد انتهى كل شىء وقضى الأمر . وهؤلاء الأغبياء يفكرون بعقلية الثلاثينيات ، عند ذلك بدأت أتحدث وكل جزء فى جسمى يرتعش :

ـ حسناً يا سادة ... أهنئكم على عمليتكم النظيفة ، ولكن اسمحوا

لى أن أناقش معكم مسائل أخرى ليس لها صلة بإيران ... ولا بالشاه . إننى سوف أحدثكم عن الأساس النظرى الذى تبنون عليه قراراتكم وإجراءاتكم . . سوف أحدثكم عن مجموعة القواعد التى تحكم سلوككم . لم يحدث فى التاريخ أن عمل فى السياسة جهلاء مثلكم . طوال ثلاثين عاماً كنتم تدعمون الشاه فى مواجهة أعدائه ... وأعداؤه هم كل عناصر الشعب الإيرانى المستنيرة والواعية . . كل أجهزتكم بالاشتراك مع أجهزته أخذت تضرب كل شخص بتهمة أنه « يفكر » . . ولكى تتم هذه العملية بنجاح كان لا بد من إطعام وتسمين كل القوى السلفية وكل قوى الخرافة والعودة إلى الوراء .

وكبرت هذه القوى ... نمت وترعرعت وتحولت لوحش كاسر . . فرنكشتين .

أنتم الذين صنعتموه . وأنصحكم بأن تستعدوا لليوم الذى يستدير فيه إليكم ليعض فيكم .

هذا اليوم لن يتأخر كثيراً حسناً . . لقد أبعدتم الشيوعية عن إيران لمائة عام . . إننى أتحدث إليكم يا من تصنعون القرار . يا من تلقيتم تعاليمكم السياسية فى الثلاثينيات والأربعينيات . . .ولا زالت نظرياتها المتخلفة تعشش فى عُقُولكم ، إن القضية الأساسية فى العالم الثالث كله الآن هى الديموقراطية من حيث أنها المدخل الوحيد للتنمية ... إننى أستحث ضمائركم . . كل ما يهمكم هو الديموقراطية داخل بلادكم . .

الأخلاق داخل بلادكم ... العدالة داخل بلادكم ... وليذهب العالم الثالث للجحيم .

ولكنى أحذركم . .

العالم الثالث لن يذهب للجحيم وحده . . يجركم معه ... إننى أسألكم . . كم خبيراً للأمن أرسلتم لإيران وكم خبيراً فى الزراعة ؟ . . كم خبيراً فى السلاح أرسلتم إلى إيران وكم خبيراً فى التعليم ؟ ... كم خبيراً فى التعذيب أرسلتم لإيران وكم خبيراً فى الموسيقى ؟ ... هذه الكميات المرعبة من السلاح التى اقتطع ثمنها من الشعب الإيرانى الذى يتضور جوعاً . . من الذى باعها للشاه ... ؟ إننى أعرف أن حديثى هذا بغير فائدة ... ولكنى أقول لكم ... لماذا لا تسهمون فى جعل الحياة فى العالم أكثر شرفاً وأكثر أخلاقاً وأكثر عدالة وأكثر جمالاً . . ؟

بمعنى واضح .

لماذا تعتبروننا من خارج القبيلة الإنسانية ؟ . . وأترك لكم سؤالى الأخير لتفكروا فيه على مهل .

من منا الذى يفكر بعقلية حجرية ؟ . . أنتم أم نحن ؟ . . من منا المتخلف . . ؟ . . أنتم أم نحن ؟ أنتم الذى شجع الشاه على المضى فى هذا الطريق ... ولازلتم تشجعون حكاماً كثيرين على أن يسيروا على نفس الدرب . . لأن حياة الإنسان لا تهمكم إلا فى بلادكم ... هذا إذا كانت تهمكم على الإطلاق ... أنتم يا ممثلى أقوى دولة على هذا الكوكب

. . أنتم يا ممثلى روما . . روما القديمة بكل قوتها وجبروتها ومهازلها أيضاً
. . هل تبحثون عن نفس المصير . . ؟

اختنق صوتى . شعرت بأننى على وشك الانفجار فى البكاء ، فتركت الاجتماع ونهضت خارجاً من المكتب البيضاوى وأنا أقول :

ـ عن إذنك يا جيمى . . .

ـ عند ذلك نهض كارتر خلفى وهو يقول : خد يابو علوة ... ماتزعلش يا راجل .

جرى الرئيس الأمريكى خلفى فى طرقات البيت الأبيض . لحق بى . احتضننى . كانت عيناه ممتلئتين بالدموع . نظر كل منا للآخر . كلانا يشعر بالتعاسة . كلانا يدرك أن البيروقراطية والغباء وقصر النظر والمصالح الضيقة تحكم العالم كله وتدفعه للجحيم ببطء وإصرار ، وكلانا عاجز عن فعل أى شىء لتفادى الكارثة ...

وانفجرنا فى بكاء حاد ...





العفريت الغامض

المكان : ميناء الإسكندرية كابين اللاسلكى .

الوقت : بعد الفجر بدقائق .

انتهى ضابط اللاسلكى من احتساء الشاى الذى أفرغه من ترمس صغير يحتفظ به إلى جواره ، ثم أشعل سيجاره وجذب منه نفساً طويلاً وهو يحدق فى أمواج البحر التى بدأت تلمع فى ضوء الفجر من خلال زجاج النافذة . لقد بدأ برد الشتاء يزحف على الإسكندرية ولم يصلحوا بعد جهاز التكييف الذى تعطل فى الشتاء الماضى .

كانت الميناء نائمة تماماً فيما عدا بعض الخفراء وبعض الأفراد من ورديات رجال الجوازات .

انبعث أزيز خفيف من جهاز اللاسلكى . إنها رسالة قادمة .

أنادى على ميناء الإسكندرية . . أنادى على ميناء الإسكندرية . . هل تسمعنى ؟ حول .

ـ أنا ميناء الإسكندرية . أسمعك بوضوح ... حول .

اسمحوا لى بدخول الميناء . . حول .

استولت الدهشة على ضابط اللاسلكى . لم يكن فى الأوراق الموضوعة أمامه ولا على السبورة المعلقة بجواره ما يشير إلى أن هناك سفناً ستدخل الميناء فى ذلك الوقت .

سأله الضابط : ليست لدى أية بيانات عنك . . أعطنى من فضلك كل البيانات . . عن السفينة وعن جنسيتها واسمها . . وشحنتها . . وميناء الإبحار . . حول .

وكان الرد هو الآتى بالحرف الواحد طبقاً لجهاز تسجيل استقبال الإشارات اللاسلكية : أبحرت من مكان ما . . وأنا الآن على بعد ثلاثين ميلاً شمال الإسكندرية . سفينتى ليس لها جنسية . وليس لها اسم . . شحنتى ألف صندوق كبير . أفضل ألا أعلن عن جنسيتى أو شحنتى أو اسمى إلا أمام مسئول ذى مستوى رفيع . . من فضلك أرسل لى لنشاً ليقودنى لأحد أرصفة الميناء ... حول .

مرة أخرى قال الضابط بنفاد صبر ...

ـ يا عزيزى . لا بد من إعطائى هذه البيانات . هذا ما تقضى به التعليمات ... ثق من سرية كل ما تقوله . حول .

وجاءت الإجابة : حسناً ما دمت تصر . الألف صندوق مليئة

بالدولارات الأمريكية . أما عن اسمى وجنسيتى فأنا . . عفريت . . حول .

صاح الضابط : يا مراد يا أخى بطل هزار سخيف فى اللاسلكى .

ظن الضابط أن المتحدث هو الكابتن البحرى مراد صديقه . وهو مشهور بين أصدقائه بمثل هذه المقالب .

مرة أخرى يأتى صوت الشخص الغريب : يا ميناء الإسكندرية . . رد على من فضلك . . هل تسمعنى ؟ حول .

فى نفس اللحظة دق جرس التليفون فى كابينة اللاسلكى ، فرفع الضابط السماعة ، كانت قيادة المخابرات البحرية على الخط . جاءت المكالمة قصيرة وحاسمة : اسمع يا بنى . لقد رصدنا على شاشة الرادار بالفعل سفينة غريبة . وهى لا تبحر فى الممرات الملاحية المعروفة . زوارقنا فى طريقها لمحاصرتها . لا تقطع اتصالك بها تحدث مع قبطانها بلطف وحاول أن تكسب أكبر قدر من الوقت حتى نتمكن من القيام بإجراءاتنا . أطلب منه أن يتوقف فى مكانه . نفذ تعليماتنا بدقة لخطورة المسألة .

عاد الضابط لجهاز اللاسلكى وهو يدارى اضطرابه وقال بصوت مرتعش : ميناء الإسكندرية ينادى على العفريت . . هل تسمعنى ؟

ـ أسمعك بوضوح وأشكرك على معاودة الاتصال . . حول .

ـ أنا أشكرك بشدة وآسف لطلباتى التى لا مبرر لها . إننى لم أسمعك بوضوح فى المرة الأولى هل تتكرم وتقول لى مرة أخرى من أنت . . حول .

ـ أنا عفريت . . حول .

ـ حسناً يا عزيزى العفريت . . إن صوتك يشبه تماماً صوت أحد أصدقائى . وهذا هو ما جعلنى لا أصدقك فى البداية . سوف ندخلك الميناء . فقط أعطنا الفرصة لكى نخصص لك رصيفاً ممتازاً . . أما الآن فمن فضلك نفذ تعليماتى . . حول .

ـ أنا تحت أمرك وجاهز لتنفيذ تعليماتكم . . حول .

ـ ميناء الإسكندرية ينادى على العفريت . قف مكانك . أوقف كل المحركات . إن التعليمات تقضى بأن السفن التى تحمل أشياء قيّمة عليها أن تقف على بعد ثلاثين ميلاً على الأقل . . حول .

ـ أوقفت المحركات ، هل هناك تعليمات أخرى . . حول .

ـ شكراً لقد فهمت من سيادتك أنك تحمل شحنة من الدولارات الأمريكية . . عفواً . . هل هى دولارات أمريكية حقيقية ؟ . . حول .

ـ نعم يا بنى . دولارات حقيقية أصدرتها وزارة الخزانة الأمريكية وموضوعة فى ألف صندوق كبير . وعددها بالتحديد مائة مليار دولار . . يعنى واحد وأمامه عدد من الأصفار من الصعب عده . . وهى هدية منى لمصر .

قاوم الضابط الرغبة فى الصراخ التى استولت عليه عند سماع الرقم . إنه يكفى لتسديد كل ديون مصر ولسداد العجز ولعمل خطة تنمية أسطورية تضمن مستقبلاً لمصر مهما بلغت عبقرية المسئولين فى الإسراف والتبديد بل وفى الانحراف أيضاً .

قال الضابط : يا عزيزى العفريت . أنا أشكرك بالنيابة عن مصر . سوف أتصل بك بعد خمس دقائق . . انتهى .

الدولارات:

من تقرير العقيد البحرى (م.ع) قائد المجموعة التى أحضرت (العفريت) .

أفنـــدم . .

اتخذت كل الزوارق البحرية مواقعها الهجومية حول السفينة الغريبة بعد أن أعطيت لها الأوامر بفتح النيران بكثافة عند أول بادرة خطر . اتجهت بزوارقى ومعى مجموعة الاقتحام إلى السفينة الغريبة . ومن خلال نظارة الميدان كان من السهل أن أكتشف أنها سفينة شحن عادية محملة بصناديق كبيرة وليست مسلحة بأسلحة واضحة . كان سطحها خالياً تماماً . رجل واحد فى الأربعينات كان يمشى على السطح مرتديا زى كابتن بحرى شاهق البياض . صعد رجالى فى ثوان إلى سطح المركب مستخدمين سلالم الحبال وانتشروا على الفور يفتشون كل ركن فيها بينما بقيت أنا مع القبطان الغريب الذى كان يتحدث العامية المصرية بطلاقة مذهلة ودعانى للشاى . فاعتذرت بحزم ولكن فى أدب . كان ممشوق

القوام . لوحت الشمس بشرته وله ذقن مدببة سوداء تتخللها بضع شعرات بيضاء . كان يبتسم بود وكانت عيناه تشعان ذكاء وطيبة .

قلت له : معذرة يا سيدى القبطان . أنا مكلف بأن (أصحبك) إلى الميناء أنت وبحارة السفينة . سوف نترك على سطحها مجموعة للحراسة . أعدك بألا يحدث لك أو لأحد من بحارتك أى مكروه .

أجابنى برقة : ليس معى بحارة . إننى أقود هذه السفينة بمفردى .. ولا داعى لحراسة هذه السفينة لأنها تحرس نفسها بنفسها أتوماتيكياً .. إننى أطلب حراسة هذه الصناديق فقط إلى أن يتم التصرف فى محتوياتها . . وأنا واثق يا سيدى العقيد أنه لن يحدث لى مكروه .

عاد رجالى بعد دقائق ليعطونى تماماً بأنهم لم يجدوا مخلوقاً فى السفينة .. كان الرجل صادقاً ، وزعت الخدمات على سطح السفينة ، وطلبت منهم شدة اليقظة والحذر ، ونزل القبطان الغامض معنا إلى الزورق ، وتم تسليمه لمسئولى الأمن فى الميناء ، وعدنا إلى قاعدتنا فى ساعة تاريخه .

فى محضر التحقيق الأوّلى أمام سلطات الميناء قال القبطان الغامض : لا تضيعوا وقتى ووقتكم ووقت مصر . . المسألة باختصار شديد هى أننى أحب مصر منذ آلاف السنين . اشتركت فى بناء الأهرامات وساهمت فى حفر الترع والرياحات وساعدت فى حفر قناة السويس . إننى أكره ويؤلمنى أشد الألم أن أرى مصر مدينة عاجزة . تتعثر فى سيرها نحو المستقبل . أنتم تعانون من مشكلة اقتصادية طاحنة تهد الأعصاب

وتكسر العظام وتمنعكم من الانطلاق ، لذلك أحضرت لكم مائة مليار دولار . سددوا ديونكم منها ثم انطلقوا . . انها تكفى للإنفاق على أقصى ما يحلم به العقل البشرى من تنمية صناعية وزراعية وعلمية وفنية و ... و ... إلخ .

تعرض الرجل لاستجواب عنيف فى جلسات طويلة من كل أنواع الأجهزة . . إنهالت عليه الأسئلة من كل نوع . . ما معنى أنك تحب مصر ؟ . . ما هو نوع هذا الحب ؟ . . هل هو حب الرجل لأولاده ؟ . . هل هو حب الرجل لأصدقائه ؟ . . هل هو حب الرجل للأنثى؟... ومتى بدأت تشعر بهذا الحب ؟ . . منذ كم ألف عام ؟ . . ولماذا مصر بالذات ؟ . . هل تحب زيمبابوى بنفس القدر ؟ . . هل سبق لك أن تدخلت لإنقاذ بلاد أخرى من مشاكلها الاقتصادية ؟ . . هل أنت عفريت فعلاً . . لماذا لا تحمل بطاقة هوية أو جواز سفر ؟

رفض الرجل الإجابة على كل هذه الأسئلة وأصر على أقواله ، ومفادها أنه عفريت يحب مصر ، وعندما طلبوا منه أن يقوم بعمل خارق أو معجزة صغيرة ، ابتسم فى سخرية وقال : هل هناك فى العصر الحديث معجزة تفوق الدولار ... ها هى أمامكم خذوها .

تم إنزال الألف صندوق على أرصفة الميناء . وفتح أول صندوق بمعرفة لجنة ذات مستوى رفيع . كان بالفعل ممتلئاً بالدولارات . من كل الفئات وليست جديدة . كما لو أن شخصاً جمعها من عدة أماكن . استدعى كل رجال البنوك فجاءوا على عجل ، وقاموا بكل أنواع

الاختبارات مستخدمين كل ما هو معروف من أجهزة ، ثم قالوا جميعا فى النهاية جملة واحدة : هذه الدولارات حقيقية .

السفير والوزير :

المكـــان : القـــاهـرة .

الوقـت : ٦,٣٠ صباحاً .

شاهدت مجموعة الحراسة المكلفة بحراسة منزل وزير الخارجية سيارة ملاكى فخمة ترفع العلم الأمريكى تأتى مسرعة ثم تقف أمام المنزل وينزل منها شخص أمريكى . أوقفته مجموعة الحراسة . . ولكن الضابط الشاب رئيس المجموعة ذهل عندما رآه . كان السفير الأمريكى شخصياً . . أوصله الضابط لباب الشقة ثم تركه ، وعاد إلى نقطة حراسته بسرعة بعد أن شاهد السفير يدق الجرس بإلحاح . فتحت له مديرة المنزل الباب فدخل على الفور صائحاً : أنا السفير الأمريكى . . من فضلك أيقظى لى السيد وزير الخارجية الآن .

احتجت السيدة لأن الوزير نام متأخراً ، ولكن الوزير أنقذ الموقف عندما خرج من غرفة نومه مرتدياً الروب ويبدو عليه الانزعاج الشديد : خير يا سعادة السفير . . اتفضل اقعد . . اعملى لنا قهوة يا سعدية . .

جلس السفير وأخرج ورقة من جيبه وقال وهو يضغط على كل حرف من كلامه : سيدى الوزير تلقيت الآن برقية عاجلة من واشنطن تطلب فيها منى أن أبلغكم الرسالة التالية :

« توجد الآن فى الإسكندرية سفينة شحن عليها ألف صندوق كبير مصنوعة من خشب الزان والماهوجنى وبها مائة مليار دولار أمريكى . والسفينة يقودها شخص واحد يزعم أنه عفريت . وأن الحكومة الأمريكية لديها من المعلومات ما يشير إلى أن الاتحاد السوفيتى اكتشف من الوسائل العلمية ما مكنه من سحب أرصدتنا من الدولارات بطريقة لم نكتشفها بعد . إننا نطلب منكم التحفظ على هذه الصناديق وعدم إخراج دولار واحد منها لأن الهدف من هذه العملية هو تدمير الاقتصاد العالمى . إن الحكومة الأمريكية تحملكم مسئولية أى تصرف فى هذه الدولارات وتطالب بالإفراج عنها وإعادتها فوراً » . .

سكت وزير الخارجية برهة ونظر لوجه السفير ملياً وسأله : سيدى السفير أين قضيت ليلتك بالأمس ؟

أجاب السفير بعصبية : إننى جاد تماماً يا سيدى الوزير . وقضيت ليلتى أشاهد فيلماً عادياً . ونمت مبكراً . . مرة أخرى أكرر أن هذه المعلومات صحيحة .

استأذن الوزير لدقائق ودخل غرفة مكتبه ليجرى عدة اتصالات تليفونية سريعة ، ثم عاد يقول للسفير بلهجة رسمية : سيدى السفير . إنها ليست المرة الأولى فى التاريخ الحديث التى تقع فيها المخابرات الأمريكية فى خطأ فادح من هذا النوع ليس لنا صلة بصراعكم مع الاتحاد السوفيتى . وليس لنا شأن بذلك الاختراع المزعوم الذى يشفط دولاراتكم

من البنوك . . وإذا كان ذلك قد تم فعلاً فهل من المعقول أن الروس يرسلون هذه الدولارات لنا ؟ . . إننى مكلف من حكومتى يا سيدى بأن أعبّر لك عن إحساسنا بالصدمة وبالدهشة لتصديقكم قصة العفريت، إنها شائعة أطلقها مسطول فى ميناء الإسكندرية وجارى البحث عنه . أمر آخر يا سيدى السفير طلبت منى حكومتى أن أبلغك فى وضوح ما يلى : إن كل دولار أمريكى موجود على أرض مصر أو فى المياه الإقليمية المصرية أو فى الأجواء المصرية هو جزء من ثروة مصر الاقتصادية حصلت عليه بشكل شرعى وقانونى .

ارتبك السفير الأمريكى للحظات ثم تمالك نفسه وقال ببرود : إن حكومتك يا سيدى الوزير تضع بلدينا فى مأزق لن تساعدنا الدبلوماسية التقليدية فى الخروج منه . الوحيد القادر على ذلك هو الأسطول السادس والفرقة الأمريكية المحمولة جواً .

عند ذلك صاح الوزير وهو يتجه ناحية الباب ليفتحه بنفسه : سيدى السفير لن أبلغ حكومتى بجملتك الأخيرة حرصاً على العلاقة الودية بين بلدينا وأفضل أن أعتقد أننى لم أسمعها ، يوماً ما سوف تجد من واجبك أن تشكرنى لأننى لم أطالبك بالاعتذار عن قولها .

انصرف السفير وهو يغلى من الغضب ، بينما وزير الخارجية يتابعه فى تجهم . وبعد أن خرج السفير غمغم الوزير وقد تهللت أساريره : ياما أنت كريم يا رب مائة مليار ؟!

فى نفس اليوم ظهرت الطبعة الثانية من جرائد الصباح وعلى صفحاتها الأولى تصريح لمسئول كبير يقول فيه إنه لا صحة للإشاعة التى سرت فى الإسكندرية عن السفينة الغامضة المحملة بالدولارات . وأذيع التصريح فى كل نشرات الإذاعة والتليفزيون ، وبذلك تأكد للناس ولمراسلى الصحف والوكالات الأجنبية أن القصة حقيقية تماماً . .

فى نفس اللحظة التى كان يخرج فيها السفير الأمريكى من منزل وزير الخارجية وهو يغلى من الغضب . كانت سيارة بيجو سبعة راكب تقف بجوار مقهى مواجه لميناء الإسكندرية وينزل منها رجلان . الرجل الأول فى حوالى الخمسين من عمره ، يرتدى جلباباً أبيض أنيقاً وفوقه بالطو فخم وعليه شال حريرى أبيض لفه حول رقبته بشكل أنيق ، كانت هيئته توحى بأنه أحد كبار المعلِّمين الذين يعملون فى الاستيراد أو فى تجارة السيارات . أما الآخر فكان يصغره فى السن ويرتدى ثياب ميكانيكى زرقاء ويمسك بيده « كاربراتير » سيارة أخذ يداعبه بمفك ليصلح شيئاً فيه .

طلب الرجلان شاياً بالحليب وشيشتين وجلسا صامتين ينظران لحركة الداخلين والخارجين فى الميناء .

كان الأول هو السفير السوفيتى وكان الثانى هو مسئول المخابرات السوفيتية (كى جى بى) فى الشرق الأوسط . بعد لحظات من وصولهما ظهرت عربة يد خشبية صغيرة عليها قدرة فول مدمس ووقفت أمام

المقهى ثم ظهر رجل ومعه « فاترينة » سجائر ، ورجل آخر يبيع الحلويات ، ورجل رابع يبيع طوابع الدمغة والعرضحالات وظروف الخطابات ، وماسح أحذية وشابان يجران ثلاجة متحركة يبيعان الآيس كريم . صاح فيهم صاحب المقهى مزمجراً ولكنه هدأ وتركهم فى حالهم أمام المقهى عندما أخرج كل منهم عشرة جنيهات وأعطاها له .

كان صاحب عربة الفول المدمس هو مسئول المخابرات الأمريكية (سى . آى . إيه) فى الشرق الأوسط . أما الآخرون فكانوا يتبعون مخابرات حلف الأطلنطى بالإضافة لأجهزة أخرى عالمية . كانوا مزودين بأعقد ما وصل إليه العقل البشرى من أجهزة وأدوات للتصوير والتصنت والتشويش والإنذار . إن الشال الذى كان يرتديه السفير السوفيتى كان يحمل فى نسيجه وخيوطه الحريرية الدقيقة محطة تجسس كاملة . أما «الكاربراتير » الذى كان يحمله زميله فلم يكن إلا جهاز تحكم فى عشرة أقمار صناعية يتم توجيهها إلى المكان المراد تصويره بواسطة المفك البرىء الذى كان يمسك به .

أخذ الجرسون النشيط يتحرك ملبياً طلباتهم بسرعة ورشاقة . ولهذا الجرسون أيضاً قصة لقد استلم العمل فى هذا المقهى منذ دقائق فقط . فقد غاب جرسون المقهى فى ذلك اليوم بدون مقدمات .

اتضح فيما بعد أنه قبض عليه وهو خارج من بيته للاشتباه فى أنه مطلوب فى قضية نفقة ، واستولت على المعلم حالة من القلق والنرفزة

والعكننة لغياب الجرسون ، ولكن السماء أو جهة أخرى أرسلت له هذا الشاب النشيط فى الوقت المناسب ليطلب عملاً .

كان هذا الشاب هو أحد رجال أجهزة الأمن المصرية العاملين فى مجال مكافحة النشاط المعادى .

بعد لحظات جاءت مجموعة من عمال التليفونات ومعهم أحد المهندسين الشبان لتركيب تليفون فى المقهى . كان المعلم فى برج سعده وحظه فى هذا الصباح . لم يكن يتصور أن الطلب الذى قدمه لمصلحة التليفونات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . واعتقد أنه مات واندثر من عهد بعيد سيبعث حياً فى هذا الصباح . وأخذ ينظر فى فرح وذهول إلى آلة التليفون التى يحملها أحد العمال .

لقد جاء هذا الجرسون الجديد وجاء الخير فى ركابه . لا بد من فصل الجرسون القديم إذا ظهر مرة أخرى . لا بد أنه وحده السبب فيما كان يعانيه من نحس فى السنوات الأخيرة .

وفجأة وبدون أية مقدمات قامت خناقة مروعة فى المقهى وفى الشارع كله . وفى سرعة لم نعهدها فى رجال الشرطة من قبل ، جاءت شرطة المرافق وشرطة النجدة وظهر عشرات المخبرين ومئات من رجال الأمن المركزى ، وقبضت على الموجودين وشحنتهم إلى أقرب قسم شرطة .

فى هذه الخناقة فقد المعلم الفخم الشال الحريرى الأبيض . وفقد زميله «الكاربراتير» والمفك ، وهشمت كل العربات والفاترينات وثلاجة

الآيس كريم وصندوق ماسح الأحذية وكراسى المقهى وكل ما بها من أدوات .

أفرج عن الجميع فى ساعة متأخرة من الليل بجنيه واحد كفالة بعد استكمال التحقيق وبعد الحصول منهم على تعهد بألا يعودوا للشجار والعراك مرة أخرى .

لقد تم إبعادهم عن منطقة الميناء لعدة ساعات ثمينة كانت كافية لنقل صناديق الدولارات خارج الميناء ووضعها فى مكان « أمين » . . وكان هذا المكان الأمين هو ثلاجات الإسكندرية ، وهذا ما يفسر الأخبار التى كنا نقرأها فى الصحف عن الهجمات التى كانت تحدث على الثلاجات وتكتشف فساد ما بها من لحوم ودواجن وسمك ولحوم .

قامت لجنة مدعومة بقوات كافية لتفتيش كل الثلاجات ، واكتشفت أن كل ما بها فاسد فأخليت على الفور ووضعت فيها الألف صندوق لحين تدبير أماكن لها فى خزائن البنوك المصرية . أما اللحوم والدواجن والأسماك التى قيل بأنها فاسدة فقد بيعت فى الأسواق بشكل طبيعى دون أن يتعرض لها مفتشو التموين .

تم ترقيم الصناديق بواسطة لجنة مكونة من خمسة أشخاص يحتلون مناصب رفيعة ، واكتشفت اللجنة أن الصناديق عددها ٩٩٥ تسعمائة وخمسة وتسعون صندوقاً فقط .

لا بد أن العفريت قد أخطأ فى العد . أو لعل هناك خمسة صناديق لم

يتم إنزالها من على سطح المركب . وعندما أبلغ العفريت بهذه المسألة استاء واكتأب وهمس بصوت رقيق وهو يحاول إخفاء غضبه : لم أكن أريد لمهمتى أن تبدأ بهذا الحادث الصغير . كما أننى لا أريد التدخل فى شئونكم الداخلية ، أيضاً لا أريد أن أكون سبباً فى إثارة المتاعب لأى شخص هى ألف صندوق فعلاً . . لقد أحصيتها بنفسى . . وطبقاً لسجلاتى هى ألـف صندوق بها مائة مليار دولار .

فكر العفريت قليلاً ثم طلب فنجاناً من القهوة احتساه بسرعة ، ثم أخذ يحدق فى رواسب البن ، وقال بعد لحظات : الصندوق الأول تجدونه فى جراج فلان ، والصندوق الثانى فى المزرعة الفلانية ، والثالث فى الفيللا الفلانية ، والرابع فى شاليه فلان ، والخامس فوق سيارة نقل صغيرة فى طريقها إلى دمنهور الآن ورقمها هو كذا .

تم استعادة الصناديق الخمسة فوراً (فيما بعد حول أصحابها إلى المدعى الاشتراكى ولكن بتهم أخرى . شقق . . إتاوات . رشاوى . عمولات . إفساد سياسى . . إلخ . . فقد كان من المستحيل محاسبتهم على سرقة دولارات مصدرها عفريت) وبعد عدة أيام وفى تكتم شديد تم نقل المائة مليار إلى وزارة الخزانة المصرية وإلى خزائن البنوك بعد استخدام أقصى ما يمكن من السرية ووسائل الإخفاء والتمويه .

تم إغلاف طريق مصر اسكندرية الصحراوى بحجة أن هناك مناورات عسكريـة ليلية ، وتـم إغـلاق الطريق الزراعـى بسبب سـباق

السيارات العالمى ، وها نحن نمتلك الآن مائة مليار دورلا أمريكى لا ينازعنا فيها أحد . .

ها أنت يا مصر تمتلكين مائة مليار دولار فماذا ستفعلين بها . بمعنى أدق ماذا سنفعل بها . . أو . . فليكن السؤال ماذا ستفعل هى بنا ... ؟

العفريت فى بيتى :

من وجهة النظر الرسمية ، تجاهلت كل الأجهزة الحكومية حكاية العفريت بشكل تام . حدث ذلك فى البداية فقط . ويبدو أيضا أن هناك اتفاقاً ودياً تم بين كل القوى الأعظم لتجاهل الموضوع وعدم إثارته بشكل تصادمى يترتب عليه ـ بالحتم ـ انهيار فظيع فى سوق النقد العالمى .

بدا الأمر فى البداية وكأن هناك اتفاقاً ما بين البشر فى كل أنحاء العالم على تجاهل قصة العفريت والدولارات التى أضيفت لميزانية مصر فى غمضة عين . ومع ذلك كانت تلمح بين الحين والآخر تلميحات وإشارات فى الصحافة العالمية ، تشير لحكايتنا هذه . بل وأكدت وكالة « تاس » بأنه قد حدثت إشارة صريحة لها فى آخر الكلمات التى نطق بها الزعيم بريجنيف وهو على فراش الموت . غير أننا لسنا على ثقة من أن ذلك قد حدث .

أما هنا فى مصر ، فلعل أول إشارة لحكايتنا كانت بقلم الكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين : « لم أكن أعلم أن الغباء صفة من

صفات العفاريت أيضاً . . إن أمريكا تعانى من مشاكل اقتصادية حادة، هل يمكن لهذه المشاكل أن تحل بشحنة من الدولارات الأمريكية أو حتى الجنيهات المصرية ؟ . . هل تستطيع يا عزيزى العفريت أن تأتينا بشحنة من الرجال أمثال الطهطاوى وعبد الله النديم ومحمد عبيد والسنباطى وزكريا أحمد وأحمس وأنور وجدى وطلعت حرب . . إلخ . . هل تستطيع أن تمدنا بصناديق ممتلئة بالقلوب الشابة والعقول المبدعة ؟ إنك لم تفعل ولن تفعل لأنك لا تستطيع مهما كانت درجة عفرتتك . نحن فقط الذين نستطيع ، الإنسان وحده هو العفريت ، لأنه وحده القادر على فعل ذلك .

أما أنت فمجرد صراف ، شيال يحمل عملة صعبة . وسوف تثبت لك الأيام أن مشكلة مصر ليست اقتصادية . بل هى فلسفية ، فنحن نعانى نقصاً فى المعرفة وليس الفلوس، نحن لا نشكو من الفقر ، نحن نشكو من القبح ، إذا استطعت يا عفريت أن تأتينا بسفينة محملة بالجَمال والحق والخير والمعرفة والبهجة فسوف أعترف بك عفريتاً ، أقصد . إنساناً » .

وقال الأستاذ عبد الفتاح البارودى : « متى يدرك مثقفونا العجزة إياهم أن عفاريتهم الحمر عاجزة ، هى الأخرى مثلهم ؟ متى يدركون أن الفرج عندما جاء من السماء طبقاً للقواعد اليونانية القديمة ، فإنه جاء على يد عفريت أزرق وليس أحمر وبالدولارات وليس بالروبلات هل اقتنعوا الآن ... متى يدركون أن ... الخ » .

أما الأستاذ الورداني فكتب يقول : « تعال يا عفريت إلى مصطبة الوطنيين نأكل بتاو المستقبل ونحتسى شوربة الحاضر الساخنة . هات دولاراتك . يا لهفى عليك وعلى دولاراتك . . وتعال لتخلصنا من العرب . . تعال نصنع من مصر جنة كما صنعت إسرائيل من صحراء النقب جنة يا روحى عليك وعلى دولاراتك ، رقم تليفونى عندك ، اتصل بى فوراً لأضىء لك طريقك بعيداً عن العفاريت الحمر » .

أما السيد محمود . ح . البهاقى وهو شخصية هامة عرفت بمهامها الغامضة فقد قال فى حديث منشور : نعم ، أعرف هذا العفريت ولقد أشرت إليه فى مذكراتى التى سأنشرها قريباً والتى ستحدث ضجة عالمية . إنه لم يكن يثق بأحد إلا بى ، ولو كان جمال عبد الناصر استمع إلى نصائحه لما خسرنا حرب ٦٧ . فقد زارنى قبل الحرب بأيام وأيقظنى من نومى وطلب منى أن نذهب لجمال عبد الناصر رحمه الله على الفور ، لأن لديه معلومات هامة ، فاصطحبته وذهبنا إليه . ولكنه رفض الاستماع للعفريت بل وأهانه ووجه إليه عبارات اعتبرها العفريت ماسة بكبريائه العفريتى ، ومع ذلك تحملها لأنه يحب مصر . وفى النهاية ثرت على عبد الناصر وأخرجت مسدساً وصوبته نحو رأسه ، وكتفته فى كرسى مكتبه بحبل كنت أحتفظ به فى جيبى للطوارىء ، وأرغمته على أن يستمع لنصائح العفريت بالقوة ، فاستمع إلى نصائحه ولم يعمل بها .

فخرج العفريت غاضباً . وغاب كل هذه السنوات ليظهر بعد ذلك فى ميناء الاسكندرية ومعه المائة مليار دولار التى سبق أن رفضها

عبد الناصر . ان هذا العفريت نزيه وأمين وكريم ومخلص بحب مصر جداً مثلى تماماً . ولكن يعيبه شىء واحد هو كثرة النسيان . فكثيراً ما كان يقترض منى مبالغ كبيرة ثم ينسى أن يردها ، وكنت أضطر لتذكيره بها .

وفى لقائى الأخير معه أقترض منى عشرة ملايين دولار ووقع على كمبيالة يبدو أنها ضاعت بين أوراقى . . إن واقعة اقتراضه منى وتوقيعه على الكمبيالة حدثت أمام المرحوم جمال سالم والمرحوم صلاح سالم والمرحوم يوسف صديق والمرحوم مصطفى النحاس والمرحوم عم حسين فراش مكتبى الذى كثيرا ما حذرنى من إقراضه لأنه ليس له محل إقامة ثابت يمكن مطالبته فيه أو الحجز عليه . . وعلى كل حال ، سوف أتقدم رسمياً بطلب لوزارة الخزانة لاسترداد المبلغ وفوائده . . إلخ . (لا نعرف ، هل قدم طلباً بالفعل أم لا . . ! . . ولكن من الواضح أن الخزانة تجاهلت حديثه تماماً) .

كما صرح مصدر كبير بوزارة الأوقاف بأنه لا يعرف العفريت معرفة شخصية ولكنه على يقين من أنه شاهده من قبل فى حرب أكتوبر مرتدياً جلباباً أبيض ينزل بين الجنود ، يحارب معهم وينقل لهم الذخيرة ويدلهم على مواقع الأعداء .

هاجم الدكتور عبد العظيم رمضان هذا التصريح بعنف وأثبت أن الجيش المصرى وحده هو الذى حارب معركة أكتوبر طبقاً لكل الشواهد

والقرائن والأدلة . وتساءل ، هل يتفضل سيادته ويشرح لنا كيف احتفظ العفريت بجلبابه أبيض وسط تراب ودخان المعركة ؟

أما الأمر المدهش واللافت للنظر فكان موقف رجال الاقتصاد المصريين لقد امتنعوا تماماً عن الخوض فى المسألة على صفحات الجرائد واكتفوا بإثارتها فى أحاديثهم الخاصة . ما عدا اقتصادى كبير أرسل بياناً نشرته صحيفتان قال فيه :

« الحمد لله . . ظهر الحق . . وزهق الباطل . عندما قلت لكم إنه ليس هناك عجز فى الميزانية ، كنت أتكلم باعتبار ما سيكون وليس ما هو كائن . . إن الاقتصادى الناجح يستشعر ما سيحدث فى المستقبل . كنت متأكداً أن هذا العفريت سيأتى فى يوم قريب . وبناء عليه أعددت ميزانيتى . لقد عرفت ذلك بما يشبه الإلهام . ورحمة أبويا كنت عارف أنه جاييجى . سوء الحظ فقط هو الذى جعله يتأخر ولا يأتى فى عهدى ، وإلا كانت الصورة قد اختلفت تماماً . وللتدليل على صدق كلامى أرجو أن تعودوا للميزانية التى أعددتها . سوف تجدون خانة بعنوان «إيرادات متوقعة من فاعل خير » وخانة أخرى بعنوان « ربنا يسهلها » وخانة ثالثة بعنوان « فرجُه قريب » .

إن المبلغ المرصود فى خانة « فرجُه قريب » وحده يسد العجز وزيادة . . طب ورحمة أبويا . . إلخ .

وفى حديث شخصى مباشر مع بائع كشرى فى ميدان باب اللوق علق

على الوضع قائلاً « يا ترى مين حياخد كام ويحطهم فين ؟ ويا ترى مين حايحاسبه . . ربنا يستر » .

وقال لى بائع بطاطا عجوز يقف على ناصية شارعنا . . قال لى بحزن : « يا بنى . . اللى يستكتر غموسه يأكل عيشه حاف . . إذا الحكومة انفردت فى المبلغ وتصورت أنه مبلغ كبير فسوف تصرفه كاملاً فى شهور وسوف نفاجأ بأن ديوننا قد ازدادت عن ذى قبل .

من المهم أن أرسم خطوطاً سريعة لموقف المعارضة من حكاية العفريت والدولارات . . اجتمعت قيادات المعارضة وناقشت كل جوانب الموضوع ، وأصدرت بياناً تطلب فيه من الحكومة أن تعيد العفريت ودولاراته وسفينته إلى عرض البحر ، لأن الإنسان طبقاً لكل دروس التاريخ يصنع حاضره ومستقبله بعقله وعضلاته فقط وليس بالعملة الصعبة التى تأتى بها العفاريت . واعترض ممثل حزب معارض على البيان ورفض أن يوقع عليه وأعلن رفضه لكل ما جاء فيه من أفكار، وأصدر بياناً مضاداً قال فيه « وهل هناك ما يمنع من أن نصنع حاضرنا ومستقبلنا بعقولنا وعضلاتنا بالإضافة للمعونات الأجنبية ومساعدة الآخرين ؟ وفى نهاية البيان قال موجهاً حديثه للحكومة ، أعتقد أنه من حقنا أن نطالبكم الآن بأعطائنا مقاراً للحزب فوراً ، بل ونطالبكم بنصيبنا من هذه الدولارات .

فرد عليهم مسئول كبير : لست أدرى عن أى شىء تتحدث

المعارضة، ماذا حدث لعقولهم ؟ عفريت إيه ودولارات إيه وبتاع إيه ؟ مش يعقلوا . . ؟ . . أما مسألة المقار فإننا نوجه لضمائرهم سؤالاً واحدا، هل لو كانوا هم الذين فى الحكم هل كانوا سيوفرون مقاراً لحزبنا؟ . ومع ذلك فإننا سنوفر لهم أماكن تتسع لجماهيرهم القليلة .

وقال كاتب صحفى شهير : وقعت المعارضة فى الفخ فطاش صوابها وفقدت عقلها ، لأنها تعلم أننا قادرون الآن على حل مشاكل مصر الاقتصادية التى تتاجر بها ، المعارضة تعلم أننا قادرون على رفع المعاناة عن الشعب بل وعن أى شعب آخر ، تعلم أنه لدينا من الأموال الآن ما يكفى لذلك . لقد فقدت المعارضة مبرر وجودها وعليها أن تحمل عصاها وترحل قبل أن يرغمها الشعب على ذلك .

وقال كاتب ظريف رداً على بيان المعارضة « قاعدين ليه ؟ ما تقوموا تروحوا » .

من المؤكد أن القارىء العزيز يتساءل الآن ، أين كان يقيم العفريت؟

لقد ثارت فيما يختص بإقامته وإعاشته مشكلة حادة ولكن طريفة تسببت فيها البيروقراطية ولوائحها وقوانينها ، على أى أساس سيعامل هذا العفريت ؟ . . هل سيعامل كرئيس دولة سابق مثلاً . . ؟ . . أم سيعامل كرئيس دولة حالى ؟ أم يعامل بوصفه من كبار الزوار . . ؟ أم يعامل كسفير « لطائفة أجنبية ؟ . . هل تخصص له شقة أم فيلا أم قصر . . أم يخصص له جناح فى فندق كبير ؟

وحل هو المشكلة بنفسه فى النهاية قال لهم : أيها السادة . . إننى أطلب أن أقيم ضيفاً عند « أبو علوة » وبدأت متاعبى .

أحسست باضطراب وأنا أتلقى المكالمة التليفونية ، كانت من مدير مكتب مسئول قيادى كبير . أبلغنى فى تهذيب أننى مطلوب فوراً فى أمر هام فى مكتب المسئول ، وأنه بعد خمس دقائق بالضبط سوف أجد أمام البيت سيارة تنقلنى إلى مكتب المسئول . حاولت أن أعرف منه المزيد من التفاصيل ولكنه اعتذر فى أدب .

فى مكتب المسئول القيادى الكبير قابلت العفريت لأول مرة فى حياتى. لم أكن قد عرفت بعد أنه العفريت . كان جالساً يدخن فى هدوء مرتدياً ملابس القبطان البحرى البيضاء الجميلة ، بعد تبادل عبارات المجاملة التقليدية قال لى المسئول : الشخص الذى نتشرف بجلوسه معنا الآن هو ضيف هام وعزيز على مصر .

ـ أهلاً وسهلاً . .

ـ إن الحكومة على استعداد لأن تخصص له قصراً كبيراً ليقيم فيه . وأن تزوده بالخدم والحشم ، وأن تحيطه بكل أنواع الرعاية الرفيعة . ولكنه رفض ذلك كله وطلب أن يقيم عندك .

أجبت : على الرحب والسعة ياسيدى. إن ضيوف مصر هم ضيوفى ، هذا شرف عظيم لى . . ولكن بصراحة شقتى ليست مناسبة بالمرة لإقامة شخصية هامة ، إنها تصلح فقط . . بعد تجاوزات كثيرة . . لإقامة

شخصية غير هامة هى أنا . . لن يجد فيها الراحة التى ينشدها وننشدها نحن لضيوف مصر .

ابتسم المسئول القيادى الكبير وقال : عندما تعرف من هو ستغير رأيك . . إنه ليس شخصاً عادياً . . إنه عفريت . . انه العفريت الذى . .

صحت مقاطعاً : العفريت الذى أتى بالدولارات لمصر . . ؟!

أجاب المسئول : نعم . . إنه هو . .

تحدث العفريت فى النهاية فقال بأدب جم : ثق أننى لن أسبب لك إزعاجاً ولن تشعر قط بوجودى . . لا بد من الإقامة هنا فترة أتابع فيها كيفية حل المشاكل بالدولارات التى أحضرتها . . لن تخصص لى غرفة فى البيت . . سوف أقيم فى أحد أدراج مكتبك .

رحبت به بشدة . واتفق ثلاثتنا على أن يكون وجوده عندى سراً لا يعرفه أحد سوانا . إن تسرب خبر وجوده عندى من الممكن أن يصيب سكان العمارة بالفزع أو بالسعادة لا أدرى كما أنه قد يجعلنا هدفا للانتهازيين وطلاب الحاجات وهواة العفاريت .

اتفقنا على ذلك ثم استلمت العفريت بموجب استمارة حكومية ووقعت على عدة إقرارات تحملنى مسئولية أى مكروه يحدث له . .

فى مقهى « لاباس » جلست أنا وهو نحتسى القهوة بعد أن تخلص

من ملابس الكابتن البحرى وارتدى بلوفر بسيطاً برقبة وبنطلوناً عادياً كيف غيرها ؟ . . لا أعرف لقد فعلها فى جزء من الثانية فى مكتب المسئول . الذى انتابه الفزع عندما شاهده يفعل ذلك .

فى تلك الجلسة وهى جلستنا الأولى قلت له : إننى أشكرك باسمى وباسم أصدقائى وباسم مصر . . وأرجوك . لا تتصور للحظة أننى سأحاول الاستفادة من وجودك معى بأى شكل . فأنا أكسب جيداً والحمد لله . ولست فى حاجة إلى دولاراتك . فقط عندما أسافر . . وأى دولارات سأحصل عليها منك . سوف أسددها لك بالجنيه المصرى . . أو . .

قاطعنى العفريت بأدب : لم تعد لدى دولارات . . لقد سحبت رصيدى كله وأعطيته لمصر .

بداية لا تبشر بالخير . قلت له : ولكنك قادر يا عزيزى العفريت على الحصول بوسائلك على أى كمية من الفلوس .

أجابنى برقته التى كانت تغيظنى دائماً : غير صحيح . . وسائلى تتيح لى الحصول على هذا المبلغ فقط . . إلا إذا كنت تريدنى أن أسرق من خزائن الآخرين . . اطلب منى أى شىء آخر ما عدا الفلوس . . فى قدرتى أن أفعل أشياء كثيرة قد تدخل فى باب المعجزات . . ولكنى غير قادر على أن آتى بقرش واحد .

أسلمتنى خيبة الأمل لنوبة من الغضب فقلت له بحدة لفتت أنظار

بعض الحاضرين : ماذا تعنى ؟ . . إننى أنفق عليك طوال اليوم . اشتريت لك الدخان ودفعت ثمن الغداء فى أفخم مطاعم المدينة وسأدفع الآن ثمن المشروبات التى تناولتها ،هل كتب على أن أصرف على نفسى وعلى أولادى وعلى العفاريت أيضاً . . ؟

ـ هذا أمر طبيعى ما دمت قد قبلت أن أكون ضيفك . .

هذا العفريت الغريب يكاد يفقدنى أعصابى يدفع مائة مليار دولار دون أن يفكر فى احتجاز عدة ملايين فكة تصلح للطوارىء .

بدأ حل المشاكل . وكان العفريت يبتهج بشدة وهو يقرأ عن مجهود المسئولين فى الجرائد . حصلت كل وزارة على الميزانية التى طلبتها . حصل كل مسئول على المبلغ الذى يحلم به لحل مشاكله . بسرعة البرق بدأ العمل فى إنشاء مائة وسبعة وثلاثين كوبرياً علوياً لحل مشاكل المرور. وبدأ الحفر من أجل إنشاء خمسة أنفاق تحت القاهرة لربط ميدان باب اللوق بميدان التحرير . بدأ التخطيط من أجل المزيد من الطرق العلوية . تم إلغاء شارع الزمالك من قبل لعمل شارع آخر فوقه على أن يخصص شارع الزمالك السفلى (الأصلى الجميل) لوقوف السيارات .

إن الفكرة ناجحة . إلغاء مساحة من الأرض وعمل نفس المساحة أو أقل فوقها وبذلك نحصل على جراجات جديدة وأماكن لوقوف السيارات . أيضاً سوف يقام شارع علوى آخر فوق شارع طلعت حرب وشارع ٢٦ يوليو وشارع عماد الدين وشارع قصر النيل وشارع صبرى أبو علم . أما ميدان طلعت حرب فسوف نقيم فوقه ميداناً علوياً شاهق

الارتفاع للاستفادة من الميدان القديم موقفاً للسيارات . لذلك كان لا بد لمصانع الأسمنت فى العالم كله أن تعمل ليل نهار لتلبية احتياجاتنا .

حصلت وزارة الثقافة على الاعتمادات المطلوبة للنهضة الثقافية التى تنوى تحقيقها . وبالفعل تم بناء قصر كبير يخصص للرقابة على المصنفات الفنية . وفيه جناح كبير مخصص لزملائنا المثقفين يكتبون فيه تقاريرهم من أجل ترشيد الحركة المسرحية إلى حد القضاء عليها .

كما ستتمكن هيئة المسرح لأول مرة فى تاريخها من تقديم ألف وثلاثمائة أمسية شعرية للاحتفال بكل الموتى ، هرباً من الاحتفال بالأحياء ، وسوف تفتح أبوابها مجاناً للجمهور كما تم استيراد خمسمائة وسبعين أتوبيساً مكيفاً لاحضار المتفرجين من منازلهم وإعادتهم إليها بعد العروض . بعد أن استبعدت فكرة إنشاء عدة فنادق فخمة بجوار المسارح لإيوائهم . . واقتصر ذلك على المتفرجين التابعين للثقافة الجماهيرية . أغلقت المسارح لإعادة بنائها بشكل لائق . وفشل المسرحيون فى معرفة الموعد الذى ستفتتح فيه مرة أخرى ، غير أن العبقرى الفلكى أكد أن المسارح ستفتح أبوابها مرة أخرى ، بشكل لائق عندما يقترب برج الجدى من برج الحوت . .

بدأت حملة قومية لتجفيف البحيرات . البرلس . البردويل ، البحيرات المرة ، مريوط ، المنزلة ، من أجل الحصول على أرض جديدة لمشاريع الإسكان ، وصرح مسئول كبير أن حكومة سويسرا أرسلت بعثة

لمتابعة إنجازاتنا فى هذا المجال من أجل الاسترشاد بها فى تجفيف بحيرة جنيف .

أصبحت العمالة نادرة لأن الناس كلها تكسب من هذه المشاريع . وعلى الفور بدأنا الاستعانة بالعمال الكوريين فى مشاريع البناء وخاصة مشروع ميناء دمياط الجديد . تحسنت حال الفلاح فترك الأرض وأخذ يعمل فى المشروعات الجديدة . شجع على ذلك أننا بدأنا نستورد الفاكهة والخضروات وكل ما يمكن أن تزرعه الأرض . . حتى البيض واللبن الزبادى . وبالرغم من كل المجهودات التى بذلتها وزارة التموين فإنها فشلت فى استيراد المش لعدم وجوده فى الخارج .

وعندما ارتفعت بعض أصوات عجائز الفرح تحذر من هذه الظاهرة بدأنا فى استيراد فلاحين من الصين (فورموزا) ومن كوريا الجنوبية . وبدأت تظهر فى الصحف والمجلات مواضيع مصورة عديدة عن الفلاحين التايوانيين والهونجكونجيين وهم يعبرون فيها عن سعادتهم بوطنهم الجديد . واكتشف علماء الآثار أن الفلاح المصرى سبق له أن زرع أرض جنوب سيناء من آلاف السنين وأن ما يحدث الآن هو رد للجميل لا أكثر .

النغمة السائدة كانت (شراء العبد ولا تربيته) ... والفلسفة السائدة كانت : استورد . . استورد . . استورد . . ثم استورد . .

وأثبت أحد علماء الأجناس المشهورين أن الإنسان حيوان مستورد .

أخذت الفلوس تتجول فى جيوب الناس بنفس الكثرة والحرية التى تتجول بها الفئران فى الحقول .

بدأت شركات السيارات فى العالم كله تضاعف من إنتاجها لتلبى احتياجات المصريين وفازت شركة مرسيدس بنصيب الأسد لدرجة أن مدارس الحضانة التابعة لمصنع مرسيدس قررت على أطفالها أن ينشدوا نشيداً خاصاً فى الصباح مطلعه (ربنا يخلى لنا المصريين من غيرهم مصنعنا كان حايقفل) . ومع ذلك لم يكن العفريت سعيداً ، مازلت أذكر ذلك اليوم الذى دخل علىّ فيه حزيناً كاسف البال شارد النظرات . .

ـ مالك . .

فأجاب بصوت مبحوح : الجماعة عاوزين فلوس تانى .

لقد واجهت من قبل مواقف كثيرة أشاعت الانقباض والحزن فى قلبى ، ولكننى لم أشعر فى حياتى بمثل الأسى الذى استولى على وأنا أرى عفريتى الطيب حزيناً ، كاسف البال .

بالرغم من أننى لا أعرف المعنى الدقيق لهذا التعبير « كاسف البال » ولكن من المؤكد أن هذه كانت حالته . . كانت عيناه مغرورقتين بالدموع وهو يغمغم ، لست أدرى كيف أنفقوها كلها بهذه السرعة .

ـ اهدأ وقل لى ما هى القصة . . هل طلب منك أحد المزيد من الدولارات؟

تنهد العفريت فى حزن وقال : لم يطلبوها صراحة . . لقد لمحوا بذلك . . قال أحدهم وهو يضحك مجاملاً : يبدو أن المائة مليار دولار لن تكفى . . البركة فى عفريتنا العزيز . .

ـ وماذا فى ذلك . . ؟ . . الرجل يمزح معك .

ـ هو لا يمزح . . لقد اتضح لى من الأيام القليلة التى عشتها بينكم أن كل دولارات العالم لن تكفى قوماً يفكرون بالطريقة التى تفكرون بها . . أنتم سعداء بالدولارات وسعداء أكثر بأنه ولا واحد منكم يتعب فى الحصول عليها . .

لم أدر ماذا أقول له ، فاتهامه لنا صريح . . لكى أسرى عنه اقترحت عليه أن نخرج للنزهة . . عند ذلك انفجر ضاحكاً حتى استلقى على قفاه : للنزهة . . كيف . . ؟ . . أين . . ؟ فى أى حى ؟ . . فى أى شارع؟

شعرت بالخجل من سؤاله وتذكرت موسيقارنا العظيم محمد عبد الوهاب ، عندما كانوا يسألونه فى برامج الإذاعة والتليفزيون وفى أبواب الصحافة الفنية . . عن هوايته ، كان يجيب : المشى . .

وكنت أتساءل فى حيرة دائماً ، أين يمشى هذا الرجل ؟ هل لديه شارع هادىء فى شقته ؟ وأمكننى حل اللغز بعد سنوات ، كان يمارس هواية المشى فى سويسرا .

كنت أكلف عفريتى العزيز بمهام حياتية يومية تبعد عنه الضجر

والسأم وتساعده على الاندماج فى عالم البشر العجيب . وكان هذا يسعده جداً ، وفى هذه المرة كلفته بإصلاح شكمان السيارة فاستيقظ فى السادسة صباحاً وذهب بالسيارة إلى ورشة الشكمانات ثم عاد عند الغروب .

سألنى فى عتاب : لماذا لم تقل لى أن الورشة تفتح أبوابها فى العاشرة صباحاً .

ـ حسبتك تعرف . . ألست عفريتاً ؟ .

ارتفعت رنة الغضب فى صوته وقال : نعم أنا عفريت ولكنى أعرف عن البشر أكثر مما تعرفونه أنتم . . البشر يستيقظون مبكراً ، لأن الشمس تستيقظ مبكرة . . هناك دورة للجسم والعقل الإنسانى مرتبطة بدوران الأرض وبحركة الشمس . . أفهم أن تتدخلوا فى النشاط الإنسانى بالموجب ، ولكن كيف تسمح لكم ضمائركم بأن تتدخلوا فى حياة الناس بالسالب .

ـ يعنى إيه ؟

ـ يعنى أن الجسم البشرى ينشط فى وقت معين ويستولى عليه الخمول فى وقت معين وينام فى وقت معين ويستيقظ فى وقت معين . . الجسم البشرى له دورة طبيعية وعلى قراراتكم وقوانينكم أن تتمشى مع قوانين الطبيعة وقوانين الآدميين . . لماذا تتدخلون بالسالب فى حياة البشر ؟ . . قوانين الجسم تحتم أن يستيقظ الإنسان فى السادسة . . لماذا تطلبون منه

أن يعمل فى العاشرة ؟ كل شعوب الأرض أغبياء وأنتم الشعب الذكى الوحيد.

لقد جاء صاحب الورشة وعماله وجلسوا على دكة أمام باب الورشة المغلق ورفضوا رفضاً قاطعاً أن يسمحوا للسيارات بالدخول إلى الورشة قبل أن تدق الساعة العاشرة . من هو ذلك العبقرى الذى أصدر للمصريين أمراً بأن يمتنعوا عن العمل مدة ثلاث ساعات يومياً فى أهم لحظات نشاط الجسم الإنسانى . . ؟!

ـ لا بد أن لهذا العبقرى الذى أصدر هذا القرار أسبابه ومبرراته القوية.

ـ ما هى لكى ننصح بها الشعوب الأخرى . . لكى تخيب مثلكم .

ـ يا عزيزى العفريت ، ليست هناك ساعات عمل ضائعة . . لقد ألغيت ساعات الراحة بعد الظهر . . وأصبحت عملاً . . بدلاً من ساعات الصبح الضائعة .

هذه هى النظرة المكتبية التى تعامل الإنسان على أنه كرسى أو ماكينة . . حتى الكراسى والماكينات لها قوانينها الذاتية . . التى تحتم عليها أن ترتاح فى وقت معين لاجراء الصيانة . . والآن يا عزيزى الإنسان . . بعد تدخلكم بالسالب بما هو ضد طبيعة البشر فى شعب تتحدث كل أمثلته وحواديته القديمة عن الاستيقاظ مبكراً . . ما هى النتيجة ؟

القاهرة مزدحمة إلى حد الاختناق فى كل لحظات الليل والنهار . . قلت ساعات العمل فعوض الحرفى ذلك برفع أسعاره . فكانت النتيجة أن تحول الجميع لعازفين فى سيمفونية رفع الأسعار . . إننى أتساءل لو أن عدواً لكم اخترق أجهزتكم الإدارية وقرر أن يفسد حياتكم . ماذا يفعل أكثر من ذلك ؟

ـ يا عم العفريت . . روّق هذه مسألة بسيطة . .

ـ بسيطة ؟ . . تفرملون البشر وتقول لى بسيطة ، تمنعون الناس من العمل ثم تصرخون من وجع الديون . . إننى أطالبكم فوراً بسحب هذا القرار و إصدار قرار آخر يشجع الناس على أن تعمل منذ آذان الفجر إذا أرادت ذلك .

ـ تطالبنى يا عزيزى العفريت . . أنا مجرد مواطن . . كل ما أعدك به هو أننى سأكتب وجهة نظرك ليقرأها المسئولون . .

ـ المسئولون عن ماذا . . عن تعطيلكم وتقصير أعمار أيامكم ؟

ـ لا يا عزيزى . . هناك مسئولون آخرون . . لا نرى صورهم فى الصحف ولا يظهرون فى التليفزيون وهم يقرأون باهتمام كل ما يكتب . . لقد بدأت أؤمن بفكرتك سوف أطالبهم بتطبيع العلاقات بيننا وبين الطبيعة . . تشرق الشمس ، فنشرق نحن ، بمعنى أوضح فى نفس

نفس اللحظة التى يعمل فيها البشر فى العالم كله . . يجب أن نعمل نحن أيضاً .

ـ وإذا لم يحدث . . ؟

ـ يا عم العفريت لا تتعجل الأمور . . صدقنى سيفعلون ، وإذا لم يفعلوا سنستخدم ألفاظاً أخرى فى مخاطبتهم . . الألفاظ الوحيدة الواجبة فى مثل هذه الحالة . . روّق . .

ـ بالرغم من أننى لا أعرف معنى « روّق » هذه التى ترددها باستمرار إلا أننى سأروّق . . وعلى فكرة لقد أصبحت أشك فى أنكم شعب جاد . . .

ـ من فضلك . . حاسب على كلامك . . ما هو دليلك على ما تقول . . ؟

قال : دليلى هو سؤالك نفسه . . أنت تحاول الآن تحويل القضية إلى معركة كلامية عبيطة بينك وبينى ، أنت تريد أن تنتصر علىّ كلامياً . . عند ذلك تشعر بالراحة . . هذا هو تخصصكم الدقيق . الانتصار فى المعارك الكلامية . . وتتركون التفكير العلمى والعمل للآخرين ، والكلام والأجازات . . لا أحد فى التاريخ يحصل على هذا الكم من الأجازات ، تستريحون فيها من عناء التعطل .

سكت العفريت ثم قال فجأة : سوف أذكر للأبد هذه الأوقات

الجميلة التى قضيتها معك . . إذا وجدت وقتاً ، سوف أكتب لك . .
الوداع .

قالها ونهض بهدوء وقبل أن أتنبه لما يفعل ، كان قد فتح النافذة وخرج منها وطار فى السماء ، أخذت أتابعه ببصرى إلى أن اختفى ...

آه يا عفريتى المفلس المسكين . .





وأنقـذت جورباتشـوف

إلى الأبد سيظل المؤرخون يبحثون عن إجابات شافية لأسئلة كثيرة حول السقوط المفاجىء للاتحاد السوفيتى وتحول جمهورياته إلى أشلاء ، ولكن الآن وبعد أن ابتعد جورباتشوف عن الحكم وانتهى دوره تاريخياً ، جاء الوقت الذى أعترف فيه بدورى فى إنقاذه بعد الانقلاب الغادر الذى قام به نائبه جينادى ينابيف .

جاء الوقت الذى أكشف فيه للجميع أن ما حدث فى الاتحاد السوفيتى سببه الوحيد ، الأول والأخير ، هو الصراع المر والمدمر بين سيدتين فى مصر ، الأولى هى الراقصة المعروفة زينب عبد الحميد الشهيرة بزيزى ، والأخرى هى المطربة فتحية السلامونى الشهيرة بتوحة . وأنا أعلم مقدماً أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل على أى عقل أن يصدق ما سأورده من وقائع ، ولكن هكذا كان وسيكون شأن العقل البشرى إلى الأبد ، عدم تصديق الحقيقة لأنها غريبة أو لأنها أكثر بساطة من اللازم ، وإليك القصة من أولها .

فى عام ١٩٦٦ كانت زينب عبد الحميد لم تكتسب بعد اسم الشهرة زيزى ، فقد كانت فى ذلك الوقت تعمل راقصة فى الفرقة القومية للفنون الشعبية ، حيث كان يشرف على الفرقة ويصمم رقصاتها خبير روسى هو «رامازن» . كان عملاقاً ضخم الجثة يعامل الجميع بصرامة وخشونة ، ولكنه والحق يقال كان مصمماً رائعاً . ذات يوم زاره أحد أصدقائه الروس وكان يزور مصر فى مهمة سياسية ، وقدم « رامازن » إلى أعضاء الفرقة قائلاً صديقى جينادى ينابيف . . واحد من قيادات الحزب الشابة فى موسكو ، وينتظره مستقبل عريض .

تعرف جينادى على زيزى فى حفل عشاء فى السفارة السوفيتية ، ونشأت بينهما علاقة حب تطورت وازدادت قوة مع زياراته المتكررة إلى القاهرة . هناك من يؤكد أن علاقة الحب بينهما لم تتطور إلى أبعد من ذلك، وأنهما كانا يلتقيان فى شقة مفروشة فى شارع محمد مظهر فى الزمالك ، ويقضيان الوقت فى مناقشة قضايا الجماهير ، ومشاكل الطبقة العاملة ومستقبل الإنسان على وجه الأرض ، وحتمية الحل الاشتراكى ، وضرورة القضاء على الإمبريالية العالمية ، خاصة وأن زيزى فى ذلك الوقت كانت طالبة بالمعهد الإقليمى للدراسات الاشتراكية الموجود بشارع صبرى أبو علم ، وكثيراً ما كنا نراه ينتظرها فى محل « لاباس » القريب من المعهد .

ولكن هناك معلومات شبه مؤكدة أنه تزوجها بعد أن أسلم ، وأنه أنجب منها طفلة اسمها «ناتاليا» تسمت بعد ذلك باسم «ناتاشا»

والتحقت بفرقة «البولشوى » فى موسكو حيث أظهرت براعة فى الرقص ليست مستغربة من فتاة تجرى فى عروقها مياه نهر «الفولجا» ومياه نهر النيل .

بعد أن طرد الرئيس السادات الخبراء السوفيت من مصر ، توقفت زيارات جينادى وانقطعت أخباره تماماً عن زيزى ، أو على الأقل هذا ما كانت تشيعه هى بين زملائها وزميلاتها فى الفرقة الذين أطلقوا على حبيبها اسم «جنيدى» : عامله إيه مع الواد الرفيق جنيدى . . ؟ أخبار جنيدى إيه ؟ . . ربنا يهدّى سركم وتتلمّوا على بعض .

ولكن من الغريب أنه طوال تلك السنوات لم تنقطع علاقة زيزى بجنيدى ، أقصد جينادى ، هذا هو ما أكده لى فيما بعد «س . ص . » من مباحث أمن الدولة . كانت هى ترقى مراتب سلك الرقص الشرقى ، وكان هو يرقى سلالم الحزب الشيوعى ، إلى أن جاءت فترة «البيروسترويكا» واختاره الرئيس جورباتشوف نائباً له .

منذ ثلاثة أعوام قابلت المغنية توحة السلامونى فى مكتب الأستاذ «م . ل» فى مبنى التليفزيون ، كانت توقع عقداً للاشتراك فى الغناء فى فيلم تليفزيونى ، قالت لى : ماتمشيش . . عاوزاك .

دعتنى إلى العشاء فى مطعم «بابريكا» القريب من التليفزيون وبينما نحن نتناول العشاء قالت لى : البنت زيزى بتدبّر حاجة للاتحاد السوفيتى .

ضحكت طويلاً على نكتتها ، ولكنها واصلت كلامها بشكل جاد : اسمع كلامى . . أنا مش باهزر . . دى داهية . . ماتعرفش أنها لسه على علاقة بجنيدى ؟

ـ مين جنيدى ؟

عند ذلك قصت على التفاصيل السابقة التى ذكرتها لك باختصار حاذفاً منها ما لا يمكن نشره . سألتها وأنا أتصنع الاهتمام الشديد : تفتكرى حاتعمل انقلاب هناك وتستولى على الحكم وتخلّص على الشيوعية العالمية ؟

أجابت فى تأكيد : حتى الآن أنت لا تصدقنى ، زيزى تدبر مؤامرة للإطاحة بالرئيس جورباتشوف ، مستغلة تأثيرها الشديد على جنيدى . . هو خاتم فى إصبعها ، افعل كذا ، يفعل كذا ، هى طموحة جداً وعداؤها للاشتراكية والشيوعية العالمية معلن ومعروف ، لذلك أنا أتنبأ بأن جنيدى سيطيح بجورباتشوف، ثم يتزوج من زيزى ، وبذلك تصبح زوجة لرئيس الاتحاد السوفيتى ، تماماً « كإيفا بيرون » التى تتخذ منها مثلاً أعلى وتحلم بأن تكون مثلها .

بالطبع لم أصدق حرفاً واحداً مما قالته فتحية معتبراً أن كل ما قالته مجرد تهاويم نتيجة للصراعات بينهما ، ومع ذلك سألتها : ما هو دليلك على ما تقولين ؟ ما هو مصدر معلوماتك . . ؟

أجابت : قلبى دليلى ، ليس هناك دليل على ما أقول ، ولم أحصل

على معلوماتى من أى مصدر ، ولكن عندما قالت زيزى إنها ذاهبة إلى قبرص لقضاء الصيف هناك ، اكتشفت بعد ذلك أنها قضت الصيف كله فى موسكو ولننجراد فلا بد أن وراء ذلك ما وراءه .

ـ ليس وراءه شىء ، التصييف هناك أرخص .

ـ أنت لا تعرف زيزى ، زيزى تكره الشيوعية والشيوعيين كراهية التحريم ، هل تعرف الصحفى اليسارى « ص . ح » ؟

ـ نعم . . هو صديقى .

ـ كانت واقعة فى غرامة فى بداية الستينيات ، وبالرغم من محاولاتها العديدة لإقامة علاقة معه ، إلا أنه رفض الاستجابة لها وانصرف عنها ، وذات مرة فقدت أعصابها وصاحت فيه مهددة أمام جمع من زملائها فى المسرح : وحياة أمى لأهدلك الحركة الشيوعية العالمية على دماغك وعلى دماغ الاتحاد السوفيتى . . وابقى خلّى البروليتاريا تنفعك ، وحاتشوف . . أنا وراكم والزمن طويل .

قلت لها : يا توحة ، هذا مجرد تهديد فى لحظة غضب من امرأة طُعنت فى عواطفها . . معلوماتى تقول إنها غير قادرة على تنفيذ ذلك التهديد . . أمريكا نفسها عاجزة عن ذلك .

ـ زيزى أقوى من أمريكا ، صدقنى ، لقد أقامت علاقة حب مع جنيدى منذ أكثر من عشرين عاماً انتظاراً لليوم الذى تضرب فيه ضربتها.

بالطبع لم أصدق حرفاً واحداً من حديثها كله ، ونسيت الموضوع إلى أن اتصلت بى فجر اليوم الذى تمت الإطاحة فيه بجورباتشوف . قالت وهى تصرخ فى التليفون : عملتها بنت الكلب . . إلبس وحصلنى على المطار .

مرت لحظات قبل أن أستوعب ما حدث ، رددت عليها : إهدى يا توحة . . حانروح فين ؟

ـ موسكو .

ـ ليـه ؟

ـ قالت فى تصميم : نرجَّع الراجل للحكم ، نرجّع جورباتشوف . . لما أشوف أنا واللاّ هى . . لازم أوديها هى وجنيدى فى ستين داهية .

ـ طب ادينى فرصة أفكر . . تعرفى حد فى موسكو ؟

ـ أعرف طبعاً . . أمال فاكر هى بس اللى تعرف .

ـ تعرفى مين ؟

ـ يالتسين .

مرت لحظات قبل أن أقول لها : توحة . . هذه صراعات قمة وأنا ماليش دعوة بالسياسة .

صرخت بصوت اهتزت له سماعة التليفون « خُفت يا جبان ؟! » حاروح لوحدى .

قالت ذلك ووضعت السماعة بعنف منهية المكالمة ، مرت لحظات قبل أن أطلبها مرة أخرى : توحة أنا أقدِّر حرصك على « البريسترويكا » .. حاجى معاك بس اعقلى ، هناك ترتيبات عديدة لا بد من اتخاذها قبل أن نذهب إلى موسكو ، سأكلمك بعد نصف ساعة .

اتصلت بصديقى الدكتور « ع . ح » الخبير السياحى المعروف لأستشيره فى كيفية السفر الآمن إلى موسكو ، فقال لى : سأنتظرك فى مكتبى بعد ربع ساعة .

• • •

بعد عشرين دقيقة بالضبط كنت فى مكتب الدكتور « ع . ح » الذى قال لى : لا أنصحك بالذهاب إلى موسكو بالطائرة ، فحتى الآن لم يغلق قادة الانقلاب المطار ولكنهم قد يغلقونه فى أى لحظة ، بالإضافة إلى أن أول طائرة ستغادر القاهرة إلى موسكو ، ستقلع بعد يومين .. خلال هذين اليومين قد يقتلون جورباتشوف .. إن كل دقيقة تمر تحمل خطراً مؤكداً على حياة الرجل ، لذلك أنا أقترح الآتى ، بعد ساعة ونصف هناك طائرة ستغادر القاهرة إلى فنلندا ، إذا تمكنت من اللحاق بها أنت وفتحية ، فسيكون فى وسعكما أن تستقلا القطار من هناك إلى موسكو ، فتصلان فى السادسة تماماً .. هل باسبورك جاهز ؟

إن طبيعة عملى فى مجال الدبلوماسية السرية تحتم أن تكون لدى بطاقات شخصية وباسبورات ووثائق من كل الأنواع وتحمل أسماءً ومهناً

مختلفة ، وكل وثائقى سليمة تماماً والتوقيعات والأختام عليها حقيقية ، حصلت عليها من مصادرها الطبيعية والشرعية ، وهى عملية سهلة للغاية ، فمثلاً هناك مائة ألف مواطن يعملون فى مكتب السجل المدنى منهم ٩٩٩٩٧ موظفاً أميناً ، على أفضل تقدير ، وبالتالى يكون هناك ثلاثة منعدمى الضمير . هؤلاء هم مصدرى لما أريد من جوازات سفر مختلفة الأسماء والمهن ، وبهذه الطريقة حصلت على كل وثائقى وشهاداتى الإدارية ، لدى بكالوريوس طب وماجستير جراحة ودكتوراه فى السياحة، وأخرى فى التاريخ ولدى شهادة تخليص جمركية بأننى قد سددت ربع مليون جنيه رسوماً جمركية على سيارتى « الزلمكة » ، ولدىَّ بطاقة تموين بأننى أعول أسرة مكونة من سبعين فرداً ، ولدى شهادة حيازة زراعية أصرف بها العلف والسماد لعشرة آلاف فدان فى الصحراء الغربية ، ولدى عدة شهادات وفاة ، وعشر شهادات ميلاد بتواريخ مختلفة ، وشهادة بأننى قد انتهيت من قضاء الخدمة العسكرية ، وشهادة بأننى معفى منها ، ولكننى أقسم أننى لا أستغل هذه الشهادات فى الشر ، ولكن لتسهيل أعمالى فى طريق الخير فقط .

كلمت فتحية وطلبت منها أن تقابلنى على الفور أمام شيراتون هليوبوليس فى طريق المطار . عندما وصلت إلى هناك لم تكن فتحية قد ظهرت بعد ، انتظرتها فى التاكسى لعدة دقائق بينما القلق يأكلنى . . وأخيراً ظهرت فتحية قادمة فى سيارة أجرة ، صحت فيها : اجرى يا توحة . . مافيش وقت .

ركبت فتحية إلى جوارى وانطلق بنا السائق . أخرجت من جيبى ورقة بمائة جنيه ولوحت بها للسائق ، عندما رآها ارتسمت على وجهه نظرة ذهول وبلاهة ، تصور الرجل أننى سأطلب منه أن يقتل أحداً ، قلت له : اسمع اكسر الإشارات ، تجاهل أجهزة الرادار ، لا بد أن نصل إلى المطار فى أسرع وقت ، إنها مسألة حياة أو موت شعب بأكمله . . بل عشرات الشعوب والقوميات ، إن التاريخ يا عزيزى الأسطى ، ينظر لك الآن فى لهفة وترقب . . إذا تمكنت من الذهاب بنا إلى المطار فى ثلاث دقائق فقط فسوف نكون قد أدينا للبشرية خدمة جليلة ، بالطبع هو لم يفهم حرفاً واحداً من كلامى ولكن المائة جنيه جعلته يقود السيارة وكأنه شيطان . طلبت من فتحية أن تعطينى جواز السفر الخاص بها ، أمسكت بالجواز ومزقته ثم ألقيت به من النافذة بينما هى تنظر لى فى ذهول .

ـ توحة . . أنت الآن زوجتى ، كده وكده طبعاً . . أنا الآن إبراهيم محمد العلايلى ، تاجر جلود وأنتِ زوجتى فتحية عبد الحميد السيد ومهنتك ربة بيت . . خذى ، هذا هو جواز سفرك الجديد ، ونحن ذاهبان إلى فنلندا للسياحة وللاتفاق على تصدير جاكتات جلدية من مصر .

صاحت فتحية : ولماذا مزقت جواز سفرى الحقيقى ؟

أجبت : قد نتعرض لعملية تفتيش ذاتى فى محطة السكة الحديد فى موسكو . . إذا وجدوه معك فسيشكون فى أمرنا . . ما الذى

يدفع مغنية مصرية للذهاب إلى موسكو فى هذه الظروف العصيبة ؟!

وصلنا إلى المطار قبل قيام الطائرة بخمس دقائق ، مررنا من الجمارك بسلام ، وفى الجوازات أمسك الضابط المختص بالباسبورين وختمهما ثم قال لى هامساً : بالطبع هذان الباسبوران مزوران ، ولكن لدى تعليمات بأن أترككما تمران . . تفضلا .

أسفل سلم الطائرة وجدت شاباً لم يسبق لى رؤيته فى انتظارى ، همس فى أذنى وهو يدس فى يدى قصاصة ورق صغيرة : هذا رقم تليفون شخص فى فنلندا ، اتصل به من مطار هلسنكى ... احفظ الرقم جيداً ثم احرق الورقة والق بها فى دورة المياه فى الطائرة . . نتمنى لكما حظاً طيباً .

قالها ثم اختفى بينما نحن نأخذ طريقنا صاعدين إلى الطائرة التى أقلعت على الفور بمجرد جلوسنا . أحسسنا بالراحة والاسترخاء بعد لحظات التوتر التى مرت بنا منذ سماع خبر الإطاحة بجورباتشوف ، قلت لفتحية : هل تعتقدين يا توحة أننا ستتمكن من إعادة جورباتشوف للحكم ؟

ـ نعم « اسع يا عَبْد وأنا أسعى معاك » .

ـ هناك نقطة أريد أن أستوضحها منك يا توحة ، قلت لى إنك تعرفين « يالتسين » ... هناك بالطبع ملايين من الروس يحملون اسم «يالتسين»

فهل الشخص الذى تقصدينه هو رئيس جمهورية روسيا الحالى والمنافس الوحيد لجورباتشوف ؟

أجابت وقد بدأت الدموع تترقرق فى عينيها : نعم هو من أقصده هى قصة قديمة انتهت منذ سنوات طويلة ولكنها تركت فى قلبى جرحاً لا يندمل . . إنها قصة حبى .

تهدج صوتها ، امتلأت عيناها بالدموع التى أخذت تسيل على وجنتيها ، أشرق وجهها بابتسامة حلوة لا تخلو من ألم . تركتها تتكلم دون أن أقاطعها ، فمن الخطأ أن تقاطع امرأة تحكى لك قصة حب انتهت بالفشل . وعلى العموم ، كل قصص الحب الجميلة تنتهى بالفشل .

قالت فتحية : فى بداية الستينات كنت طالبة بمعهد « الكونسرفتوار » كل من استمعوا إلى صوتى قالوا لى إننى سأكون مغنية «السوبرانو» الأولى فى الشرق . كانت تشرف على تعليمنا سيدة روسية اسمها «أولجاإيفانوفنا» .

ذات يوم شاهدت عندها فى مكتبها شاباً قدمته لى على أنه ابن أختها « آنا كارنينا » التى كانت تعمل رئيسة لأحد المزارع الجماعية «الكولخوزات» فى أوكرانيا ، كان اسمه «يالتسين» . هل تؤمن بالحب من أول نظرة أو تعتقد أن لهذا النوع من الحب وجود ؟ نعم هو موجود . عندما شاهدته شعرت بجسمى كله ينتفض كما لو أن تياراً كهربياً سرى

فيه ، تزلزل كيانى ، هذا هو الرجل الذى أريده ، كانت تقاطيع وجهه حادة مليئة بالتحدى ونظراته حزينة تملؤها الهموم . فى هذه المرحلة من حياتى كنت خارجة لتوى من قصة حب فاشلة مع عازف كمان وَغْد . باختصار أحببت «يالتسين وهو أيضاً أحبنى بجنون . طلب من خالته «أولجا » أن تصارحنى برغبته فى الزواج منى . عرض أن يقوم بتلبية كل رغباتى وأولها أن يشهر إسلامه ، كما أبدى استعداده لأن يقيم فى مصر أو فى موسكو أو فى أى مكان فى العالم ، فقد كان عضواً فى قيادة الحزب الشيوعى ، وكانوا لا يرفضون له طلباً ، وافقت بحماس على الزواج منه وأقنعت أسرتى التى كانت غير موافقة فى البداية . قدم طلباً للرئيس «أندروبوف» طالباً التصريح له بالزواج من مصرية ، وأرفق بالطلب شهادة إدارية معتمدة من سفارتهم فى مصر بأننى معادية للاستعمار والإمبرايالية . حول « أندروبوف » الطلب إلى اللجنة المركزية للحزب ، وبُحِثَ الموضوع فى مكتب الشئون الغرامية فرع العالم الثالث ، وهو المكتب الخاص بشئون الأعضاء الذين يقعون فى حب مواطنين من العالم الثالث . رفضت العناصر المتشددة الطلب دون إبداء الأسباب، ولكن حبيبى لم ييأس ، رفع الأمر لمجلس السوفيتى الأعلى ، فوافقوا بأغلبية ضئيلة بعد أن قال لهم حبيبى ان هذه الزيجة ستبنى جسوراً قوية بين الشعبين المصرى والسوفيتى . . وافقوا ولكن الموافقة كانت مشروطة بموافقة الاتحاد الاشتراكى فى مصر ، وهذا أمر سهل بالطبع ، كانت الأمور تسير على خير ما يرام عندما كتب أحد الصحفيين المتشنجين

عموداً صغيراً فى الصفحة الأولى فى جريدة « برافدا » قال فيه « ألم تعد فى الاتحاد السوفيتى العظيم نساء صالحات للزواج من الرفيق المرفّه يالتسين؟ إذا كان سيادته يفضل هذه المرأة المصرية على نساء الطبقة العاملة فى بلادنا فليتزوجها ، ولكن ليترك مكانه فى الحزب فوراً ، ليخلى مكانه للشرفاء الذين يناضلون من أجل سعادة الإنسان ومستقبل البشرية ولا يضيعون وقتهم فى الحب البورجوازى والعواطف الإمبريالية الرجعية . سفارتنا النشطة فى موسكو أرسلت إلى المسئولين فى مصر ترجمة دقيقة لما نشر ، رفض الاتحاد الاشتراكى فى مصر لجنة قسم عابدين التصريح لى بالزواج منه بدعوى أننى ثروة قومية نظراً لقوة صوتى ، لذلك لا يجب أن أغادر مصر . الواقع أن المسئولين فى ذلك الوقت كانوا يعتبرون كل أفراد الشعب المصرى ثروة قومية لذلك لم يكونوا يسمحون لهم بمغادرة البلاد . انهار كل شىء ، منعته قيادة الحزب من زيارة القاهرة لعدم إثارة المتاعب مع الحكومة المصرية وحرصاً على الاشتراكية الوليدة فى مصر . بكى فى آخر لقاء لنا وقال لى : أقسم لك يا توحة بأننى يوماً ما سأعيد الحرية والحب إلى بلادى .

أقسمت له أنا أيضاً وأنا أبكى أنه عندما يتمكن من إعادة الحرية إلى الشعب الروسى فسوف أغنى للحب وللحرية فى الميدان الأحمر .

كانت الدموع تسيل بغزارة على وجه فتحية وهى تحكى حكايتها المؤلمة . شردت بنظرها عبر نافذة الطائرة تحدّق فى السحب الكثيفة تحتنا ، ثم التفتت إلى وقالت : كرهت صوتى «السوبرانو» القوى ، هجرت

الغناء فى الأوبرات العالمية ، واحترفت الغناء الشرقى فى الأفراح والملاهى الليلية ، تزوجت بعد ذلك مرتين ولم أوفّق فى أى منهما .

ثم تنهدت وقالت : لقد مرت سنوات على حكايتى مع « يالتسين » ولكن الزمن لم يفلح فى أن يجعلنى أنساه . قضينا بقية الرحلة صامتين وأنا أشعر بالحزن والدهشة من تصاريف القدر ، أفقت من تأملاتى على صوت المضيفة تعلن من خلال الميكروفون : نحن الآن على وشك الهبوط فى مطار « هلسنكى » الرجا ربط حزام المقعد والامتناع عن التدخين . . إلخ .

من أحد تليفونات المطار اتصلت بالرقم الذى أعطانيه الشاب الغريب فى مطار القاهرة ، رد على صوت يتكلم الإنجليزية بلكنة مصرية : أبو علوة . . خارج المطار ستجد سيارة «شيفروليه» زرقاء ، كلمة السر هى أن تسأل السائق ، هل للأفراد دور فى صنع التاريخ ؟ سيرد عليك ، نعم بشرط أن يكونوا من النماذج الراقية ، أحذر أن تركب مع أى شخص لا يعطيك الإجابة الصحيحة .

خارج المطار وجدت عدة سيارات بنفس المواصفات ، وجهت لسائقيها السؤال المطلوب ، نظروا لى أنا وفتحية فى بلاهة وعدم فهم . أحسست بالتوتر ، ثارت أعصابى وأنا أغلى من الغضب ، صرخت بأعلى صوتى أمام المطار باللغة العربية : هل للأفراد دور فى صنع التاريخ؟

فوجئت بأحد السائقين يرد على صائحاً : أيوة . . أيوة . . بشرط أن يكونوا أجدع ناس . كان واضحا أنه كان نائماً خلف الدريكسيون وأيقظته صيحاتى ، الغريب فى الأمر أن سيارته كانت « نصر ١٢٥ » حمراء ، ركبنا معه ، قلت له : التعليمات عندى بأنك ستنتظرنى بسيارة شيفروليه زرقاء .

رد ببساطة : معلهش . . أصل أنا باحب العربية دى . . بتفكرنى بمصر .

غضبت من إجابته فقد كان من الممكن أن تؤدى إلى كارثة ، وعدت أقول له : الإجابة أيضاً كان يجب أن تكون ، نعم ، نعم وليس أيوه أيوه . . وبشرط أن يكونوا من النماذج الراقية وليس أن يكونوا أجدع ناس .

أجابنى وهو يكسر إشارات المرور ويكسر على السيارات فى شوارع هلسنكى : يا عم ما تدقش . . ، ما هى هىّ هىّ . . اتكل على الله ، قول يا باسط .

أوصلنا إلى محطة السكك الحديدية حيث لحقنا على آخر لحظة بالقطار المتجه إلى موسكو ، عندما دخل القطار الحدود الروسية فوجئت بأحد رجال الشرطة السوفيت يقترب منا ، كان فى حجم « البلاكار » تصفح جواز السفر الخاص بى وبفتحية ثم نظر إلينا نظرة باردة وقال بالإنجليزية : الغرب كله بكل إمكانياته عاجز عن إنقاذه . . ومع ذلك أنتما تأتيان لإنقاذه . . يا لكما من أحمقين . . اتفضلوا معايا . .

استولى على رعب لا حد له ، عجزت عن الوقوف ، كاد قلبى أن يتوقف ، نظرت إلى وجه فتحية فوجدته مزيجاً من اللون الأخضر والأصفر.

سرت أنا وفتحية خلف الضابط مخترقين عربات القطار وخلفنا شرطيان ، لقد قابلت الموت مرات عديدة فى مغامراتى ، ولكننى فى هذه اللحظات شعرت برعب لم أشعر به من قبل . أنا أعرف جيداً وسائل الشرطة الروسية فى انتزاع الاعترافات ، لم أكن خائفاًعلى نفسى وإنما على فتحية فبالرغم من صلابتها إلا أنها فى النهاية أنثى .

فى كل قطار فى الاتحاد السوفيتى يوجد ديوان لرجال الشرطة السرية تابع لجهاز إلـ « ك . ج . ب » وهذا الجهاز إذا كنت لا تعرف هو جهاز الاستخبارات الرهيب ، المسئول عن أمن الدولة فى الداخل والخارج ، وهو جهاز قوى وشرس خضت ضده معارك سابقة كثيرة انتصرت فى عدد كبير منها ، وها أنا الآن فى قبضتهم فياللنحس .

فى الديوان الفخم كان هناك أحد الجنرالات ، جلس إلى مكتبه ينظر لنا نظرات طويلة ناعسة لا معنى لها ، أشار لنا أن نجلس ، خيل إلىّ أننى أسمع دقات قلب فتحية أكثر ارتفاعاً من صوت عجلات القطار ، كانت نافذة الديوان مفتوحة ، فكرت بسرعة ونظرت إلى فتحية ، لا بد أنها كانت تفكر فيما أفكر فيه ، همست لفتحية : توحة ، إذا تأزم الموقف، نستطيع أن نقفز على الجنرال بسرعة البرق ونلقى به من الشباك ثم ننتظر داخل الديوان المغلق إلى أن نقفز نحن أيضاً عندما يهدىء من سرعته عند أحد المنحنيات .

همست فتحية : هو ده اللى بافكر فيه .

عند ذلك قال الجنرال ما جعل الدم يتجمد فى عروقى ، فجأة قال بالعامية المصرية : وعلى إيه . . هو أنا عملت فيكم حاجة يا إخوانا ؟

زلزلتنى المفاجأة ، عجزت عن النطق ، صرخت فيه فاغر الفاه كالأبله ، كانت فتحية أسبق منى فى استعادة رباطة جأشها ، صرخت فيه : يا نهارك اسود ومنيّل . . انت بتعرف عربى .

ابتسم الجنرال وأجاب : طبعاً . . إيه رأيكم ؟ لسة برضه بتفكروا ترمونى من الشباك ؟ أما ناس هبل صحيح . . تعال شوف انت وهى أنا قاعد ازاى .

نهضنا لنرى كيف يجلس ، فوجئنا به مربوطاً إلى مقعده بسير جلدى عريض متين ، أشار إلى عدة أزرار تحت قدميه وبجواره على المكتب ، قال : هذه الأزرار تستطيع أن تطلق الشياطين من عقالها فى لحظات . . نحن محترفون يا سادة ، ولسنا من الهواة ، شىء آخر ، أنتم تظنون أن هذه النافذة مفتوحة . . الواقع هى مغلقة بلوح زجاجى مضاد للرصاص، ولكنه نظيف لدرجة أنكما لا تريانه .

قال ذلك ثم ضحك ضحكة طويلة بينها أنا وفتحية نكاد نموت من الخجل ، أخرج « تُرمُساً » وصب لنا كوبين من الشاى : اسمعوا يا حضرات . . لا داعى للف والدوران . . هذه السيدة ليست زوجتك ، وإنما هى المغنية الشهيرة توحة ، التى كانت على علاقة حب بالرفيق

«يالتسين» وأنت لست العلايلى تاجر الجلود ، أنت أبوعلوة . . الشبح ، وأنتما هنا ليس للسياحة ، ولكن للقضاء على « جينادى يناييف » وبقية قادة الانقلاب .

فى تلك اللحظة شعرت بحبل يلتف حول عنقى ، أو لعلهم سيقتلوننى وفتحية رمياً بالرصاص ، يا لها من نهاية سخيفة لحياة حافلة بالنشاط والمغامرات . استجمعت قوتى وسألته فى صوت مبحوح : من أنت يا سيدى ؟

قال : أنا الجنرال إيفان إيفانوفتش ، الرئيس السابق لقسم الأدب العربى فى جامعة موسكو ، وكبير المترجمين فى مشروع السد العالى فى أسوان وأيضاً ناظر محطة الـ . ك . ج . ب . فى الشرق الأوسط .

التفت إلى فتحية ثم واصل كلامه فى رقة : سيدتى . . لا أنسى يوم غنيت لنا فى أسوان فى احتفالات تحويل النهر . . كانت ليلة جميلة .

عند ذلك صاحت فتحية : إيفان . . يخرب عقلك يا إيفان . . آه افتكرت دلوقتى . . حتى بالأمارة سهرت واتعشيت معانا وكان الطبلجى بتاع الفرقة معاه الجوزة بتاعته وعزم عليك . . وأنت كنت آخر صهللة . . حتى بالأمارة قعدت تغمزلى بعينيك .

صاح إيفان : حصل يا توحة حصل ، يا لها من أيام جميلة ، يا لها من أيام حلوة . . اختنق صوته من التأثر وبدأ يبكى ، احترمنا ضعفه

الإنسانى وتركناه يبكى ، وأخيراً قال فى توسل : غنى لى يا توحة غنى لى الليالى والمواويل التى سمعتها منك فى أسوان .

قالت فتحية فى حنان : حاضر يا حبيبى . . حاغنى لك يا روحى . . بس قل لنا فى الأول ، ناوى تعمل فينا إيه ؟

قال : ولا حاجة . . سأساعدكما فى مهمتكما . . اسمعوا . . أنا من رجال جورباتشوف . . يعنى أنا فى جناح المخابرات المضاد لجينادى الزفت . . سأرسل معكما بواحد من رجالى ، المطلوب الآن توصيل جهاز راديو صغير وقوى إلى جورباتشوف ، لا يجب أن يشعر بالعزلة ، فالعزلة تدفع الإنسان إلى الشعور بالتعاسة وبالتالى الانهزام . . فى نفس الوقت علينا أن نفكر فى طريقة نجعل بها جينادى ينايف يفقد وعيه ، إن نقطة ضعفه الوحيدة هى الخمر ، علينا أن نرسل له عن طريق صديقته زيزى بصندوقين من الويسكى الفاخر وبذلك يفقد تقديره للأمور ، ولكنى أحذرك يا فتحية من محاولة الاتصال بالرفيق « يالتسين » فزوجته غيورة جداً وشرسة ، وهى تعرف قصة حبكما القديمة ، إذا عرفت أنك فى موسكو أو إذا عرفت أنك قابلتيه فسوف تطيّـن عيشته وتحبسه فى البيت، وبذلك ينعزل عن الجماهير ، فتشعر الجماهير باليأس وتعجز عن الوقوف فى مواجهة الانقلاب ، ولكنى أعدك بأننى سأدبر لك طريقة للقاء معه فى مكان آمن . . . بقى أمر أخير . . معاكم سجاير كليوباترا ؟

أجبته : نعم ، معايا خرطوشة فى الهاندباج .

أرسل على الفور واحداً من معاونيه لإحضار الهاندباج ، أخرجت منها خرطوشة وأعطيتها له ، أخرج منها علبة بسرعة ولهفة ثم سحب منها سيجارة أشعلها وأخذ يدخنها فى سعادة . وقال بصوت رقيق وكأنه يحلم : هل تعتقدان أننا سننجح فى إعادة جورباتشوف للحكم والقبض على رجال الانقلاب ، وإعادة الحرية والعقل والعدل إلى الاتحاد السوفيتى ؟

ردت فتحية بحماس : نعم . . أنا واثقة من ذلك .

التفت إلى متسائلاً : وأنت يابو علوة ؟ .

فى تلك اللحظة استشعرت خطراً غامضاً فأجبته بحذر : ربنا يسهل .

مرت لحظات بينما هو يدخن وقد استغرق فى تفكير عميق ، فجأة استمعنا لصوت طرق على الباب ، قال كلمة باللغة الروسية ، فى الغالب معناها : أدخل .

دخل ضابط شاب يحمل عدة أوراق وشريط تسجيل كاست وشريط فيديو ، تبادل معه الحديث باللغة الروسية ، على الفور فهمت ما حدث ، هذا الوغد استدرجنا إلى الاعتراف الكامل بالمهمة التى جئنا من أجلها وأشهد أن حيلته قد انطلت على ، فقد أدى دوره فى براعة مذهلة ،

قال لى فى قسوة وبرود : كل حرف يقال وكل شىء يحدث فى هذا الديوان يتم تسجيله صوت وصورة ويتم تفريغه فى محضر رسمى . . إيه رأيك يا أبو علوة ؟ . .

أجبت : أنت وغد كبير يا سيدى ، وضابط مخابرات جدير بالاحترام . . لقد صدقتك فعلاً .

قال : هناك مشكلة واحدة فى الاعتراف ، فتحية قالت : نعم ، أنا واثقة من ذلك ، وهذا اعتراف صريح منها . . أما أنت فقد كان كلامك عاماً . . قلت ربنا يسهل .

رددت عليه بسخرية : ربنا يسهل وتروحوا كلكم فى ستين داهية إن شاء الله . كل الطغاة ، وكل الأوغاد ، مسيرهم يجيلهم يوم ويروحوا فى ستين داهية . . يعجبك الاعتراف ده يا جنرال ؟!

لم يأبه لكلماتى وكأنه لم يسمعنى ، وقف صامتاً بعد أن فك السير الجلدى الذى يربطه بالمقعد ، اتجه إلى النافذة ، فتح الزجاج بهدوء ، نظر منها وكأنه يراقب شيئاً ما ثم قال عدة كلمات للضابط ، اقترب الضابط من النافذة ليرى ما يحدثه عنه ، وفجأة وفى سرعة مذهلة ، وجدته يمسك بالضابط مسكة فنية اختل لها توازنه ، وفى اللحظة التالية كان الضابط الشاب يطير فى الهواء خارج النافذة وقد تلاشت صرخاته فى ضجيج عجلات القطار . أغلق الجنرال زجاج النافذة بهدوء ثم أشعل النار فى الورقة وشريط التسجيل وشريط الفيديو ، شعرت بعقلى يتوقف

عن التفكير ، فقد حدث كل شيء أمامى بنعومة وسرعة وكأنى أشاهد فيلماً . التفت لنا بهدوء وقال : لم أكن أمثل عليكما ، كنت صادقاً ، سيهدىء القطار من سرعته بعد ربع ساعة ، سنقفز من هذه النافذة ، ليس إلى الدار الآخرة ولكن للمضى فى مهمتنا من أجل إعادة الحرية إلى الاتحاد السوفيتى ، أما الآن . . فغن لنا يا توحة ، غنى لنا موالاً جميلاً أيتها الطائر المغرد .

يا إلهى ، هذا الرجل أزهق روحاً بشرية من لحظات ، وهو الآن يريد أن يستمتع بالغناء والطرب . غنت فتحية ، وكان هو يطبل لها على مائدة خشبية صغيرة ، غنت فى شجن وعذوبة ، غنت موال : يا عمال العالم اتحدوا عشان نضحك عليكم بسهولة . .

بالطبع صوتها كان يصل إلى كل ركاب القطار ، على الأرجح تصوروا أنها تصرخ من التعذيب . عندما هدأ القطار من سرعته قفز ثلاثتنا من النافذة .

سأمتنع عن ذكر أية تفاصيل منذ تلك اللحظة التى قفزنا فيها من القطار بينما هو يهدىء من سرعته عند مكان قريب من موسكو ، فقد اشترك فى تأمين رحلتنا إلى مقر اعتقال الرئيس جورباتشوف عشرات الأشخاص سيتعرضون للخطر إذا ذكرت أسماءهم أو ذكرت ما فعلوه . ما زال أعوان الانقلاب هناك يعيشون فى أماكن كثيرة وسينتهزون أى فرصة لضرب أعوان جورباتشوف .

فى مكان بالقرب من البحر الأسود ، قادنا إيفان إلى الضاحية التى اعتقل فيها جورباتشوف وزوجته ومجموعة من حرسه الخاص ، كنت وفتحية نرتدى ملابس الأطباء . . وكان إيفان بملابسه العسكرية يقود سيارة الإسعاف التى أقلتنا إلى هناك . توقفنا أمام « الداتشا » التى سجن فيها جورباتشوف ، و « الداتشا » هى البيت الريفى باللغة الروسية ، كل مسئول هناك له « داتشا » خاصة به تتوقف درجة فخامتها على منصبه ومكانته فى السلك السياسى وفى الحزب .

توقفت سيارتنا أمام البوابة الخارجية ، على الفور ظهر عدة ضباط قال لهم إيفان عدة كلمات بصوت خافت فسمحوا لنا بالمرور على الفور بدون مناقشة ، توقفنا بالسيارة عند الجراج ثم أخذنا طريقنا سيراً على الأقدام عبر ممر طويل تظلله الأشجار الكثيفة .

سألت إيفان : ماذا قلت لهم ؟

أجاب فى بساطة : قلت لهم ، لقد جئنا لقتل الرفيق جورباتشوف وزوجته بالسم ، وأن الأوامر قد صدرت لى بذلك شفاهة من الرفيق يناييف .

أصابتنى رعشة ، واصل كلامه : لو قلت لهم إننا جئنا لعلاج زوجته رئيسة أو علاجه فمن المؤكد أنهم لم يكونوا ليسمحوا لنا بالدخول إلا بعد الاتصال بموسكو حتى لو كانت معنا وثائق صحيحة تثبت ذلك بالفعل، إن الأشرار فى هذا العالم لن يعترضوا طريقك عندما تقول لهم إنك ماض فى سبيلك لارتكاب جريمة ، هذه أمور عادية فى مجال

عملنا، من الطبيعى أن تدعو زميلاً لك إلى العشاء فيقول لك معتذراً . . معلهش ... أجلها لبكرة . . أصل أنا رايح أموِّت واحد . . وبكرة حامَوِّت اتنين . . خليها ليوم السبت .

ومن الممكن أن تدخل على زميل لك فى المكتب فتجده غاضباً . . لماذا ؟ . . لقد أثبتوا اسمه فى كشف الحوافز على أنه قتل خمسة أشخاص بينما يزعم هو أنه قتل سبعة . . عند ذلك يحتج آخر صائحاً لا . . السابع أنا اللى قتلته . . لذلك سمح لنا الجميع بالمرور بسهولة كما رأيت .

وصلنا إلى الباب ، فتح لنا شاب ، اتضح فيما بعد أنه زوج ابنة جورباتشوف ، قال له إيفان : أنا الجنرال إيفان إيفانوفتش من الـ «ك . ج . ب .» ومن رجال الرئيس ، ومعى مصرى ومصرية ، نريد مقابلة الرئيس فى أمر هام . .

دخلنا ، قام رجال الحرس الخاص بتفتيشنا بدقة ، كنا قد تركنا ما معنا من أسلحة وأجهزة فى سيارة الاسعاف ، خرج لنا الرئيس جورباتشوف ، كان مرتدياً بنطلوناً وقميصاً فوقه بلوفر رمادى ، قدم إيفان نفسه وهو يؤدى التحية العسكرية ، ثم أخذ يترجم ما نقوله إلى الروسية ، قالت فتحية : سيدى الرئيس ، نحن من مصر ، جئنا نقف بجانبك ومعنا هدية صغيرة أرسلها أصدقاء لك .

مدت يدها بجهاز راديو صغير ، أمسكه جورباتشوف بلهفة وأعطاه

لزوج ابنته ، واصلت فتحية : إذا هزمت فى معركتك يا سيدى ، فستمر على الأرض مئات الأعوام من الحماقة والغباء والديكتاتورية إلى أن يظهر على مسرح السياسة شخص آخر يؤمن بما تؤمن به وله نفس ضميرك . . لذلك جئت أنا وصديقى لنقف مع آلاف البشر من ذوى الضمائر الحية لإنقاذك .

رد جورباتشوف بصوت خافت : لقد تركت للدنيا كتاباً هو «البيروسترويكا» ولكن أحداً لم يعطنى الفرصة لكى أحول حروفه إلى أفعال . . خاننى هؤلاء الذين وثقت بهم . . بدافع من العجز وليس الشر.

قالت فتحية : لا تلتمس لهم الأعذار يا سيدى الرئيس ، هم أشرار بالفعل ، فالعاجز أكثر شراً من الشر نفسه ، لقد عجزوا عن اللحاق بأفكارك النبيلة التى تريد بها اختصار الزمن من أجل حقوق الإنسان .

ابتسم جورباتشوف وقال : سيدتى . . لست أعرف ما سينتهى إليه الموقف ، ولكن لدى رسالة أرجو إبلاغها إلى اليسار فى مصر . . قولى لهم من كان يعبد الماركسية اللينينية فإنها قد ماتت . . ومن كان يعبد العدل ، فهو حى لا يموت . قولى لهم . . لقد عذبتم وسجنتم ليس من أجل الإيمان بنظرية أياً كانت . . ولكن من أجل إيمانكم بالعدل والحق وشرف الإنسان فلا تكفروا بماضيكم ولا تتخلوا .عن صنع الحاضر ولا تقفوا فى وجه المستقبل بعد أن اكتشفتم استحالة تطبيق النظرية بكل

الطرق وفى جميع الأحوال . إن ملكية الدولة لوسائل الإنتاج ليست فى حقيقتها سوى ملكية مجموعة من أوغاد البيروقراطية والقراصنة لكل مقدرات الوطن . . وإنه إذا كانت هناك وظيفة للدولة على الأرض فهى إقامة العدل والمساواة بين البشر ، والدولة لا يجب أن تملك سوى العدل وأدواته بذلك فقط يحصل الإنسان ، أى إنسان وكل إنسان على حقه فى حياة معقولة تليق بإنسانيته .

قالت فتحية : سأفعل يا سيدى الرئيس . وهناك أمر آخر ، سأقابل الليلة الوغد المدعو « جينادى ينابيف » فهو صديق لواحدة من صديقاتى ، هل تريد أن توصل له رسالة ؟

قال جورباتشوف : نعم ، قولى له ، الرجل الذى يبدأ مستقبله السياسى بخيانة الرجل الذى اختاره ووضعه فى منصبه ، يجلب على نفسه احتقار الشعب السوفيتى ، احتقار العالم كله ، بل واحتقار زملائه الذين شاركوه فى فعلته الحمقاء ، قولى له أيضاً . . إننى أشعر بألم كبير ، ليس لما فعله ، ولكن لما فعلته أنا عندما عيّنت شخصاً غبياً عاجزاً ، أحمق فى منصب رفيع .

تناولنا عشاء خفيفاً . لم تشاركنا فيه زوجته « رئيسة » فقد كانت معتكفة فى غرفتها ، ودعناه على أمل فى لقاء قريب ، عندما وصلنا إلى البوابة الخارجية قال إيفان لرئيس الحرس : لقد أعطيناه سماً بطيئاً وضعناه له فى الشوربة . . سيظهر تأثيره بعد ثلاثة أيام . . لا تسمح لأى مخلوق

بالدخول لأى سبب وإلا جئت بنفسى وأفرغت مسدسى فى رأسك .

كان إيفان يخشى أن يرسلوا بمن يقتل جورباتشوف فعلاً .

وصلنا إلى موسكو فى نفس الليلة ، كان معنا عنوان الشقة المفروشة التى تسكنها زيزى والتى اختارها لها جينادى يناييف ليتقابلا فيها بعيداً عن العيون . ذهبنا إلى هناك ، تركنا فتحية تصعد بمفردها إلى الشقة وبقيت أنا وإيفان فى السيارة بعد أن أوقفناها فى مكان قريب . كان إيفان قد أعطاها جهاز لاسلكى صغيراً مركباً فى بروش على ياقة فستانها ، كان يرسل على راديو السيارة ، وبذلك استطعنا أن نسمع كل ما يدور بينها وبين زيزى وجينادى يناييف .

صوت جرس ، ثم صوت باب يفتح ، ثم صوت زيزى وهى تصرخ فى دهشة : مش معقول . . مين ؟ فتحية ؟

ـ أيوة يا حبيبتى . . أصل كان عندى فرح هنا فقلت أعدى عليك . . ازيك وازى جنيدى . .

صوت رجل يسعل ويتكلم بلهجة مخمورة . كان جنيادى يناييف .

● ● ●

استطاعت زيزى السيطرة على أعصابها بسرعة ودعت فتحية للدخول وهى ترحب بها بشدة ، بينما قلبها يدق بعنف من هذه المفاجأة غير المتوقعة . بدأ يلمع فى عقلها خاطر مزعج ، لا يمكن أن تكون الصدفة

وحدها هى المسئولة عن وجود فتحية فى موسكو . هل جاءت لإحباط الانقلاب ؟ ومع ذلك تماسكت ، استدعت كل قدراتها التمثيلية لكى لا يبدو على وجهها شىء مما تفكر فيه .

ـ أهلاً أهلاً يا حبيبتى . . نورت موسكو .

ـ موسكو منورة بأهلها . . ازيك . . وعامله إيه ؟

ـ الحمد لله . . ماشى الحال . . وعرفت العنوان ازاى ؟

ردت فتحية بخبث وهى تضحك ضحكة مجلجلة : اللى يسأل مايتوهش .

واصلنا الاستماع لما يدور بين زيزى وفتحية .

فتحية : شقتك حلوة . . تمليك والّلا إيجار ؟

زيزى : مأجراها مفروشة . . أرخص من الأوتيل . . أصل أنا عندى هنا شغل فى محل اتفتح جديد .

فتحية : شغل إيه . . ؟

زيزى « حايكون شغل إيه يا توحة . . بارقص طبعاً ، أصل الجماعة الخواجات بتوع أوربا اللى بييجوا موسكو عاوزين محل كويس يسهروا ويفرفشوا فيه . . فأنا صممت رقصة جديدة حاتعجبك قوى . . سميتها رقصة «البيروسترويكا» بالعربى رقصة المصارحة . . كلها حركات صريحة . . مفيش أحسن من الصراحة فى الرقص والسياسة .

فى تلك اللحظة استمعت فتحية لصوت رجل يسعل بشدة فى الغرفة المجاورة .

فتحية : يا نهار أبيض يا زيزى . . أنت عندك حد ؟

هنا بدأت زيزى تتلعثم وتفقد تماسكها .

زيزى : لا . . لأ . . ده . . ده . . ده . . ده . .

فتحية : أنت اتجوزت يابت ؟! معقولة تتجوزى وماتعزمنيش ؟

زيزى : ده مش جوزى . . ده ابن خالتى .

فى تلك اللحظة استمعنا بوضوح لصوت جينادى يتكلم فى التليفون ساخطاً ، ابتسم الجنرال إيفان وهو يترجم لى ما يقوله ، كان يخاطب بعض معاونيه غاضباً : لدى الآن سيدة غريبة لا أعرف من هى . . كيف عرفت مكانى ؟ . . آه يا أوغاد . . يا مهملون . . لا أستطيع الانعزال فى مكان هادىء أخطط فيه لمستقبل الاتحاد السوفيتى ؟ . . هل تتصورون أننى ألعب هنا ؟

بدأت أشعر بالخطر على فتحية ، من المؤكد أنه سيستدعى رجاله الآن للقبض عليها ، عندما صارحت الجنرال بمخاوفى قال لى : لن يجرؤ على استدعائهم ، فهم لا يعرفون عنوان الشقة وهو لن يخبرهم بمكانها فى التليفون خشية أن تلتقط مخابرات الغرب المكالمة وترصد مكانه ، لذلك سيكتفى بأن يشتمهم .

فتحية : بتقولى ابن خالتك يا زيزى . . أنت ليك خالة روسى .

زيزى : الكدب خيبة . . بصراحة مش ابن خالتى ، بس أنا باعامله زى ما يكون ابن خالتى . . ده يا ستى الراجل صاحب المحل اللى بارقص فيه . . راجل عجوز قوى . . بيعاملنى زي بنته .

فتحية : طب مش تشوفيه ماله يا حبيبتى . . ده بيكح كحة تقطع القلب .

قالت جملتها وقبل أن تنتبه زيزى لما ستفعله ، فتحت فجأة باب الغرفة التى يجلس فيها جينادى ، استولى عليه الفزع وهو يرى امرأة تقتحم عليه الغرفة ، تصور تحت تأثير الشرب والمفاجأة أنها جاءت لتقتله .

التفتت فتحية لزيزى وقالت : مش عجوز ولا حاجة يا حبيبتى . . ده جنيدى حبيب القلب بتاع زمان . . ثم التفتت إليه وهى تقول برقة بالعامية المصرية : أهلاً يا جنيدى . . بقى يا راجل يا أهبل فيه حد يعمل عملتك ؟ بقى ده جزاء الراجل الطيب جورباتشوف اللى عينك وعمل لك قيمة ؟ . . كل ده عشان الست دى ضحكت عليك وخلتك تخونه ؟ حاتشوف حايحصل لك إيه ؟

من خلال راديو السيارة استمعنا إلى جينادى وهو يسأل زيزى بالروسية : ماذا تقول هذه السيدة ؟ على الفور أجابت زيزى : تحييك على ما فعلته وتتمنى لك النجاح فى القضاء على جورباتشوف

وإعادة الاستبداد ، وتقول إنها جاءت من مصر لكى تحييك وتساعدك .

بعد ذلك قالت زيزى بصوت خافت بالعامية المصرية : فتحية ، اتفضلى من غير مطرود . . مش عاوزة أشوف وشك فى أى جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتى . . لو شفتك تانى . . حابعتك سيبيريا . .

بسرعة البرق ردت عليها فتحية بلكمة هائلة ألقتها على الأرض ، حاول جينادى التدخل فعالجته بشلوت إمبريالى جعله يطير فى الهواء مصطدماً بالنجفة ، بعد ذلك انهالت على الاثنين ضرباً ثم خرجت مسرعة من الشقة .

فيما بعد ، وبعد أن فشل الانقلاب قال المراسلون الأجانب ان جينادى كان فاقداً لوعيه ، الواقع أن فقدانه لوعيه كان من تأثير العلقة التى أخذها من فتحية .

خرجت فتحية من العمارة مسرعة ، التقطناها بالسيارة ، وانطلقنا مسرعين إلى مبنى البرلمان فى الميدان الأحمر حيث تجمع مئات الآلاف من البشر لحماية المبنى فى مواجهة المدرعات ، وهناك شاهدنا الزعيم «يالتسين» يخطب فوق إحدى الدبابات . عندما رأته فتحية انفجرت فى البكاء .

لقد استيقظ الماضى فى أعماقها دفعة واحدة .

• • •

الناس عادة لا تلقى بالاً لما فى أيديها من نعم إلا عندما تتهدد بفقدها. إن فترة حكم جورباتشوف سببت للناس متاعب كثيرة ، وجعلت حياتهم اليومية أكثر صعوبة ، ولكنها أعطتهم شيئاً واحداً : الأمل فى حياة أفضل .

ولكن الأمل فى حد ذاته ليس كافياً للبشر ، ليس بديلاً بحال من الأحوال عن الخبز واللحم والدفء . لذلك تصاعدت نغمات الاستياء من جورباتشوف ومن حكمه . ولكن عندما حدث الانقلاب تنبه الناس إلى أنهم على وشك أن يفقدوا إلى الأبد أجمل ما فى الوجود : الأمل.

لذلك سارعوا بتلقائية إلى مبنى البرلمان رمز الحرية والشرعية وسيادة القانون . لحسن الحظ لم يكن من بين أعضاء البرلمان تجار مخدرات أو حتى تجار « فودكا » فلو كان الأمر كذلك لما تجمع الناس حوله ولتمكنت الدبابات بل حتى البسكليتات من سحقهم . وهذا يفتح أعيننا على أهم الدروس المستفادة مما حدث ، لا بد للشعوب من مبنى يتجمعون حوله عندما يتهددهم الخطر . وهذا المبنى لا بد أن يكون غاية فى النقاء والنزاهة العقلية والخلقية لكى يدافع عنه الناس بأرواحهم حتى لو هاجمتهم العفاريت .

وقفنا بين مئات الآلاف من أهل موسكو فى الميدان الكبير ، وبدأت أفكر مسحوراً فيما يحدث أمامى ، هؤلاء البشر الغاضبون الجائعون

التعساء ، لماذا لم يشعلوا الحرائق ؟ لماذا لم يفتكوا ببعضهم البعض ؟ لماذا لم يفقدوا عقولهم ؟

الإجابة : هؤلاء البشر يعرفون جيداً ماذا يريدون . وهم على وعى بأن العالم كله يتابعهم ويرقب سلوكهم وينتظر منهم سلوكاً متحضراً إذا كانوا حقاً يريدون الحرية . لذلك سلك الجميع سلوكاً راقياً ، أرقى بكثير من سلوك قادة الانقلاب الحمقى الذين أرسلوا الدبابات إلى الشوارع وكأن موسكو هى أفغانستان ، أو لعل كمية الشراب التى احتساها « جينادى ينايف » صورت له أن موسكو هى بودابست منذ خمسة وثلاثين عاماً ، أو تشيكو سلوفاكيا منذ ثلاثة وعشرين عاماً .

من بين الحاضرين تبينت وجوهاً أعرفها ، تشيكوف ، ديستوفسكى ، ليو تولستوى ، باسترناك . رأيت أيضاً آلاف الوجوه التى لا أعرفها ، هى وجوه هؤلاء الذين قالوا لا ... وماتوا ثمناً لقولها فى ثلوج سيبريا .

الأدب الروسى العظيم هو الصانع الحقيقى لما يحدث فى روسيا الآن ، هو الذى شكل وجدان جورباتشوف وجعله يتمسك بالعدل وحقوق الإنسان . هذه الأرواح النبيلة التى تتجمع الآن فى الميدان فى مواجهة الموت هى النتاج الحتمى للأدب الروسى .

من مكانى رأيت الدبابات تتحرك ، تصدى لها البشر بأجسامهم ، مات ثلاثة فتوقفت المدرعات على الفور وفشل الانقلاب ، فلا شىء على وجه الأرض قادر على الصمود أمام البشر عندما يريدون الحرية أو

الموت . كما أنه لا شيء قادر على دفع البشر للتمسك بشرفهم وحريتهم سوى الأقلام المبدعة والفن العظيم . إننى قد أتصور التاريخ بدون ديجول وتشرشل ، ولكن هل يستطيع أحد أن يتصور الحياة بدون ديستوفسكى .

اعتلى يالتسين « إحدى الدبابات وبدأ يخطب فى البشر المحتشدين ، أجهشت فتحية بالبكاء ، وفجأة صاحت بصوت هز الميدان هزاً ، لم يصدق أحد أن هذا صوت بشرى ، وكأنها كانت تصيح فى مكبر صوت له قوة مائة ألف وات لدرجة أنه يقال إن الجمهوريات الأخرى سمعت صوتها وهى تصيح : يالتسين يا حبيبى . . ها أنت تحقق وعدك لى وتعيد الحب والحرية إلى روسيا .

لكى أعطيك فكرة عن قوة صوت فتحية ، أقول لك إنها عندما كانت تغنى بدون ميكرفون فى أسوان ، كانت الناس تسمعها بوضوح فى أسيوط . أما ما يتردد عن أنها غنت ذات يوم فى الإسكندرية واستمع الناس لصوتها فى قبرص ، فقول فيه بعض المبالغة .

عندما استمع يالتسين إلى صيحتها ، حدق فى الحشود باحثاً عن مكانها وعندما وقعت عيناه عليها قفز من فوق الدبابة وأخذ يجرى شاقاً طريقة إليها وسط الحشود وهو يصيح فى لوعة وألم : توحاااه . . توحا . . . .

هى أيضاً أخذت تجرى صائحة : حبيبى يالتسين .

استخدمت فتحية ذراعيها القويتين فى شق طريق لها بين البشر ، سقط الآلاف على الأرض ، أصيب المئات بكسور وكدمات وجروح ولكن الجميع كانوا سعداء فقد شعروا على نحو غامض بأن ما يحدث أمامهم هو شىء جميل . تعانقا ، أمسك بها من ذراعها وسارا معاً إلى الدبابة ، قفزت فتحية فوقها برشاقة الفهد بينما ساعد عشرة رجال يالتسين فى الصعود فوق الدبابة .

قالت فتحية بصوت آسر : أيها السادة . . الحياة قصيرة . . . فلا داعى لتحمل الاستبداد ، لقد كرمنا الله سبحانه وتعالى بأن خلقنا بشراً ، لا داعى لأن نتحول أو يحولنا أحد إلى حشرات .

ومضت فتحية تتكلم فى بلاغة وبساطة ، من الغريب أن وكالات الأنباء تجاهلت خطابها ، كما أن أشرطة الفيديو التى التقطت لها أثناء اللقاء والعناق ، تم تدميرها هى الأخرى فى نفس الليلة وذلك حرصاً من الجميع على شعور وكبرياء السيدة الفاضلة زوجة يالتسين .

حدث كل شىء بعد ذلك بسرعة . عاد جورباتشوف بالطائرة إلى موسكو ، تم القبض على « جينادى ينابيف » ، انتحر ثلاثة من الجنرالات وهم زفت الطينوف ، جزمتوف ، شبشبوف .

المؤلم أنهم انتحروا لسبب ليس له صلة بالانقلاب . لقد هربوا مبالغ كبيرة بالعملة الصعبة إلى خارج الاتحاد السوفيتى ، هربوا مئات الملايين من الدولارات ، لم يودعوها بنوك سويسرا خوفاً من انكشاف أمرهم بل أرسلوها إلى الراقصة زيزى لتحتفظ بها فوضعتها لسوء الحظ عند الريان .

وعندما قرروا الهرب قابلتهم زيزى فى المطار وصارحتهم بالحقيقة المؤلمة أن أموالهم قد ضاعت ، لم يتحملوا الصدمة وانتحروا على الفور ، ترى . . هل سيتصور أحد من المؤرخين أن أموال الطبقة العاملة الروسية ضاعت فى شركات توظيف الأموال فى مصر ؟

من سيصدق أن الريان تسبب فى انتحار ثلاثة من أبطال الحرب العالمية الثانية ؟

فشلنا فى العثور على زيزى ، ولكن الرئيس جورباتشوف وعدنى بأنه سيستبعدها من قائمة الاتهام بعد أن طالب النائب العام بمحاكمتها بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم بالقوة - قوة الرقص الشرقى - التى قدرها الخبراء بأنها تعادل خمسة جيوش مجتمعة .

فى طريقنا إلى القاهرة قلت لفتحية : توحة ... هذه آخر مرة أشترك فيها فى مغامرة سياسية ، لقد أغلقت مكتبى لمدة خمسة أيام ... لن يعترف المؤرخون بما قمنا به ، ولن نحصل على كلمة تقدير من مخلوق ، وأنا بصراحة أكره العمل المجانى . . كما أكره السياسة .

قلت لها ذلك واستغرقت فى النوم .



الـزرار النـــووى

قبل استقالة الرئيس جورباتشوف بيومين ، كنت فى طريقى إلى الإسماعيلية ممنياً النفس بأجازة أجلس فيها باسترخاء بجوار الشاطىء فجأة جاءتنى مكالمة تليفونية على تليفون السيارة ، عرفت صوت المتكلم على الفور ، كان مدير مكتب الرئيس بوش للمهمات الخارجية ، قال لى إن الرئيس بوش يريد الحديث معى لأمر هام . أدركت على الفور أن أحلامى فى يوم إجازة قد تبددت .

ـ أهلاً يا سيادة الرئيس . . أؤمر . .

قال بوش بانفعال : اسمع يا شيخ ، الكرة الأرضية مهددة بالدمار . . هناك ثلاثون ألف رأس ذرية فى الاتحاد السوفيتى قد تنطلق فجأة من عقالها فتحيل كل الحضارة على الأرض إلى طوب وزلط ورماد مشع .

ـ وما الذى يجعلها تنطلق فجأة يا سيادة الرئيس ؟

● إن الشفرة الخاصة بها موجودة فى حقيبة صغيرة ، هذه الحقيبة

توجد مع الرئيس جورباتشوف . . وبها زرار معين اسمه الزرار النووى . . هذا الزرار النووى ـ فى غمرة الفوضى الموجودة الآن فى موسكو ـ معرض لأن يستولى عليه أشخاص مجانين أو لا يتسمون بروح المسئولية . . المطلوب منك الآن أن تتوجه إلى موسكو على الفور وأن تتحفظ على هذه الحقيبة بأى طريقة ومهما كان الثمن . . والطريقة الوحيدة لحمايتها هو إقناع الرئيس جورباتشوف بالاستقالة ، عليك بعد ذلك أن تسلمها بنفسك إلى الرئيس يالتسين .

ـ أخشى أن تكون قد كلمتنى متأخراً يا سيدى الرئيس . . هل تعرف أين أنا فى هذه اللحظة ؟

● نعم القمر الصناعى يرصدك الآن على طريق مصر إسماعيلية الصحراوى ، بعد لحظات ستصل طائرة هليوكوبتر ، سينزل منها سائق مصرى ، سيقود السيارة عائداً بها إلى القاهرة ، وتركب أنت الهليوكوبتر ستنقلك إلى حاملة الطائرات «ساراتوجا» فى شرق البحر الأبيض ومن هناك ستركب طائرة نفاثة تنزل بك فى مطار مهجور بالقرب من موسكو . . هناك ستجد هليوكوبتر أخرى ستقلك فوراً إلى قصر الكرملين .

هذا هو ما حدث بالضبط ، بعد ست ساعات كنت فى مكتب الرئيس جورباتشوف . قابلنى الرجل بترحاب شديد ، وأبدى أسفه لأنه لا يوجد أحد يقدم لى شاياً أو قهوة ، فقد هجر كل العاملين القصر ، كان معه فقط مدير مكتبه وسكرتيره الخاص ، لاحظت أن حقيبة الشفرة الذرية مقيدة إلى ذراعه بقيد من الصلب اللامع .

قلت له : لا وقت لدينا نضيّعه يا سيدى ، لابد من تسليم هذه الحقيبة فوراً للأخ «يالتسين» .

(تلاحظ أننى عندما أتكلم مع جورباتشوف عن يالتسين فإننى أدعوه الأخ يالتسين أو السيد بالتسين ، فكلمة الرئيس يالتسين تشعره بالألم) لأن الأخ يالتسين هو الوحيد الآن فى الاتحاد السوفيتى الذى يمكن ائتمانه على هذه الحقيبة .

رد الرئيس جورباتشوف بصوت ينضح بالألم : أنت تتكلم كما لو كان دورى قد انتهى تماماً . . وأن استقالتى أصبحت أمراً مفروغاً منه .

قلت له بحرارة : سيدى الرئيس ، أنت تترك قصر الكرملين الآن لتسكن قلوب البشر . . أنت تتخلى عن رئاستك للاتحاد السوفيتى لتصبح رئيساً لكل الحالمين بالعدل والحرية . . أنت تترك منصباً رفيعاً لتحتل منصباً أكثر رفعة ، أنت الوحيد فوق ظهر الأرض الذى يمكن وصفه بأنه أكثر الرجال شرفاً وصدقاً مع النفس .

صمت لحظات ثم سألنى : كيف حال نجيب محفوظ ؟

ـ بخير يا سيدى الرئيس . . وهو يهديك تحياته .

مرة أخرى غرق فى الصمت ثم قال لى : حسناً . . سأقدم استقالتى . . وسأسلم الحقيبة الذرية فوراً للأخ يالتسين . . ولكنى لن أسلمه الزرار النووى . . فالظروف حتى الآن غير مأمونة ، سأعطيك الزرار

النووى . . احفظه فى مكان أمين فى القاهرة إلى أن تستقر الظروف . .

ـ فى القاهرة يا سيدى . . ؟! هل تريدنى أن أحتفظ معى فى القاهرة بهذا الزرار النووى .

● لا يوجد خطر إلا فى حالة واحدة . . أن يتعرض لصدمة شديدة . . أو لدرجة حرارة مرتفعة . . ضعه فى الثلاجة .

ـ لنفرض أننى فقدته . .

● لن تفقده . . الترزى الخاص بى سيخيطه لك فى الجاكتة . . سيخلع زراراً ويضعه مكانه . .

ـ لنفرض أننى فقدت الجاكتة نفسها . . لنفرض أنه قد حدث لى أنا شخصياً حادث . . لنفرض أن أحداً اقترب من الزرار بسيجارة مشتعلة . . لنفرض أننى اقتربت من أى شىء ساخن . . كوب شاى مثلاً . . لنفرض أننى قد اصطدمت بشىء .

رد علىّ بهدوء : إحرص على ألا يحدث لك شىء من ذلك . . أما إذا حدث لك ما يعرض هذا الزرار للخطر فقل على الأرض السلام .

فكرت بسرعة ثم قررت أن أتحمل المسئولية ، كنت أخشى أن يرفض الاستقالة وتتعقد الأمور إذا لم أوافق على فكرته ، دخل الترزى ، كانت آخر مهمة له فى الكرملين ، هى أن يخلع زراراً من جاكتتى ويركب بدلاً

منه الزرار النووى . . بعد تركيب الزورار شعر جورباتشوف بالارتياح وقال لسكرتيره الخاص هامساً : الشنطة فى طنطا .

كانت هذه كلمة السر التى تعنى أن كل الأسلحة النووية فى الاتحاد السوفيتى قد تم تأمينها وأنه لا خطر منها البتة . لا أريد أن أصف لك انفعالاتى وأنا فى طريقى إلى القاهرة .

عندما وصلت إلى البيت كنت فى غاية الإجهاد . خلعت البدلة بحرص ووضعتها على الشماعة بجوارى ثم ارتديت بيجامتى . . فى الصباح سأخلع هذا الزرار بحرص ثم أضعه فى فريزر الثلاجة . . ثم أغلقها بالمفتاح إلى أن أسلمه للرئيس يالتسين بعد استقرار الأوضاع . . فى لحظات كنت قد استغرقت فى نوم عميق . .

فى الصباح فتحت عينى ونظرت إلى الشماعة ، لم أجد البدلة . . صرخت فى فزع : يا هند . . هند .

جاءت هند سكرتيرتى الخاصة على الفور . . صحت بها وأنا أرتجف : البدلة اللى كانت هنا راحت فين ؟

أجابت : عند المكوجى . .

صرخت : يانهار أسود . .

فى تلك اللحظة ارتسمت فى عقلى صورة المكوجى وهو يرفع المكواة الساخنة إلى أعلى ثم يهوى بها بقوة على الزرار .

عند ذلك تنفتح أبواب الجحيم على الأرض .

بملابسى الداخلية ، جريت كالمجنون فى الشارع فى اتجاه المكوجى .

يقع دكان المكوجى على بعد عدة شوارع من الفيللا التى أسكنها فى منطقة الهرم ، انطلقت أجرى بسرعة خرافية ، يبدو أن الإحساس بالرعب يمد الإنسان بطاقة هائلة ، كنت أكاد أطير فوق الأرض ، وكانت هند تجرى خلفى حافية القدمين مرتدية ملابسها المنزلية . . وفجأة صاح أحد الأشخاص : حرامى !

عند ذلك بدأ كل سكان الشارع يطلقون نفس الصرخة : حرامى . . !

حاول بعضهم اعتراض طريقى ولكنى نجحت فى الإفلات بعد أن وجهت عدة لكمات سريعة لكل من حاول الاقتراب منى ، ولكن واحداً منهم فى طول النخلة مد ساقه أمامى بطريقة محترفة فاصطدمت بها ووقعت على الأرض . ويبدو أن الوقعة كانت شديدة لدرجة أننى عجزت عن النهوض بسهولة .

فى تلك اللحظة فقط بدأت أشعر بخطورة زيادة النسل فى مصر ، فقد فوجئت بسكان شارعنا كلهم يتجمعون ، عشرة آلاف شخص على الأقل بالإضافة لخمسة آلاف طفل ، كل منهم يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يشق طريقه لكى يصل إلى ويصوب لى لكمة أو صفعة أو رفسة من قدمه . . صحت بهم فى حسم : أنا مش حرامى يا حضرات . .

ساد الصمت لحظة وتساءل أحدهم بشكل هجومى : لا يا شيخ . . أمال بتجرى ليه . . ؟

ـ لأنى مستعجل . .

● رايح فين ؟

ـ رايح للمكوجى . .

● ومش لابس هدومك ليه ؟

رددت عليه وقد بدأت أدرك أبعاد المصيبة التى بدأت تلتف حولى : مكانش عندى وقت ألبسها .

فعلقت سيدة من الصفوف الخلفية : ده حرامى دمه خفيف قوى . . موتوه عشان نخلص البلد من أمثاله .

بدأ أوركسترا الضرب يعزف مرة أخرى بكل طاقته . بدأت الدنيا تسود فى عينى ، تحوَّل الجميع إلى أشباح بلا ملامح ، ولكن قبل أن أستسلم للإغماء سمعت موتور سيارة وصوت « سرينة » . من حسن حظى ولأن العمر لايزال به بقية ، اتضح أنها سيارة دورية الشرطة ، عندما أفقت وجدت نفسى فى قسم شرطة الهرم . كنت ملفوفاً فى بطانية بعد أن اختفت ملابسى الداخلية .

تلفت حولى ، لم تكن هند موجودة ، وكان ضابط القسم شاباً برتبة نقيب . بالقرب منى وقف مخبران ، سألنى الضابط : فقت ؟

ـ أيوه . .

● معاك بطاقة ؟

ـ فى البيت . .

● بتشتغل إيه ؟

ـ صاحب مكتب تحريات خاصة .

● يعنى إيه ؟

ـ يعنى مباحث قطاع خاص .

ضحك الضابط باستمتاع بينما نظر إلىَّ المخبران فى غضب وصاح أحدهما : رد على سعادة البيه كويس يا مجرم يا ابن المجرم .

أنقذنى الضابط من المخبر بقوله : سيبه يا عبد الشافى ، باين عليه حالة .

كنت هادئاً أثناء الحوار وحريصاً على ألا يتوقف ، فهناك قاعدة هامة فى الخدمة السرية عند التعرض لاحتمالات الضرب ، واصل الكلام مع المحقق ولاتتوقف لأن فترات التوقف أثناء الحوار هى التى ستتعرض فيها للضرب .

قال الضابط : يعنى حضرتك مكتب مباحث قطاع خاص ؟

ـ أيوه . . ومعايا تصريح من وزارة الداخلية ، وهو أول تصريح من

نوعه وأول مكتب ينشأ فى مصر . . هل تشاهد الحلقات الأجنبية فى التليفزيون ؟

أخذت أحدثه بهدوء وبشكل جاد عن مكاتب التحريات الخاصة فى أمريكا، بينما عقلى يفكر فى اتجاه آخر ، من المؤكد أن سكرتيرتى هند تتصل الآن ببعض الجهات المسئولة وعلى أن أطيل الحوار مع الضابط إلى أن تأتى مكالمة تليفونية تنقذنى . وفجأة قال لى ما هدم آمالى : ما هى صلتك بالسيدة التى كانت تجرى خلفك ؟

ـ لم تكن هناك سيدة معينة تجرى خلفى ، كل سكان الشارع كانوا يجرون خلفى .

أشار للمخبر : روح هات الست يا عبد الشافى .

يانهار أسود ، لقد قبض على هند هى الأخرى وتضاءلت فرصة إنقاذى .

وجاء المخبر بهند ، كانت فى حالة يرثى لها ولكنها كانت رابطة الجأش، بادرت الضابط قائلة بثقة شديدة : سأجيب على كل أسئلتك بشرط أن أجرى مكالمة تليفونية واحدة . . وللعلم ، أنا ابنة أخت الدكتور وزير الزراعة وعمى هو الدكتور وزير السياحة وزوج خالتى هو السيد وزير الداخلية .

كانت تطلق أكاذيبها الهائلة بثبات يدعو للإعجاب .

رد الضابط : التليفون قدامك . . كلمى اللى أنت عاوزاه . . ولكن قبل ذلك أريد أن أوضح لك أننى لا أصدق حرفاً واحداً مما تقولينه . . ومع ذلك اتفضلى اتكلمى .

طلبت هند رقماً فى التليفون : ألو . . صباح الخير . . أنا هنا . . أنا باتكلم من قسم شرطة الهرم . . الشبح يتعرض لمتاعب .

صمتت لحظات ثم أعطت سماعة التليفون للضابط المندهش الذى قال بارتباك : ألو . . مين ؟ أهلاً يا فندم صباح الخير يا سعادة الباشا . . أؤمر يا فندم . . هم بخير يا فندم . . أنا أنقذتهم بنفسى . . تحت أمرك يا فندم . .

توجهت هند إلى بيتى فى سيارة الشرطة ومعها عبد الشافى المخبر ، جاءتنى بسيارتى وبملابسى وبجهاز اللاسلكى الصغير الخاص بى . . ارتديت ملابسى على عجل وتوجهنا فوراً ومعنا الضابط إلى المكوجى وهناك كانت المفاجأة الحقيقية ، البدلة ليست موجودة عنده . إن الطفل الصغير الذى أخذ البدلة من هند لم يعد يعمل عنده ولكن عند مكوجى آخر يسرق منه الزبائن .

ـ وأين هو هذا المكوجى ؟

● ماعرفش . . لقد حاولت معرفة عنوانه وفشلت فى الغالب ليس له دكان ويعمل من منازلهم .

بدأت أشعر بالدوار ، كيف أعثر على مكوجى لا أحد يعرف عنوانه ،

يا إلهى ، هل قدر للحضارة الإنسانية أن تختفى على يد مكوجى مجهول تعس لا يملك حتى دكانَة ؟

تحركت أجهزة الأمن بسرعة البرق ، أعلنت حالة الطوارىء فى وزارة الإعلام وفى كل مرافق الدولة الحيوية ، تم القبض فى ساعة واحدة على ٢٤٠ مكوجياً فى منطقة الهرم والجيزة ، وتوصلت تحريات المباحث إلى أن الطفل صبى المكوجى اسمه حمادة وأن الأسطى الذى يعمل عنده اسمه رجب .

على الفور أخذت كل محطات الإذاعة وقنوات التليفزيون كل عدة دقائق تذيع الرسالة التالية : «ماتكويش البدلة يا رجب . . البدلة فيها سم قاتل . . إلى المكوجى رجب فى منطقة الجيزة والهرم . . ما تكويش البدلة اللى جابها لك الواد حمادة . . اوعى تلمسها . . البدلة فيها سم قاتل . . اوعى تقرب من الزرار . . الزرار فيه سم قاتل » .

لم تكتف الأجهزة بذلك ، سارت سيارات الشرطة فى كل حوارى وأزقة منطقة الهرم تذيع نفس النداء .

من سخرية القدر أن اتضح لنا فيما بعد أن الطفل الذى يعمل صبياً عند المكوجى اسمه عطية وليس حمادة . وأن المكوجى اسمه سعيد وأن رجب هو اسم الشهرة .

أعلنت اسرائيل حالة الطوارىء فقد تصور قادة الجيش هناك أن المقصود من هذه الشفرة هو الإعداد لحرب جديدة أرسلت الخارجية

الأمريكية على الفور خطاباً لوزير الخارجية تطلب تفسيراً لما يحدث . أعلنت أمريكا حالة الطوارىء فى أسطولها فى شرق البحر الأبيض المتوسط وقواعدها فى تركيا ، شعر الرئيس بوش بتقلصات فى معدته وأغمى عليه فى اليابان ، الواقع أن المسئول عن ذلك كان أحد المذيعين المرتبكين فقد أذاع عدة مرات أغنية والله زمان يا سلاحى . . ثم أغنية المصريين أهمّه وتم منعه على آخر لحظة من إذاعة أغنية : ولايهمك يا ريس من الأمريكان يا ريس .

بعد ذلك أصلح المسئولون الموقف بإذاعة أغنية عباس البليدى . . يا خالق الأكوان ثم أغنية السنباطى إله الكون سامحنى أنا حيران ، ثم عدداً كبيراً من التواشيح وأغانى الكحلاوى .

وأخيراً وجدنا المكوجى ، كان دكانه خلف قسم شرطة الهرم مباشرة ، كان الصبى يلعب أمام الدكان فلم يكن الأسطى قد جاء من منزله بعد ، سألته : إنت حمادة ؟

ـ لأ . .

قبل أن نتركه خطر لى أن أسأله : إنت أخذت بدلة الصبح من الفيللا الفلانية ؟

فرد على : نعم .

صرخت فيه : هية : فين ؟

أشار لى على مكانها فوق الرف فصرخت فرحاً : بدلتى !

أمسكت البدلة بحرص وتأكدت من وجود الزرار النووى فى مكانه قال لى مسئول كبير فى وزارة الداخلية : الزرار النووى ده ، ما يباتش فى مصر الليلة دى . . عندى أوامر أشحنك على أول طائرة لموسكو . .

وهذا ما حدث بالفعل ، وفى موسكو قابلت الزعيم «يالتسين» سلمته الزرار النووى بمحضر تسليم وتسلّم شهد عليه مندوب من سفارتنا هناك ، وأخذت منه صورة إلى القيادة السياسية فى مصر .

وعدت إلى مصر وأنا لا أصدق كل ما حدث .


OIL



حرامى البترول

ضم الاجتماع أربعة أشخاص من رجال أمن الدولة ، وثلاثة من المباحث العامة ، وخمسة من الرقابة الإدارية ، وشخصين من جهاز أمنى حساس ، وثلاثة أشخاص من جهاز أمنى شديد الحساسية ، وأربعة من جهاز أمنى حساس للغاية ، بالإضافة لعدة أشخاص كانوا يحتلون مناصب هامة وهم الآن على المعاش .

عقد الاجتماع فى فيللا أنيقة تقع على مشارف قرية الحرانية فى الجيزة ، اتخذت كل الإجراءات لتأمين الوصول إلى الفيللا ولتأمين الاجتماع . . هناك عدة مطاعم متفرقة فى المنطقة ، كل مسئول اصطحب أسرته لتناول العشاء كل فى مطعم ، بحيث لا يجتمع مسئولان فى مطعم واحد . وفى لحظة معينة يستأذن المسئول من أسرته لدخول التواليت ، بعد ذلك يخرج من المطعم من باب سرى إلى سرداب طويل يوصل إلى الفيللا ، الوحيد الذى وصل إلى الفيللا بسيارته هو شخصى الضعيف فوجهى غير

معروف لسكان المنطقة بالإضافة لقدرتى على تضليل أى شخص يتبعنى والإفلات من الرقابة مهما كانت محكمة .

بعض وجوه الموجودين كانت معروفة لى خصوصاً هؤلاء الذين خرجوا إلى المعاش ، فقد عملنا معاً فى قضايا خطيرة منذ سنوات طويلة . . أغلب الحاضرين كانوا من الأجيال الجديدة التى تعتمد فى العمل الأمنى على التكنولوجيا الحديثة ، بعكس جيلنا الذى كان يعتمد اعتماداً كلياً على العنصر البشرى . من بين الموجودين كان هناك شخص على المعاش الآن سوف أطلق عليه اسم «الداهية» فقد كانت لديه قدرات عقلية خارقة على التنبؤ بردود أفعال البشر . ولقد عملت معه عدة سنوات ، ذات يوم طلب منا تقريراً عن شخص مرشح لمنصب خطير فى وزارة هامة، وكان التقرير ممتازاً ، فالرجل لايشرب ، لايدخن ، يصلى ، يصوم، لا يتردد على المقاهى أو الأندية ، لا أصدقاء له ، لا مهازل خاصة . من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل يتمتع بحب كل العاملين معه .

عندما أعد التقرير كان «الداهية» فى مأمورية خارج القاهرة ، وكانت القيادة السياسية تلح فى كل لحظة فى طلب التقرير ، فالتشكيل الوزارى الجديد على وشك الصدور . أرسلنا التقرير فسعدت به القيادة السياسية وتم تعيين الرجل فى المنصب الخطير . بعد أن عاد «الداهية» من المأمورية ، واطلع على التقرير ، صاح فى وجوهنا ثائراً : يا أغبياء . .

هذا الرجل لا يصلح لأى منصب خطير هو يصلح فقط للمنصب المتواضع الذى يحتله .

دهشنا من ثورته وطلبنا منه أن يوضح لنا وجهة نظره ، فقال لنا : هذا الرجل يخشى الحياة ويكرهها . . عاجز عن الاستمتاع بها . ولذلك هو يكرهها ويكره الآخرين . وسوف ينتهز أول فرصة للانتقام منها ومن الآخرين . . هو شخص لم يتعرض للإغراء وبالتالى سينهار أمام أول إغراء قوى يتعرض له . . هو حارس للمرمى لم يختبر بعد . . المنصب الرفيع فى حاجة لقدر هائل من الصلابة الروحية والنفسية ، تلك الصلابة لن تتوفر للإنسان إلا إذا أخطأ كثيراً وارتكب عدداً كبيراً من الحماقات ثم استطاع أن يتخطى ذلك كله مكوناً شخصية صلبة قادرة على مواجهة الإغراء ، إغراء القوة والمال والنفوذ . لابد أيضاً أن يتضح لنا من سلوكه أنه يحب الحياة ومستمتع بها من خلال متعها البريئة . . التقرير لا يذكر أنه يحب نوعاً من الفن أو الموسيقى أو الكتابة أو الأدب أو حتى الكنافة . هو ليس مغرماً بشىء حتى ولا البسطرمة . . أما حكاية أن كل العاملين معه يحبونه فليس لها سوى معنى واحد ، أنه ليس مبدعاً فى عمله إلى الدرجة التى تجعلهم يكرهونه . . حسناً ياحضرات . . انتظروا الكوارث من هذا الشخص بالذات .

وهذا ما حدث بالفعل ، انحرف هذا الرجل إلى درجة مخيفة واستغرق الأمر عدة سنوات من العمل الشاق للتخلص منه .

أعود للاجتماع .

تولى « الداهية » تقديمى للحاضرين : أقدم لكم الآن واحداً من أهم رجالى عندما كنت أعمل فى الخدمة السرية . هو الآن يدير أول مكتب فى مصر للتحريات الخاصة . . أنا أرحب به بيننا بالرغم من أنى لا أعرف سبب وجوده . . غير أننا سنعرف بالطبع بعد دقائق ، لماذا نحن هنا ولماذا هو معنا الآن ؟

رددت عليه : أنا أيضاً يا سيدى مندهش لهذه الدعوة ، كل ما أعرفه أن صديقاً قديماً اتصل بى تليفونياً وترك لى على السكرتير الآلى رسالة مقتضبة قال فيها بالشفرة : «كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح » .

فذكرتنى تلك الرسالة بالماضى الجميل ، فهذه الشفرة استخدمناها معاً فى عدة عمليات ولا أعتقد أن حضراتكم تعرفونها . عند ذلك رفع أحد الشبان يده وقال : نعرفها يا سيدى ، على الأقل فى جهازنا . . الرسالة تقول : « عد إلى خريطة القاهرة الكبرى وأذهب فى الثامنة مساءً إلى المربع ١٧ يوم الجمعة ١٢ نوفمبر . وتأكد أن أحداً لا يتبعك . اجتماع هام ، استعد لمهمة شاقة وطويلة .

فوجئت بعبقرية ذلك الشاب ، فقد أمضيت ساعتين فى حل تلك الشفرة التى تمكن هو من حلها فى لحظة ، هذا الشاب سأطلق عليه اسم « الصقر » فنظراته نفاذة مثل الصقر .

فى الثانية مساء بالضبط وصل الشخص الذى دعانا للاجتماع ، كان نائب رئيس الوزراء لشئون ما يعرف فى المجتمعات الأمنية باسم «مكتب شئون ج . ت . و . ط . ن . ى . ع . ش . . ما حولهم » ، والاسم المختصر هو مكتب « ما حولهم » والحروف السابقة تشكل الحروف الأول من الكلمات التى تشكل وظيفة المكتب وهى : « نائب رئيس الوزراء لشئون الجرائم التى تؤذى الوطن وتدفع الناس لليأس والتعاسة والشك فى كل ما حولهم » .

بدأ النائب حديثه لنا بصوت هادىء ونبرات أقرب إلى الحزن : أمامى الآن تقرير عما نشرته مجلة «بتروليم إيكونومست» فى هذا التقرير معلومات مفزعة عن مسئول سابق فى قطاع البترول .

فى تلك اللحظة قال «الداهية» : إذا سمحت لى يا سيدى ، آسف للمقاطعة ، تقصد السيد عبد العاطى سراج ؟

رد النائب : نعم . . هو . . اتضح أنه يمتلك جزيرة من جزر البهاما وعدة مئات من ملايين الدولارات فى بنوك العالم ، وعدة مزارع فى أمريكا ، وأملاك فى هولندا وكندا وقصر فى أسبانيا . . والآن أيها السادة . . إننى أطلب منكم تفسيراً لما حدث . . هل هذا الرجل لص فعلاً ؟

عند ذلك قال «الداهية» بسخرية خفيفة : لا يا سيدى هو ليس لصاً . . هو مجرد حرامى .

فقال النائب وهو يحاول قدر استطاعته أن يتمالك أعصابه : لا داعى

للسخرية يا سيدى ، نحن لا نأخذ الناس بالشبهات والأقاويل والشائعات . . لابد من الأدلة الدامغة على أن السرقة هى مصدر هذه الأموال والممتلكات .

صاح «الداهية» بعصبية : بحق السماء ، من أين جاءته هذه الأموال؟ . . هل ادخرها من مرتبه ومن بدل السفر والحوافز وبدل التمثيل ؟ إن مرتبه طول حياته لايكفى لشراء فدان واحد فى جزر البهايم التى تتكلم عنها .

هنا فقد النائب أعصابه وصرخ : لم أقل جزر البهايم يا سيدى . . قلت جزر البهاما . .

وهنا همست فى أذن « الداهية» مهدئاً : أرجوك ، اهدأ يا سيدى . . نحن لم نلم بأطراف الموضوع بعد . . دعه يتكلم . .

تمالك النائب أعصابه وقال فى حزم : حسناً . . هو لص . . أين كنتم أنتم ؟ . . لماذا لم تتكلموا . . ؟ لماذا لم تتابعوه . . ؟ لماذا لم ترسلوا لنا أى تقرير بما يفعله . . أين ملفه ؟

عند ذلك رد عليه «الصقر» بهدوء : ملفه موجود يا سيدى ، وفيه وقائع أكثر بكثير مما نشرته البتروليم إيكونومست .

ـ أين هو ؟

ـ موجود معى الآن ، هو ملف كبير مكون من ثلاثمائة وأربعين

جزءاً ، حوالى عشرة آلاف صفحة ، إذا نظرت من النافذة التى إلى جوارك سترى سيارة «سوزوكى» صغيرة تحمل الملف ، نحن نكتب باستمرار عن جرائم هذا الرجل ، ونحذر منها ، ونرسل لكم التقارير ثم نرسلها مرة أخرى . ثم نرسلها مرة ثالثة ، ثم نرسلها مرة رابعة ، ثم نرسلها للمرة الخمسين ، هو لص منذ اللحظة التى تخرج فيها من الجامعة وكنا نشعر بالتعاسة لسكوتكم عليه . . وأنا أعترف أننى قد سربت عمداً بعض الوقائع لجرائد المعارضة لكى ألفت نظر سيادتكم . . ماذا كنت تريدنا أن نفعل ؟ نحن جهاز تحريات فقط . . اتخاذ القرار ليس مهنتنا .

وهنا تدخل «الداهية» موجهاً حديثه للصقر : تقول يا سيدى إنك كنت تتابعه منذ أن تخرج من الجامعة ، لقد تابعته أنا قبل ذلك بكثير . لقد كان يسرق السندوتشات من الأطفال زملائه فى مدرسة الحضانة ، وفى مرحلة الدراسة الابتدائية كان يسرق الكراريس والأقلام . . وفى المدرسة الثانوية سرق نظارة مدرس الجغرافيا كما سرق « بولوفر» مدرس الحساب . .

قال النائب : نعم . . أذكر أننى قرأت ذلك التقرير لطرافته ، وذلك قبل أن أوقع قراراً بتعيينه ، واعتبرت أن تلك الحوادث الطفولية لعب عيال وطيش شباب وأنه قد نضج الآن .

قال « الصقر » : طبعاً يا سيدى ، لقد نضج الآن بما فيه الكفاية لكى يسرق ما يستحق السرقة ، مئات الملايين .

رد النائب : إننى أدرك مدى غضبكم واستيائكم لما حدث . . حسناًسأصدر قراراً بالتحقيق فى كيفية عدم وصول تقاريركم إلى . . والآن علينا أن نفكر فيما سيحدث وليس فيما حدث . . نحن نريد إعادة هذه الأموال والممتلكات إلى الدولة ، ولكن بعد الحصول على الأدلة التى نستطيع أن نقدمه بموجبها إلى المحاكمة .

وهنا فجر «الصقر» قنبلة مروعة ، قال بهدوء : لا يوجد قانون فى مصر تستطيع به محاكمة هذا الرجل . . دعنا نتكلم فى إعادة هذه الممتلكات والأموال فقط . . أو الجزء الأكبر منها . . وأنبهك إلى أن الأمر يتطلب بعض الألعاب القذرة . . وأعتقد أن الشبح يستطيع أن يفيدنا فيها . . وهنا تكلمت للمرة الأولى فى الاجتماع . .

قلت : سيدى النائب ، لقد تركت العمل الأمنى الحكومى منذ سنوات طويلة . . وأنا أفضل الاستماع أولاً لاقتراحات السادة الموجودين الآن بالخدمة حيث أنهم أكثر قدرة منى على تقدير الموقف واقتراح الحلول .

وهنا تكلم شخص لا أعرفه ، سأسميه الرجل الطيب ، كان فى حوالى الخمسين من عمره تشع ملامح وجهه بالطيبة والصلاح قال :

ـ سيدى النائب ، هل تعتقد أن عقابنا له سيكون أشد من عقاب الله سبحانه وتعالى . . لنفرض أنه أفلت من أيدينا . . هل تعتقد أنه سيفلت من نار جهنم ؟!

فقال الصقر ساخطاً : هل أفهم من كلامهم أن المطلوب منا ألا نفعل شيئاً لاستعادة هذه الأموال منه ، هل نتركه يفلت بغير عقاب ؟!!

رد الرجل الطيب : من قال هذا الكلام . . ؟ من قال إننا سنقف أو نجلس مكتوفى الأيدى . . سندعو عليه . . سنستمطر عليه اللعنات ، أنت لا تعرف تأثير دعوة المظلوم . لقد أنشأت عندى فى الوزارة قسماً جديداً للدعوة واستمطار اللعنات . . هذا القسم فيه مائتا موظف وموظفة ، أنا أعطيهم كل يوم كشفاً بأسماء اللصوص وهم يدعون عليهم . . يارب ، اخرب بيت فلان ابن فلانه . . يارب احرمه من لذة الاستمتاع بما سرق . . إلهى يارب يصيبه داء الطاعون فى كبده . . يارب ما يوعى يربى عياله . . اللهم أشعل النار فى كل ممتلكاته وحساباته فى كل البنوك . . إلهى يارب فلان ابن فلانه يوْلَع فى البترول اللى خده . . هو ومشتقاته . . وأنا أؤكد لك أن هذه الطريقة ناجحة تماماً ، فلدينا تقارير تفيد أن مجموعة كبيرة من اللصوص يعيشون هذه الأيام فى توتر شديد وتحدث لهم مصائب وكوارث كثيرة . .

قال الداهية : هذا إبداع أمنى جديد . . إذا لم ينفعنا فهو لن يضرنا بالتأكيد . . ولكن علينا أن نتحرك على المحاور الأمنية التقليدية . . أولاً: لابد من التعرف على الطريقة التى سرق بها هذا الملايين . . والشبكة التى عاونته فى ذلك . . ثم حصر ممتلكاته وحساباته . . أستطيع أن أؤكد منذ الآن أننا سنكتشف فى النهاية أن كل عملياته كانت شرعية وقانونية تماماً . . سنكتشف أنه أنشأ شركات وهمية باع لها البترول

بالسعر الذى يعجبه ، ثم باعت هذه الشركات البترول بالسعر الذى يعجبها ، وحصل سيادته على الفرق وهو مئات الملايين .

وهنا تدخل اسماعيل الذى يطلق عليه زملاؤه لفظ التدليل سُمعة . . الطريف أنه يعمل بالفعل مسئولاً عن مكتب « سمعة مصر » وهو المكتب المكلف بحماية سمعة مصر فى الداخل والخارج .

قال سمعة : أنا أحذركم . . إذا تسرب هذا الموضوع إلى جرائد المعارضة أو إلى جرائد الأعداء ، فستحدث إساءة بالغة لسمعة مصر . . ماذا سيكون موقفنا إذا عرف العالم أنه كان لدينا فى قطاع البترول مسئول حرامى . . أنا أفضل أن يفلت ألف لص بمليار دولار ولا تحدث إساءة لسمعة مصر . . فسمعة مصر أغلى من ذلك بكثير . .

وهنا تفجرت العاصفة .

فى تلك اللحظة قال الداهية وهو يختار ألفاظه بعناية : أنا أعتقد يا سيدى أن وجود مكتبك نفسه فيه أبلغ الإساءة لسمعة مصر ، فأنت تعامل مصر أنها شابة فى سن الزواج أو شاب مرشح لوظيفة . مصر يا سيدى دولة قديمة وعظمى اكتسبت سمعتها وحصّنتها بالعدل والحق والفن والأخلاق قبل أن تولد أنت بعشرة آلاف سنة ، وما تطالب به الآن من حماية للصوص وقطاع الطرق يدمغنا بالعار فى هذا العصر الذى لم يعد فيه أسرار . . وأذكرك أن البشر فى هذه المنطقة الذين يسميهم العالم

بالمصريين عينونا فى أماكننا لحمايتهم وحماية ثرواتهم وعرقهم من اللصوص بلا اعتبار لأى شىء آخر أو أوهام أخرى .

وهنا صاح «سمعة » وهو يدق بقبضة يده على مائدة الاجتماع الطويلة : أنا لا أسمح بهذا الكلام ، فتاريخى ووطنيتى . .

فقاطعه «الداهية» : لاتصدع رؤوسنا بهذا الكلام ، فالوطنية الحقة فى هذا العصر هى النزاهة العقلية والإدارية ، والقيام بالواجب وتحمل المسئولية . . وواجبك هو الدفاع عن هذا الشعب الذى يدفع لك مرتبك .

وهنا تدخل «الصقر» قائلاً بصوت خافت : يدفع له مرتبه ، ويدفع له ثمن الأرض التى حصل عليها فى الاسماعيلية ويدفع له ثمن الفيللا فى مراقيا ، أما المبلغ الموجود فى بنك (. . . . .) فقد دفعه شعب آخر .

بعد هذه الجملة اصفر وجه «سمعة» وفقدت كلماته ترابطها وقال : لقد . . فهمتنى خطأ يا سيدى . . أنا لم أطلب الامتناع عن مطاردة اللصوص ، لقد طلبت فقط توخى الحذر فى التعامل مع هذه المسألة لكى لا يعرفها الأعداء فيشهروا بنا .

من الغريب أن نائب رئيس الوزراء ظل صامتاً خلال هذا الحوار وكأنه يريد أن يعرف الصورة كاملة . ويبدو أيضاً أن بقية الأعضاء فى الاجتماع حرصوا على التزام الصمت وكأنهم يريدون أن تستمر المبارزة بين

«الداهية» و«سمعة» مستثمرين فرصة أن «الداهية» على المعاش وهذا يعطيه حرية أوسع فى كشف الخفايا .

رد «الداهية» على سمعة قائلاً بحسم : من هم هؤلاء الأعداء يا سيدى الذين تخشى أن يشهروا بنا . . ؟ من هم ؟ . . وكيف سيشهرون بنا . . ؟ هل سيقولون يا أوغاد يا من تطاردون اللصوص . . يا منحطون يا من تطهرون أنفسكم من الحرامية . . هه . . ؟!!

لم يرد عليه «سمعة» . . مرت لحظات قبل أن يوجه حديثه لنائب رئيس الوزراء : سيدى النائب ، لست أريد أن أعطل الاجتماع الهام بالمناقشات الفرعية البعيدة عن الموضوع ، كما أننى أنبّه زميلى أنه ليس من اللائق أن يقحم أموراً شخصية فى العمل العام .

قال النائب متسائلاً بهدوء : ماهى هذه الأمور الشخصية ؟

فقال «سمعة» : هو يكرهنى منذ أن كان فى الخدمة .

وهنا قال الداهية : هذه هى المرة الأولى التى أراك فى حياتى . . أنت كاذب يا سيدى . . وهذا يؤكد وجهة نظرى فى مكتبك وأنه لابد من إلغائه فوراً وتشتيت العاملين فيه .

وهنا انتفض سمعة واقفاً فى حركة مسرحية وصاح : هى مؤامرة إذن لإلغاء الدور الهام الذى نقوم به .

فقال له النائب : إجلس من فضلك ، ودع لنا مهمة تقييم الدور الذى تقوم به . . لاتتسرع وتصفه بأنه هام .

جلس «سمعة» ونظر النائب إلى الموجودين وقال : من فضلكم لاداعى للخروج عن الموضوع .

وهنا قال «الصقر» : إذا سمحت لى يا سيادة النائب . . كل ما قيل داخل فى الموضوع . . الواقع أن الأخ سمعة متورط بشكل أو بآخر فى حكاية بترول الأخ سراج .

انتفض سمعة وصرخ : أنا ؟ أنا ؟ . . أتحدى من يأتى بورقة واحدة . . أو توقيع واحد .

قاطعه «الصقر» : ابن أخت عمة مرات بنت خال عمتك فتح توكيلاً لشركة وهمية فى سويسرا لشراء البترول المصرى ، هذه الشركة أسسها ابن خالة عمة مرات خال أخت مراتك ، الذى هو ابن عم أخت مراة السيد/ سراج . . ولاداعى لأن أحضر لك أوراقاً أو توقيعات من أى نوع . . فعندما يبدأ التحقيق معك . . سوف أقدم للمحقق كل ما لدى من أفلام وتسجيلات وأرقام حساباتك السرية . . ما رأيك ؟ . . هل تعتقد أن تقديمك للمحاكمة يضر بسمعة مصر ؟!

وهنا أغمى على الأستاذ «سمعة» .

لم يهتز واحد من الموجودين عند سقوط «سمعة» مغشياً عليه ، فتجربتهم الطويلة علمتهم أن أسهل حيلة يلجأ لها المسئول الكبير عندما يفاجأ بأن أمره قد انكشف ، هو أن يغمى عليه ، ولن تفلح قوة

على الأرض فى إفاقته وحتى عندما يفيق فسيقول بذهول : أنا مين . . ؟
أنا فين . . ؟ انتم مين ؟!

وبعد ذلك يتضح أنه قد فقد ذاكرته لأنه تعرض لصدمة عصبية شديدة ـ عند الشك فى ذمته ـ أفقدته الذاكرة .

نقل «سمعة» إلى مستشفى خاص قريب تحت حراسة مشددة . زارته زوجته التى تقابلت مع مدير المستشفى والذى صرح بعد المقابلة بأن مقابلة المريض أو الحديث معه فيها خطورة مؤكدة على حياته . لوحظ أن زوجته كانت تحمل حقيبة «سمسونايت» قبل دخولها إلى غرفة مدير المستشفى وخرجت من مكتبه من غيرها .

لست أريد أن أطيل فيما حدث للسيد / سمعة . اتضح أنه لايعرف شيئاً عن أى شىء ولا يذكر شيئاً عن أى شىء وليست له صلة بأى شىء صدرت الأوامر بمنعه من السفر وطلب منه رؤساؤه أن يقدم استقالته فقدمها ، ثم استصدر حكماً من القضاء بتمكينه من السفر ، فسافر ، ويقال إنه يعيش الآن حياة هادئة مع زوجته الجديدة فى مزرعته فى كاليفورنيا ، شاغلاً وقت فراغه بتأليف كتاب عن جهوده فى حماية سمعة مصر .

لم نصل إلى شىء محدد فيما يختص بحرامى البترول . . ووعد كل رؤساء الإدارات بتقديم تقارير مستوفاة بالمزيد من التحريات حول الموضوع . وأنا فى طريقى خارجاً من الفيللا اقترب منى «الرجل الطبيب»

وقال لى : أريد أن أتكلم معك . . لقد لاحظت أنك ابتسمت فى سخرية عندما قلت إننى أنشأت قسماً فى إدارتى للدعوة واستمطار اللعنات على اللصوص .

أجبته : أعترف يا سيدى بأننى مندهش جداً لما تقول ، الأمن علم يا سيدى ، يتعامل مع المعمل والتكنولوجيا والواقع والحقيقة وليس مع الغيبيات .

ظل الرجل على هدوئه وقال لى : هل تسمح بأن نحتسى كوباً من الشاى فى كازينو قريب . . أنا أرى أنك قد تسرعت فى إصدار حكمك علىّ .

فى كازينو قريب قال لى : ابتداء ، أقول لك إننى حاصل على بكالوريوس علوم ، بالإضافة لتجربتى الطويلة ودراساتى فى العلوم الأمنية ، اسمح لى أن أوجه لك سؤالاً واحداً . . هل تعرف أن المخابرات الأمريكية والسوفيتية أيضاً تستعين ببعض الأشخاص ممن لديهم قدرة على الإدراك عن بعد . . إلى درجة أنهم يستعينون بهم الآن لمعرفة أماكن بعض الأسلحة فى بغداد .

أجبته : نعم ، أعرف ذلك .

قال : لابد من الاعتراف بأن بعض الأشخاص لهم قدرات نفسية وروحية خاصة لايمكن تفسيرها ، ولابد من الاعتراف بأن الشر طاقة ، والحب طاقة . . ولذلك فما فعلته داخل تماماً فى نطاق العلم ، عندما

نفشل من خلال ترسانة القوانين والإجراءات فى القبض على لص كبير ، أو عندما نفشل فى تقديم الأدلة الكافية لإدانته ، أو لأسباب أخرى أنت تعرفها ولا داعى للحديث عنها . . ماذا نفعل ؟ أليس من الواجب علمياً وعقلياً وحياتياً أن ننشىء إدارة بها مجموعة من البشر الذين يجيدون الدعاء على الآخرين بإخلاص وحرقة ؟ . . إن رجالى يعملون ثلاث ورديات فى اليوم ، إن الإحساس بالظلم طاقة ، والكراهية طاقة ، والإحساس بالإحباط طاقة ، هذه الطاقات ستنتقل إلى المجرم فى أى مكان وتقضى عليه .

بدأت أفكر فيما يقوله الرجل الطيب ، وأعترف أن منطقه بدأ يتسلل إلى عقلى ، سكت لحظات ثم سألنى فجأة : هل تعترف بوجود الحسد ؟

أجبته على الفور : طبعاً أعترف بوجوده . . وإن كنت لا أملك دليلاً على ذلك .

قال : هو مذكور فى القرآن الكريم . الحسد طاقة شر مدمرة ، والحكايات الشعبية القديمة تتحدث عن أشخاص لهم قدرة مؤكدة على تدمير أى شىء بواسطة الحسد .

أدركت على الفور ما يرمى إليه وسألته : هل تقصد يا سيدى أنك ستنشىء قسماً للحسد الجنائى تعين فيه حساداً وحاقدين ؟؟!

أجاب : لقد أنشأته بالفعل ، وإذا كان وقتك يسمح . . لدى تجربة عملية فى مكان قريب من هنا . . هل تأتى معى ؟ . رحبت بدعوته

وانطلقنا إلى ضاحية هادئة فى منطقة الأهرام . توقفنا بالقرب من بيت كبير أشبه بالقصور تحيط به الأشجار العالية وسور مرتفع يكاد يحجبه عن الناظرين ، قال لى : صاحب هذا القصر لص كبير من لصوص القطاع العام فشل الجميع فى العثور على أدلة كافية لمحاكمته . . لذلك قررت الاستعانة بشخص أكدت تحرياتى أن نظرات عينيه تفلق الحجر . . وسترى بنفسك الآن ما سيحدث . . قد تفشل التجربة ولكنى أؤمن أنها ستنجح يوماً ما . .

بعد لحظات وصل الشخص الحسود مرتدياً نظارة سوداء قاتمة . . طلب منه «الرجل الطيب » أن يتسلق شجرة عالية وأن يحدق فى القصر بكل طاقته وأن يصف لنا ما يراه ، بدأ الرجل يصف القصر ، كان ضوء القمر كافياً لكى أرى ملامح وجهه وهى تقطر حقداً وحسداً وسماً : حمام سباحة حلو قوى . . ياه . . ضخم جداً . . والبيت ده مش بيت ، ده قصر . . ولاقصر هارون الرشيد . . جميل جداً . . فيه ناس عايشين فى الحلاوة دى ؟؟؟

لن يصدق القارىء ما حدث بعد ذلك ، فجأة بدأ زجاج النوافذ يتكسر . . ثم بدأت جدران البيت فى الانهيار وتعالت صرخات الناس من الداخل . .

صاح الرجل الطيب : كفاية . . انزل .

جرينا مسرعين ناحية السيارة ، ركبناها وأسرعنا مبتعدين عن القصر

المنهار ، ازدحمت الأفكار فى رأسى هل يكون ما حدث مجرد صدفة ، أم أن طاقة الحقد والحسد داخل ذلك الرجل قادرتان على إحداث هذا الكم من التدمير ؟!

أوصلانى إلى المنزل ، قال لى الشخص الذى اتضح لى أنه هو نفسه رئيس قسم الحسد الجنائى : أنا سعيد بالتعرف عليك يا سيدى ، ومعجب برشاقتك وأنت تجرى فى اتجاه السيارة . . لابد أنك تمارس الرياضة يومياً .

شكرته على مجاملته ، وأنا نازل من السيارة اختل توازنى فوقعت وكسرت ساقى ، ستة شهور قضيتها وساقى فى الجبس ، عاقبه الرجل الطيب بخصم نصف شهر من مرتبه لأنه امتدح طريقتى فى الجرى دون أن تصدر له الأوامر بذلك وفى غير أوقات العمل الرسمية .



الشيك أبو اتنين مليون دولار

خبر صغير نشرته جريدة الأخبار فى صفحتها الأولى أصاب الجميع بالذهول . تبرعت النرويج لمصر بمبلغ اثنين مليون دولار فى نوفمبر ١٩٩٠ ولكن المسئولين فى وزارة التعاون الدولى لم يكن لديهم أدنى فكرة عن مصير هذا المبلغ !!

وفى اليوم التالى علق الأستاذ مصطفى أمين على هذا الموضوع متسائلاً عن مصير الشيك ، بعد ذلك صرح مصدر مسئول بأن الشيك تم إيداعه بالفعل فى البنك المركزى ، وانتهت القصة عند هذا الحد .

ذكرنى الخبر بتلك المحاولات اليائسة التى بذلها سفير النرويج فى مصر مستر «أبد . أرمسترونج» لإيداع الشيك فى البنك المركزى وإصراره على أن يودعه بالرغم من كل العقبات التى وضعها المسئولون فى طريقه . وعلاقتى بسعادة السفير تعود إلى العام الماضى ، عندما سافرت موفداً من شركة مصايد أعالى البحار للتحقيق فى حادث اختفاء سفينة شحن مصرية كانت تحمل مئات الأطنان من السمك ، إذ اختفت السفينة

والبحارة والقبطان والسمك فى مكان ما بين بحر الشمال وميناء الإسكندرية . ولكن هذه قضية لم يحن الوقت بعد للكشف عن أسرارها .

المهم أننى تعرفت على مستر «آرمسترونج» هناك حيث كان يعمل فى قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية النرويجية قبل تعيينه سفيراً فى مصر بعدة شهور . عندما رأيت الرجل خيل إلى أننى قد شاهدته من قبل . كان من ذلك النوع من البشر الذى تحبه عندما تراه لأول مرة . ولذلك رحبت بدعوته لى إلى منزله ، وعلى مائدة العشاء قال لى فجأة : هل تعلم أننى أنحدر من أصول مصرية . .

ـ بصراحة يا سيدى ، أنت تشبه الفلاحين المصريين تمام الشبه . فهل والدك أو جدك مصرى ؟

عند ذلك بدأ يحكى لى قصته :

تقول سجلات الأسرة إن جدى العاشر جاء من مصر مع جنود السلطان المملوكى «الكامل» الذين أرسلهم لمساعدة «فردريك» ملك بروسيا فى صراعه مع بابا روما فى ذلك الوقت من القرن الحادى عشر ، وانتهت الحرب بهزيمة فردريك فهرب جدى شمالاً وجاء إلى هنا واستقر وكون أسرة .

ـ ماذا كان اسمه ؟

فرد السفير فى صوت كله توسل : هذا ما أريدك أن تساعدنى على

معرفته . . أريدك أن تدرس وثائق وسجلات الأسرة ، وأن تقول لى ماذا تعنى كلمة « ARMSTRONG » باللغة العربية . . ومن أين جاءت كلمة « ABD » التى تحرص أسرتى على أن تطلقها على الطفل الأول من مئات السنين . . من الغريب أن هذا الإسم ، الذى هو اسمى ، ليس معروفاً فى النرويج خارج فروع أسرتى . .

توقف الرجل قليلاً عن الحديث وأنا أتأمل فى ذهول ما يقوله ثم أردف فى رجاء :

- إننى رجل ثرى يا سيدى وعلى استعداد لدفع المبلغ الذى تطلبه لحل هذا اللغز ، فأنا أعرف أنك من أهم رجال التحريات الخاصة فى مصر .

وافقت على القيام بالمهمة ورفضت أن آخذ مليماً واحداً مقابل حل هذه القضية الإنسانية ، بل وقررت أن أبدأ العمل على الفور فى نفس الليلة ، دخلنا غرفة مكتبه ، وانهمكت فى دراسة وثائق وسجلات الأسرة. جملة واحدة ، لفتت نظرى فى مذكرات جده الثامن الذى هو بالطبع حفيد جده المصرى العاشر . . الجملة تقول : «فلما جاء الرجل ذو الذراع القوية ليتزوج من جدتى ، كان يغنى طول الوقت . . وحمل جدتى بذراع واحدة ثم أخذ يرقص بها » .

بدأت أبعاد اللغز تتكشف فى عقلى ، أجريت مكالمة مع مكتبى فى القاهرة وطلبت من مساعدى أن يرسل لى بعض الصور الفوتوغرفية «بالفاكس» وحددت له المكان الذى يجد فيه هذه الصور . بعد ساعة

بالضبط تلقيت الصور التى طلبتها على جهاز «الفاكس» فى منزل السفير، أمسكت واحدة منها وقدمتها إليه : انظر إلى هذه الصورة يا سيدى .

قفز الرجل من مكانه وصاح فى ذهول : هذه صورتى . .

ـ لا يا سيدى . . هذه صورة أحد أقاربك . . وكلاكما يحمل نفس ملامح جدكما العظيم .

ـ كيف توصلت إلى ذلك ؟

قلت له فى بساطة وتواضع : : هذه أسهل قضية عرضت على يا سيدى ؛ وهى لاتتطلب عبقرية خاصة ، بل القدرة على التحليل اللغوى . . اسم الأسرة هو « ARMSTRONG » يعنى الذراع القوية ، والسجلات تصف جدك بأنه ذو ذراع قوية ، وأنه يرقص ويغنى ، إذن هو يتمتع بحس فنى عال ، ولما كان المصرى يضيف دائماً كلمة «أبو» لأى صفة يتصف بها الإنسان لذلك نقول : «أبو شامة» أو « أبو طاقية» أو «أبو عقل ذكى» ، أما اسم أبد « ABD » الذى قلت لى إنه غير منتشر هنا فهو بالتأكيد النطق النرويجى لكلمة «عبده» العربية وبذلك يكون اسم جدك هو «عبده أبو دراع» . هناك مغن شهير توفى منذ سنوات فى مصر يشبهك كثيراً ، فافترضت أنه ينتمى لنفس الأسرة ، ولذلك طلبت مجموعة من صوره «بالفاكس» عندما شاهدتها تأكدت من صحة افتراضاتى . .

عند ذلك انحنيت أمامه باحترام وقلت له فى إجلال : سعادة السفير، أنت حفيد المواطن المصرى عبده أبو دراع الذى أتى إلى أوروبا فى القرن الحادى عشر ليحارب فى صفوف الملك «فردريك» ضد جيوش بابا روما ، وأنا شخصياً أفخر أن أحد مواطنى مصر وصل إلى هذا المنصب الرفيع فى النرويج .

استولت على الرجل فرحة طاغية بعد أن تعرف على جذوره ودعا أفراد أسرته فى عطلة نهاية الأسبوع إلى احتفال كبير غنى فيه الجميع ورقصوا حتى الصباح . حدث أمر غريب فى تلك الليلة ، تعرفت فى غنائهم على نغمات مصرية أصيلة ، بل إن رقصهم كانت فيه حركات كثيرة ذكرتنى بالرقص البلدى . يبدو أن الفن أيضاً تتوارثه الأجيال تماماً كملامح الوجه . .

فى الصباح اتصل بى فى الأوتيل وقال لى : أريد أن أرى البلد الذى أنجب جدى المقاتل المغنى العظيم أبو ذراع قوية ، وأريد أن أساعد الأمة التى أنجبت جدى ، ولذلك طلبت من رؤسائى أن يعينونى سفيراً للنرويج فى مصر ، وأنا أحاول الآن الحصول منهم على مبلغ معونة لمصر، لقد طلبت منهم مائة مليون دولار .

شكرته بحرارة لشعوره النبيل ، وبالنيابة عن كل المصريين رحبت بوجوده بيننا ، وطلبت منه أن يبلغنى بتطورات الموقف . عاود الاتصال بى بعد ساعة وأبلغنى أن الحكومة النرويجية تمر بضائقة مالية ، وأنهم

وافقوا على منح مصر مليونين وعدة آلاف من الدولارات ، وأنهم أيضاً وافقوا على تعيينه سفيراً لمصر ، وأنه سيقدم الشيك للحكومة المصرية بعد تقديم أوراق اعتماده مباشرة ، شعرت بسعادة غامرة ، فقد كنت سبباً فى حصول مصر على هذه المنحة .

وعلى أول طائرة متجهة إلى القاهرة كان السفير «أبد أرمسترونج» يجلس بجوارى فى الدرجة الأولى وفى جيبه الشيك يحلم باللحظة التى يطأ فيها أرض أجداده .

فوق مطار القاهرة ، شعر الرجل بالانبهار وهو يرى أضواء القاهرة ، فقلت له : هى دى مصر يا عبده .

وبعد تقديم أوراق اعتماده بعدة أيام طلبنى فى التليفون ذات صباح وقال لى : الحقنى . . مش عارف أدى الشيك لمين ؟! . . كل واحد بيقول إنه مش من اختصاصه ؟! أعمل إيه ؟ . . أرجع الشيك النرويج؟ فصرخت فيه . . استنى . . أوعى تتصرف فى الشيك . . أنا جاى حالاً.

ارتديت ملابسى على عجل وذهبت إلى سفارة النرويج .

فى طريقى إلى السفارة اتصلت من تليفون السيارة بالراقصة زيزى كانت نائمة فطلبت من خادمتها أن تبلغها بمجرد استيقاظها أننى أريدها لأمر هام . وفى السفارة وجدت السفير ينتظرنى فى مكتبه قلقاً ومكتئباً . لم يكن يتصور أن هناك أية صعوبات فى قبول شيك معونة . حددت موعداً مع مسئول كبير فى وزارة الخزانة ، وذهبت مع السفير

لمقابلته . رحب بنا المسئول وشكر السفير على تقديم هذه المعونة ثم سأله : هل هذا الشيك معونة ، أم قرض يتم تسديده على أقساط بعد فترة سماح ، أم هو قرض لا يرد ، أو لا يرد جزء منه أم هو منحة أو هو عطية ، أم هو هبة ؟ .

فقال السفير وهو يحرص على أن يكون محدداً : هو منحة يا سيدى ، منحة لا ترد من الحكومة النرويجية للحكومة المصرية .

تهلل وجه المسئول فرحاً وقال : أشكرك بحرارة . . ولكن هل لديك ما يثبت أن هذه المنحة لا ترد ؟

ـ سأكتب لك إقراراً بذلك يا سيدى .

ـ جميل . . على أن يكون هذا الإقرار معتمداً من رئيس وزراء النرويج ومختوماً بختم الحكومة . . من يدرى ، أليس من الجائز أن تغير الحكومة النرويجية رأيها وتعتبر المبلغ قرضاً وتطلب تسديده ؟! هل يرضيك أن أدفع هذا المبلغ من جيبى ؟

تدخلت فى الحديث : هل تفضل أن يكون هذا الإقرار موقعاً عليه من دولتين لايقل عدد سكان كل منهما عن عشرين مليون نسمة ؟

فقال المسئول : هذا أفضل بالطبع ، ولكن لاداعى للتعقيد . . يكفى الإقرار . . لدى سؤال أخير ، هل هذه المعونة مخصصة للزراعة أم للصناعة ؟

انتابت الحيرة السفير للحظات ثم قال : للصناعة .

فرد المسئول وهو يتنهد فى ارتياح : الحمد لله . . إذن لابد من تسليم الشيك إلى وزارة الصناعة .

فقد السفير أعصابه وصاح فى عصبية : اصرفوها على أى حاجة .

فقال المسئول : لابد من تحديد الجهة المستفيدة من هذه المنحة ، وإلا حدثت متاعب كبيرة نحن فى غنى عنها ، كل الوزارات سوف تطالب بهذا المبلغ ، وهكذا يتسبب هذا الشيك فى صراعات وحساسيات لا لزوم لها . وفى النهاية قد نضطر لرفض الشيك حرصاً على انسجام العمل فى مجلس الوزراء .

قال السفير فى يأس : اصرفوها على التعليم .

ـ على التعليم وحده ؟ . . أم على التربية أيضاً ؟

ـ على التربية أيضاً . . مليون على التعليم ومليون على التربية .

انفجر المسئول ضاحكاً فى سخرية : اتنين مليون دولار معونة للتربية والتعليم فى مصر ؟ . . معنى ذلك أن نصيب كل تلميذ لن يتجاوز خمسة مليمات . . هل تعتقد أنه من الصواب أن نشغل وقت موظفى وزارة التربية والتعليم من أجل خمسة مليمات . .؟ اسمع يا سعادة السفير، أعد هذا الشيك إلى حكومتك واطلب منها أن تبحبح المسائل

شوية . . الفلوس الآن لم تعد تحسب بالمليون . . بل بالميار . . أطلب منها أن ترسل مليارين . .

صرخ السفير : اسمع . . حتاخد الشيك ده واللا لأ ؟

فصرخ المسئول هو الآخر وهو يدق على المكتب بشدة : إنت جاى تهددنى فى مكتبى ؟ . . ما تزعقش . . مش حاخد حاجة . . هه . . !

اشتعل الموقف بين الرجلين فوقفت بينهما أحول دون وصول كل منهما للآخر حتى لا يحدث مالا تحمد عقباه . فى نفس اللحظة رن جرس التليفون الجيب الخاص بى ، وهو تليفون لاسلكى فى حجم علبة الكبريت ، كانت زيزى على الخط ، طلبت منها أن تحضر فوراً ومعها فرقتها الموسيقية ، كما طلبت منها أن تتصل بالمغنية توحة وتطلب منها الحضور هى الأخرى . حددت لها مكان مكتب صديقى المسئول فى وزارة الخزانة ، ثم عدت مرة أخرى أحاول تهدئة صديقى المسئول الذى كان يصرخ بأعلى صوته : شيك إيه اللى انت جاى تقول عليه ؟ . . انت عارف قبله معنى المعونة إيه ؟ . . إتنين مليون دولار إيه اللى جايبهم ؟ . . هو احنا بنشحت . . ليك عين تتكلم على مبلغ هايف زى ده . . رجّعه . . مش عاوزينه !

جاءت زيزى وتحية بعد عشرين دقيقة بالضبط وكل منهما معها فرقتها الموسيقية وبدأتا العمل على الفور . كان لابد من إرضاء المسئول بأى

طريقة لإقناعه بقبول شيك المعونة ، رقصت زيزى كما لم ترقص من قبل .

رقصت فى عذوبة ورقة ثم رقصت فى عنف ووحشية ، كانت جدران وزارة الخزانة تهتز مع اهتزازها ، وبدأت أعصاب صديقى المسئول تهدأ ، أصبح فى حالة مزاجية رائعة تؤهله لقبول الشيك غنت توحة بصوتها القوى فأطارت الأوراق من فوق مكتبه ، ثم غنت بهمس وصوت خافت كان يسمع بوضوح فى كل الوزارات القريبة . غنت أغنية ألفتها ولحنتها من وحى الموقف واللحظة . .

آه يا حبيبى يا جريجى . . وافق على شيك النرويجى . . بس اوعى تعمل فيها . . محمود المليجى .

أما المقطع الذى اهتز له الجميع طرباً فكان .

وافق وخد الشيك . . وأنا بالليل حارضيك . . والنبى لتيجى يا نرويجى .

آلاف المواطنين فى منطقة لاظوغلى خرجوا من كل الوزارات والإدارات مسحورين بصوت تحية تحولوا إلى كورس قوى هادر يردد وراءها . . والنبى لتيجى يا نرويجى . توقف المرور فى شوارع وسط المدينة . نزلت قوات الأمن المركزى لتفريق الناس الذين كانوا يغنون . ولكن المرور لم يعد إلى طبيعته إلا بعد أن أنهت توحة أغنيتها فانصرف الناس كل منهم إلى حال سبيله وهو يغمغم . . والنبى لتيجى يا نرويجى .

كان صديقى المسئول فى حالة من النشوة لاحد لها ، قال لنا : خلاص يا حضرات . . موافق على قبول شيك المعونة بلا تحفظ ، ولا أريد أية شهادات إدارية من أى نوع ، سأعطيكم الآن خطاب توصية إلى مسئول كبير فى وزارة التربية والتعليم وسأطلب منه أن يتسلم الشيك فوراً وأن يتجاوز عن ضآلة المبلغ .

كتب الخطاب وختمه فى دقائق وأعطاه لنا . . كان كريماً لأقصى حد ، إذ كلّم بالتليفون مسئولاً بوزارة التربية والتعليم وأوصاه بنا خيراً . أخذنا الخطاب وغادرنا مكتبه على الفور ، وعلى باب وزارة التربية والتعليم قابلنا المسئول الكبير بنفسه مرحباً ثم صعد بنا إلى مكتبه . بعد عبارات المجاملة التقليدية وجه سؤالاً للسفير : هل معك صورة من مناهج التعليم فى النرويج ؟

ـ لماذا ؟

ـ مجرد شكليات . . لانستطيع قبول معونة من دولة تختلف مناهجها التعليمية عن مناهجنا ، ولدى سؤال آخر . . هل هذه المعونة لوجه الله؟ أم أنكم تحاولون التأثير علينا وغزونا فكرياً ؟ ! . . لا تؤاخذنى أنا إنسان صريح .

فتح السفير فمه ، بدأ يبحث عن كلمات يرد بها فلم يستطع وفجأة أغمى عليه ، سقط من على كرسيه وتمدد على أرض المكتب . .

أصيب المسكين بأزمة قلبية ، نقلناه لأقرب مستشفى ، بعد عدة أيام غادر مصر ، المدهش أن الشيك ضاع أثناء نقله إلى المستشفى نتجية لحالة الاضطراب التى استولت علينا ، كان من الممكن بقليل من التحريات أن أعرف مصير الشيك ولكننى لم أشعر بحماس لذلك .





ضيف من قرعستان

منذ حوالى ثلاثة أعوام اتصل بى الصديق الدكتور عبد المعز حمودة الملحق العسكرى فى سفارتنا بموسكو طالباً منى أن أستقبل صديقاً له فى مطار القاهرة هو البروفيسير على سخانوف ، وهو عالم شاب من جمهورية «قرعستان» الروسية ، حدد لى رقم الرحلة وموعد وصول الطائرة وطلب منى الاهتمام والعناية به أثناء إقامته بالقاهرة .

فى موعد وصول الطائرة كنت فى المطار ، سمح لى أصدقائى هناك بالدخول إلى أرض المطار كما فتحوا لى قاعة كبار الزوار . وقفت بجوار سلم الطائرة أراقب نزول الركاب . كان من السهل التعرف عليه من ملامحه القرعستانية الواضحة ، عندما اقترب منى نازلاً من السلم همست : بروفيسير على سخانوف . . أنا صديق مكلف بالاهتمام بك .

التفت إلىّ الرجل وقد ارتسمت فى عينيه نظرة رعب مفاجئة بددتها على الفور ابتسامة الترحيب على وجهى . خرجت به من المطار بسرعة بعد أن فتح رجال الجمارك حقيبته ولم يجدوا فيها شيئاً تقريباً ، مجرد

قميص وبيجاما وفوطة قديمة تثير الشفقة ، بالإضافة لكتاب البيروسترويكا . . كان معه أيضاً حقيبة بها عدة أدوات صغيرة .

فى السيارة قال لى : سيدى ، ليس معى دولار واحد . . معى مائتا روبل . . استطعت توفيرها فى عشرين عاماً . . هل من السهل بيعها هنا ؟

أجبته بود : سأشتريها أنا منك . . وبالسعر الذى تحدده . .

لاحظت أنه يجلس بجوارى فى السيارة متوتراً فى وجوم ، سألته : هل تناولت طعام العشاء ؟

تنهد وأجابنى : قدموا لنا فى الطائرة بعض الكرنب المسلوق .

بدلاً من الانطلاق بالسيارة مباشرة إلى حى الهرم حيث أسكن ، أخذت طريقى إلى ميدان السيدة زينب ، وفى حارة جانبية تناولنا وجبة كباب ساخنة عند محمد رفاعى ، إن مشهد البروفسير وهو يحدق فى قطع الكباب والكفتة فى ذهول أعطانى فكرة واضحة عن مدى معاناة الشعب السوفيتى ، أما الآهات التى كان يصدرها وهو يأكل الكفتة فقد سببت لى بعض الحرج عندما أخذ زبائن المكان ينظرون لنا فى دهشة واستنكار .

أخذته بعد ذلك إلى مقهى الفيشاوى فى حى الحسين وشربنا الشاى وطلبت له شيشة . . ومع أنفاس الشيشة ورشفات الشاى بدأ يتكلم : أشعر أننى فى الجنة . . هل أنت مليونير ؟ كم مرة فى العام تأكل كباباً ؟

،هذا الشيء الذى يسمى الكفتة ، هل من الممكن أن تأكله بمفرده . .
ـرى ماذا سيقول عندما أدعوه إلى وجبة جمبرى وكابوريا واستاكوزا؟!»
. . وكيف يصنع ذلك الكباب ؟ . . ومتى اخترعه الإنسان فى الشرق ؟

بعد ذلك اصطحبته إلى البيت وهو نصف نائم ، أخذ يتطلع مبهوراً إلى حديقة الفيللا ، فى الغالب تصور أنه يحلم ، كانت هند قد أعدت له غرفة خاصة بحمام ، تناول حماماً ساخناً ثم نام .

فى الصباح طرقت هند عليه الباب برفق ، وطلبت منه أن ينزل لتناول طعام الإفطار معنا فى الحديقة . . بعد أن التهم طبقين كاملين من الفول بالسمن البلدى ونصف كيلو من الجبن الاستامبولى الفاخر ، وعشرة أقراص من الطعمية ، وطبقاً من سلطة الطحينة قال : أريد أن أموت الآن .

سألته هند بدهشة : لماذا ؟

أجابها : من الأفضل للإنسان أن يموت فى مثل تلك اللحظات الجميلة .

انتقلنا إلى صالة المعيشة بالدور الأول بالفيلا ، وبين أقداح الشاى وفناجين القهوة ، تكلم البروفيسير : كما هو واضح من اسمى ، أنا أنحدر من أصول عربية ، ويقال إن جدى الكبير هو على القرعجى الذى سميت باسمه جمهوريتنا «قرعستان» كان تاجراً ومصلحاً اجتماعياً وفليسوفاً ومطرباً أعجب به قياصرة روسيا فمنحوه مقاطعة تحولت فيما

بعد إلى جمهورية صغيرة ويقال إنه هاجر من دلتا النيل من مدينة «سخا» الشهيرة . .

سمحت لنفسى بمقاطعته : بروفيسير سخانوف . . سخا ليست مدينة وإنما قرية جميلة من قرى كفر الشيخ وعموماً ، اتفضل أكمل قصتك . .

فقال : من طفولتى وأنا أحلم بزيارة مصر وكان هذا أمراً مستحيلاً قبل حكم جورباتشوف خصوصاً وأنا أنتمى لفئة ممنوع خروجها قطعياً من الاتحاد السوفييتى . . فئة العلماء . . أنا عالم ذرة . . وأعمل الآن نائباً لمدير مفاعل قرعستان النووى . نشأ هذا المفاعل فى البداية من أجل أهداف سلمية ثم تخصص بعد ذلك فى إنتاج القنابل الذرية والرؤوس النووية بعيدة المدى .

قالت هند : ألاحظ أنك تتحدث الانجليزية بطلاقة ، فهل درست فى الغرب .

أجاب : معظم العلماء والأدباء السوفييت يجيدون اللغة الإنجليزية . . تعلمناها سراً فى بيوتنا فقد كان تعلمها من الممنوعات .

نظرتُ إلى هند نظرة فهمت معناها ، لايجب مقاطعته ، لابد أن نتركه يتكلم على راحته لنعرف هدفه الحقيقى من زيارته إلى القاهرة، سألته : لقد طلب منى الصديق الدكتور عبد المعز حموده أن أهتم بك فى القاهرة أنا تحت أمرك ، أرجوك لا تتردد فى أن تطلب كل ما تريد . . ماذا تريد؟

قال وقد لمعت الدموع فى عينيه : أريد أن أبقى هنا فى مصر إلى الأبد . . إننى على استعداد لوضع كل إمكانياتى العلمية فى خدمة الدولة لمصرية . . أنا حاصل على عدة درجات علمية عالية فى الفيزياء لنووية ، وإذا تعذر وجود عمل لى فأنا أستطيع إعطاء دروس خصوصية طلبة المدارس الإعدادية والثانوية فى المدارس الإنجليزية .

قلت له : إن الحصول على إقامة هنا لأجنبى بالذات من قرغستان مر صعب وإن كان ليس مستحيلاً ، وأعدك أننى سأبذل فى هذا الشأن كل جهدى . . ولكن اسمح لى ، ما هو العمل الذى تجيده أكثر من غيره ؟

رد بهدوء وثقة : أستطيع عمل قنبلة ذرية رخيصة التكاليف ، أستطيع عمل قنبلة ذرية فى حجم بيضة الفرخة ، أربع منها كفيلة بتدمير عاصمة مثل موسكو أو نيويورك أو باريس أو لندن .

سألته : ماذا تعنى بجملة رخيصة التكاليف . . عشرة ملايين دولار مثلاً ؟

فأجاب : لا . . ألف دولار ، فقط سأقوم بنفسى بعملها . . ولست محتاجاً لمفاعل كبير . . تكفينى غرفة صغيرة .

ـ واليورانيوم المخصب ؟

أجاب : يوجد عندكم يورانيوم فى أسوان ، لديكم جبال منه ، لقد

جاء أحد علمائنا بعينة من «الطفلة» من أسوان منذ خمسة وعشرين عاماً ، حللناها وفوجئنا بوجود اليورانيوم فيها بنسبة عالية جداً ، كل ما أريده خمسين كيلوا جراماً من هذه الطفلة ، من السهل أن أستخرج منها ربع كيلو جرام من اليورانيوم ، سأتولى تخصيبه بنفسى مستخدماً مواد أخرى موجودة فى مصر أيضاً . .

لم تطق هند السكوت فتدخلت قائلة : ألف دولار لإنتاج قنبلة ذرية؟

فرد عليها : سيدتى لقد تمكن طالب فى الثانوية العامة فى أمريكا من تصميم قنبلة ذرية فتاكة ، هذا الأمر سهل للغاية . . المشكلة فقط فى اليورانيوم المخصب . . والعلم اليوم تقدم كثيراً هذه مهنتى يا سيدتى . . صنع القنابل الذرية هو عملى . . أقوم به بنفس السهولة التى تقلين بها البيض وأنا مسئول عن كلامى . . أعطونى الفرصة وأنا أثبت لكم كلامى .

فى تلك الليلة طلبت مقابلة مسئول كبير فى القيادة السياسية ، بعد أن عرضت عليه المشروع قال لى : من الغباء أن تنضم مصر إلى النادى الذرى . . لسنا فى حاجة لهذه القنبلة حتى لو كلفتنا ربع جنيه . . فى هذا العصر ستتخلص الناس من كل الرؤوس النووية ، لقد دفع البشر دم قلوبهم لصنع هذه القنابل ، وسيدفعون دم قلوبهم مرة أخرى لفكها والتخلص منها . . اسأل صديقك . . هل لديه طريقة علمية للتخلص

من ورد النيل بسرعة ؟ . . هل لديه طريقة لحماية شواطئنا من نحر البحر . . هل لديه طريقة لتطوير زراعة القمح ؟ . . هذا هو ما نريده .

عندما قلت ذلك للبروفيسير قال بأسف : لقد سألتنى عما أجيده يا سيدى . . ما أجيده هو صنع القنبلة الذرية ولكنى على استعداد للعمل سائق جرار أو عامل زراعى أو بواب . . أو مدرس للأدب الروسى فى الجامعة .

ومرت لحظات قبل أن أجيبه : اسمع يا بروفيسير . . إن صنع قنبلة ذرية قطاع خاص ، أمر يستهوينى . . من المؤكد أننا سنجد لها مشتريا من بين حكومات المنطقة . . ما رأيك فى أن تبدأ الآن . . سأتولى الإنفاق بنفسى على المشروع .

وبدأنا العمل فى إنتاج أول قنبلة ذرية خاصة فى التاريخ .

الفـــرن الـــذرى :

لست أعرف على وجه التحديد الأسباب التى دفعت الشبح لإتخاذ هذا القرار الغريب ، وأستبعد أن يكون الحصول على ثورة طائلة من بيع هذه القنبلة هو هدفه الأساسى ، وتفسيرى الوحيد هو أن روح المغامرة والرغبة فى عمل يبدو مستحيلاً ، كانت وراء إنتاج هذه القنبلة الذرية الخاصة .

« ع . س » .

فى البداية كان لابد من الحصول على تأشيرة إقامة عمل للبروفيسير بدلاً من التأشيرة السياحية التى تنتهى بعد شهر . أقنعت واحداً من أصدقائى أصحاب المدارس الخاصة فى منطقة الهرم بإنشاء قسم جديد لتدريس اللغة الروسية ، والإعلان عن ذلك فى الصحف ، وإبلاغ وزارة التربية والتعليم تقدم البروفيسير للوظيفة وكتب معه عقداً تم توثيقه فى مكتب الملحق الثقافى بالسفارة الروسية . وبموجب هذا العقد حصلت له على تأشيرة إقامة تتجدد تلقائياً كل ستة شهور .

استأجرنا سيارة نقل كبيرة وذهبنا إلى أسوان حيث حملناها بحوالى خمسة أطنان من «الطفلة» الأسوانى الشهيرة بعد أن تأكد البروفسير باستخدام جهاز صغير من أنها مليئة باليورانيوم . عدنا «بالطفلة» من أسوان ووضعناها خلف الفيللا .

نزلت معه إلى شارع الجمهورية حيث توجد المحلات التى تبيع أجهزة البحث العلمى ، اشتريت له الأدوات التى طلبها ، أسلاك ، مواسير ، أنابيب ، عدادات . . إلخ .

أخذ البروفسير يعمل فى الغرفة التى خصصتها له فى الفيللا بنشاط حتى تحولت إلى معمل ذرى متكامل فى عدة أيام . . كان يقوم بجولات استطلاعية فى القرى المحيطة بنا فى منطقة الهرم ، من الغريب أنه استطاع فى ظرف أيام قليلة تعلم عدد من الكلمات العربية مكنته من التفاهم مع سكان المنطقة وعمل جسرا من الصداقة بينه وبينهم .

وذات صباح وجدته واقفاً مع مجموعة من الجيران فى ركن من أركان حديقة الفيللا وقد انهمك الجميع فى بناء فرن صغير وعندما انتهوا من بناء الفرن رفضوا الحصول على أجر من أى نوع مقابل مجهودهم ، اتضح لى فيما بعد أن البروفيسير كان يصلح لهم كل الأدوات الكهربائية التى تتعطل مجاناً . سألته : أرى أنك قد بدأت تعشق حياة الريف . . هل كان لابد من إقامة هذا الفرن . . ؟ . . لايوجد عندنا من يجيد الخبيز .

أجاب : هذا الفرن يا سيدى غير مخصص للخبيز . . هذا فرن ذرى . . سأستخدمه فى مرحلتين ، المرحلة الأولى ، استخراج اليورانيوم من الطفلة ، والثانية هى تخصيب هذا اليورانيوم فى درجة حرارة عالية .

أثناء الليل وفى تكتم شديد قام بتركيب عدادات وأسلاك فى الفرن وأوصلها بسلوك ومواسير تسير تحت الأرض بغرفته . كنت واقفاً فى شرفة غرفة مكتبى فى الفيللا أراقبه وهو يعمل طول الليل . عند الفجر عاد إلى الفيللا وصعد إلى غرفته وهو يجر قدميه من التعب ، سألته : أخبارك إيه يا بروفيسير ؟

فقال : خير . . كل شىء يسير على مايرام طبقاً للخطة الموضوعة . .

قال ذلك ثم صعد إلى غرفته ، بدأت أشعر بخوف غامض ، ماهو الضمان ألا يحدث تسرب إشعاعى من هذا الفرن المبنى بالطين والطوب اللبن ؟!

بعد يومين جاءنى البروفسير وهو يكاد يرقص من الفرح ثم

زف لى النبأ السار ، لقد عثر على الماء الثقيل اللازم لعمل القنبلة .

ـ أين عثرت عليه ؟

أجاب : قرب نهاية ترعة المريوطية ، هناك ترعة أخرى المياه فيها راكدة منذ عدة أعوام ، تحللت فيها الحشرات وأجساد الحيوانات النافقة وجرت فيها تغييرات كيماوية لا يعلم بها إلا الله . . هذه التغييرات حولت ماء الترعة إلى ماء ذرى ثقيل ، بل لقد اكتشفت أن هذا الماء بالذات أكثر ثقلاً من أى ماء ثقيل آخر على وجه الأرض ، وهذا سيمكننى من صنع قنبلة ذرية صغيرة جداً ولكنها أشد فتكاً من تلك التى ألقيت على هيروشيما .

وشعرت بالرعب . هل سيتمكن هذا الرجل فعلاً من صنع قنبلة ذرية ؟

بائع اللبن :

لايوجد فى أوراق الشبح ما يفيد أنه تم إجراء تجربة نووية فى صحراء الهرم ، غير أن العاصفة الترابية العنيفة التى هبت على البلاد وترتب عليها إغلاق الطرق والموانى والمطارات ، تدفعنى إلى الاعتقاد أنها كانت نتيجة لتفجير نووى صغير فى مكان ما فى الصحراء الغربية أو الشرقية أو فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، غير أننى عندما سألت الشبح عن ذلك أنكر بشدة أنه والبروفيسير على مسئولان عن ذلك ، ولكن سكوت هند سكرتيرته الخاصة وإحساسها الدائم بالقلق

فى الأيام الأخيرة يدفعنى للاعتقاد بأن هناك شيئاً خطيراً
بخفيه الشبح . الأمر المدهش ، أننى عندما عدت لأوراق
الشبح وجدت عدة صفحات منزوعة من مذكراته فعدت
إليه لأسأله عنها فنفى علمه بذلك فى البداية ثم عاد وقال :
نعم، نعم هناك صفحات نزعتها بنفسى ومزقتها لأسباب
لايجب أن تعرفها الآن ، ثم طلب منى ألا أتعرض لوقائع
معينة ، فاحترمت رغبته ، وأخيراً مضى يحكى ما حدث وأنا
صامت أمامه وشريط التسجيل يدور « ع . س» .

بعد العاشرة بقليل كان البروفيسير على منهمكاً فى العمل بينما أنا مستغرق فى القراءة فى غرفة مكتبى ، وجاءت هند . .

هند : هل تسمح لى بأن أتكلم معك ؟

ـ اتفضلى يا هند . .

قالت بقلق : ماذا يحدث فى هذه الفيللا ؟ ماذا يفعل هذا الرجل الروسى فى غرفته ؟ ولماذا هذا الفرن فى الحديقة ؟

لا داعى لإخفاء الحقيقة عن هند لذلك صارحتها ببساطة : هند . . نحن نقوم الآن بعمل أول قنبلة ذرية قطاع خاص فى التاريخ ، ستكلفنا ١٠٠٠ دولار فقط ، وسنبيعها على الأقل بمائة مليون دولار .

هند : ستبيعها لمن ؟

ـ هناك دولتان على الأقل فى المنطقة على استعداد لشرائها نقداً .

هنا : لنفرض أن البروفسير على ليس نصاباً وأنه قادر بالفعل على صنع قنبلة ذرية حقيقية ، وأنك قادر على بيعها ، بالتأكيد ستبيعها لشخص مجنون سيستخدمها فى أول فرصة تسنح له . . هذا جانب واحد من المسألة ، دعنى أسألك سؤالاً آخر ، هل فكرت فى احتمال أن يحدث تسرب إشعاعى من الفرن الذرى الذى هو مجرد طابونة مصنوعة من الطوب اللبن ؟! . . هل فكرت فيما سيحدث لملايين البشر فى مصر إذا حدث هذا التسرب ؟

ـ أصارحك يا هند أننى فكرت فى ذلك . . ولكن البروفيسير على أكد لى أن احتمال التسرب الإشعاعى أمر مستحيل عملياً وعلمياً .

هند : أكد لك ؟! وهل تثق فى تأكيداته ؟ من فضلك أوقف فوراً ما يحدث وأعد هذا الرجل إلى بلاده قبل أن يلجأ إلى أى نظام متطرف فى المنطقة ويصنع له هذه القنبلة .

مرت لحظات قبل أن أقول : هند . . أنت تثقين بى بالطبع . . وتعرفين أننى لايمكن أن أقدم على شىء يؤذى الناس فى بلادى . . ومع ذلك تعالى معى لكى ترى وتسمعى بنفسك .

دخلنا غرفة البروفيسير التى كان قد حولها لمعمل ، رحب بنا الرجل ، حدثته عن مخاوف هند فقال : أنا أقوم بصنع قنبلة ذرية نظيفة يا سيدتى، وهى ليست إشعاعية ، والمفاعل الموجود فى الحديقة ليس إشعاعياً مثل مفاعل «تشرنوبل» المنكوب . . انظرى ياسيدتى . . قال

ذلك وتناول مجموعة من «البلى» من على المائدة وأراها لنا : كل بلية من هذا البلى قادرة على محو مدينة بأكملها بشرط تفجيرها ، وتفجيرها يتطلب عدة عمليات معقدة للغاية بحيث لا تنفجر بالصدفة أو الخطأ . . هذه قنبلة آمنة يا سيدتى مائة فى المائة .

سألته هند : ومتى ستنتهى من صنعها ؟

فسألها بدوره : متى تريدان أن أنتهى من صناعتها .

فقالت هند بضيق : أنا شخصياً غير موافقة على هذا المشروع ولا أريدك أن تنتهى من صنعها .

فقال البروفيسير بأدب : عموماً لقد انتهيت من صنعها ياسيدتى . . امسكى ياسيدتى .

ناولها بلية معدنية ثم قال : أنت تمسكين الآن بين أصابعك قنبلة ذرية .

امتقع وجهها وكادت تصرخ واستولت عليها رعشة ولم تدر ماذا تفعل بالقنبلة فأخذها منها : لاتخافى يا سيدتى . . قلت لك إنه لابد من عمليات معقدة للغاية من أجل تفجيرها . . السؤال الآن هل ستقومان ببيع هذه القنابل وعددها عشر قنابل ، أم آخذها أنا الآن وأمضى بها لمن يمكن أن يشتريها منى ؟ ما رأيكما فى أن نؤجل النقاش فى هذا الموضوع حتى الصباح لأننى متعب جداً .

رددت عليه بحسم : بروفيسير على ، هذه القنابل ملكى ، صنعت من أموالى وفى بيتى . . لا تنس ذلك . . فى الصباح على الإفطار سيكون معنا المشترى .

فى نفس الليلة اتصلت بطريقتى الخاصة بمسئول المخابرات فى سفارة دولة عربية وقلت له : لدى وسيلة للحصول على عشر قنابل ذرية بثمن معقول . . اتصل بقيادتك السياسية ، إذا وافقت على الشراء ، قابلنى فى السابعة صباحاً فى بيتى .

فى الصباح جاء مسئول المخابرات فى الدولة العربية راكباً بسكليتة ومتنكراً فى هيئة بائع لبن .

العقيد قلقاسة :

على مائدة الإفطار فى الحديقة اجتمعنا أنا وهند والبروفيسير على والعقيد أحمد قلقاسة ـ اسم حركى ـ المسئول عن مخابرات دولة عربية شقيقة فى القاهرة . وبعد تبادل الحديث عن الجو وعبارات المجاملة المعتادة دخلنا مباشرة فى الموضوع . ولقد حرصت على أن يدور الحديث بيننا فى الحديقة بعيداً عن الجدران تفاديا لأية تسجيلات تقوم بها أية أجهزة معادية ، ومع ذلك فقد قمت بتسجيل الحوار الدائر بيننا فى الجلسة بميكرفون لاسلكى صغير قمت بتركيبه داخل ملاحة صغيرة موضوعة على المائدة بجوار طبق الفول الذى حرصت على أن يكون ملحه زائداً لكى لايستخدم.أحد الملاحة فيعطل الميكرفون . بينما كان

جهاز التسجيل نفسه مخبأ فى دواية حبر على مكتبى داخل الفيللا .

بدأ العقيد قلقاسة الحديث : أيها السادة ، لقد طلبت منى قيادتى السياسية أن أتأكد من أن هذا الموضوع ليس نصباً ، فلست أخفى عنكم سراً عندما أقول لقد جاءنا كثير من النصابين من قبل ، وباعوا لنا الترماى ، باعوا لنا قنابل ذر ية انتهت صلاحيتها منذ وقت طويل . . كما باعوا لنا صواريخ مداها عشرة أمتار فقط . . وقبضوا منا الملايين . . ولذلك نحن لن ندفع مليماً واحداً إلا بعد إجراء تجربة ذرية فى الصحراء أو فى البحر . .

الشبح : حسناً يا سيدى العقيد ، نستطيع أن نقول الآن إننا قد فشلنا فى إتمام هذه الصفقة . . لا نريد أن نبيع لكم شيئاً .

العقيد : لماذا هذا الانفعال ؟ . . ولماذا تتسرع بالحكم بفشل هذه الصفقة ؟ أليس من حقنا أن نتأكد أننا لسنا ضحية لعملية نصب ؟

الشبح : من حقك ذلك . . ومن حقنا أيضاً أن نتأكد أنكم لن تنصبوا علينا . .

فى تلك اللحظة نهضت هند معتذرة بأنها تعانى من صداع مفاجىء ، ثم انسحبت داخلة الفيللا ، من الواضح أنها رافضة لحضور هذه الجلسة ، كان الحديث يدور باللغة الإنجليزية التى يجيدها البروفيسير على سخانوف وتدخل البروفيسير فى الحديث وسأله سؤالاً واقعياً : كم ستدفعون ثمناً للقنبلة الواحدة يا سيدى ؟

رد العقيد بانفعال :ـ أنا لا أشترى سمكاً فى ماء . . ماهى قوة هذه القنبلة ؟

على : أربع منها تكفى لتدمير نيويورك . . واثنتان تكفيان لتدمير لندن . . وهى مزودة بعين سحرية تجعلها تفلت من الصاروخ «باتريوت» ومن أى سلاح آخر على وجه الأرض .

العقيد : أليس من حقى أن يتأكد العلماء فى بلدى من صلاحيتها ؟

الشبح : لن ترى القنبلة ولن يراها أحد قبل الاتفاق على السعر . .

العقيد : حسناً . . نحن على استعداد لدفع مليون دولار ثمناً للقنبلة الواحدة . .

الشبح : يبدو أنك تتصور أنك تتحدث إلى اثنين من الأغبياء . . أو أنها قنابل مسروقة . . لعلك تظن أننا نبيع ترمساً أو بطاطا . . لن نبيع القنبلة الواحدة بأقل من مائة مليون دولار يدفع خمسها نقداً هنا فى القاهرة قبل إجراء تجربة التفجير الذرى لقياس درجة قوتها . .

العقيد : يا جماعة من حقى أن أرى هذه القنبلة قبل الدخول فى أى تفاصيل .

عند ذلك التفت إلى البروفسير على وطلبت منه أن يحضر عدة قنابل من داخل الفيللا ، بعد لحظات عاد وهو يحمل قنابل البلى الذرية .

صاح العقيد مذهولاً : هل هذه قنابل ؟ . . هذا بلى يا سيادة . .

فقال البروفسير بانفعال : نعم ، هو مجرد بلى ، هل شاهدت قنبلة ذرية من قبل ؟ هل شاهدت صوراً لها ؟

هذه قنبلة ذرية تمثل آخر صيحة فى عالم الذرة . وسوف تصدق ذلك عند إجراء التجربة الذرية أمام علماء بلدك . . السؤال الآن . . هل توافق على السعر الذى حددناه . . ؟

سكت العقيد ثم قال : لنتكلم بوضوح . . كم سيكون نصيبى فى هذا الاتفاق ؟

قلت له : يا رجل . . هل تتصور أننا سنكسب فى هذه الصفقة . . أو أننا نتاجر عليك وعلى بلدك ؟ . . لقد عرضنا عليك سعراً يغطى التكلفة فقط . . إننا نريد فقط استرداد المبالغ التى أنفقناها فى صنع هذه القنبلة . . ومع ذلك . . نحن تحت أمرك . . كم تطلب ؟

قال ببرود : خمسين فى المائة . .

عاد ليقول : لاتتصور أن هذا نصيبى وحدى . . هناك جيش من المسئولين لابد أن يوافق على إتمام هذه الصفقة . . ولابد من دفع حوافز لهم .

قلت : هل جننت . . ؟ أتريد شراء قنبلة ذرية من النوع المتطور بخمسين مليون دولار؟ . . يفتح الله . . إن لدينا عروضاً أفضل من ذلك بكثير .

وهنا تدخل البروفيسير قائلاً : هناك حل واحد لكى تحصل وزملاؤك على خمسين فى المائة من الصفقة . . وذلك بأن يكون ثمن القنبلة الواحدة مائتى مليون دولار وليس مائة مليون . . وبذلك يحصل كل طرف على مائة مليون صافية . .

صمت العقيد قلقاسةللحظات ثم قال : اجعلها مايتين وخمسين مليون دولار للقنبلة الواحدة . . فلدينا مراجع حسابات رذل ، يرفض الصفقات التى تقل عن مائتى وخمسين مليوناً من الدولارات . .

قلت على الفور : موافقين . . بشرط ألا نوقع على أى ورق . . سنعقد اتفاق جنتلمان شفوى . . خمس المبلغ نقداً فى البداية والخمس عند تجربة التفجير النووى فى صحراء بلادكم ثم نصف المبلغ الباقى عند تدريب رجالكم على استخدامها والقسط الأخير بعد نهاية التدريب . . موافق ؟

فقال : موافق ؟

فقلت : غداً صباحاً ستأتى بخمس المبلغ نقداً وبالدولارات . . عن قنبلة واحدة . . يعنى خمسين مليون دولار ، خمسة وعشرون مليونا بعد خصم عمولتك . . وأنا أحذرك من ارتكاب أية حماقة . . لاداعى للدولارات المضروبة . . سنفحصها ورقة ورقة قبل استلامها .

انصرف العقيد . كان البروفسير فى حالة لايمكن تصورها من السعادة . بدأ يتحدث عن شراء جزيرة من جزر البهاما وشراء يخت

وطائرة . فى تلك اللحظة ظهرت هند خارجة من الفيللا . كانت تحمل حقيبتين كبيرتين .

سألتها : ما هذا يا هند ؟ . . إلى أين ؟

أجابت بهدوء : لست أنت الشبح الذى أعرفه . . أنت شخص آخر لا يسعدنى أن أعمل معه . . للمرة الأولى فى حياتى أجدنى لا أتمنى لك التوفيق فيما تفعله . . سلام عليكم . .

قالت ذلك وركبت سيارتها ، حاولت عبثاً أن أناقشها ، ولكنها رفضت أن تتكلم وقادت سيارتها الصغيرة خارجة من الفيللا .

المفاجـــأة :

تم الاتفاق بين الشبح والعقيد قلقاسة مسئول المخابرات فى دولة عربية شقيقة على شراء عشر قنابل ذرية سعر الواحدة ٢٥٠ مليون دولار ، على أن يحصل العقيد على نصف المبلغ كعمولة له . رفضت هند سكرتيرة الشبح الخاصة أن يكون لها صلة بهذه الصفقة وتركت المنزل غاضبة ، وعد العقيد قلقاسة أن يحضر فى اليوم التالى خمسين مليون دولار دفعة أولى تحت الحساب . الواقع أننى بحثت فى أوراق الشبح عن بقية هذه الحكاية فلم أجد كلمة واحدة لها صلة بهذا الموضوع . طلبت منه أن يحكى لى ما حدث بعد ذلك . فى حديقة الفيللا تناولنا الشاى وفتحت جهاز التسجيل وبدأ يتكلم « ع . س » .

قضيت شطراً كبيراً من الليل فى كازينو على النيل ومعى البروفسير على نحلم بالثروة القادمة فى الصباح . هذه هى فرصتنا الوحيدة للانضمام لنادى أصحاب الملايين . لاشىء على الأرض يفتح لك كنز على بابا مثل العمل فى تجارة السلاح ، فما بالك بتجارة القنابل الذرية ، سألت البروفيسير على سخانوف أكثر من مرة : هل أنت واثق أن هذه القنابل حقيقية ؟

فكان يجيب : هى حقيقية فى حقيقة وجودى أمامك الآن .

وعدت أسأله : العقيد قلقاسة سيحضر المبلغ ولكنه سيطلب إجراء تفجير ذرى للتأكد من صلاحيتها ، هل أنت متأكد من صلاحيتها ، هل أنت متأكد أنها ستنفجر ؟ . . ألا يوجد احتمال ولو ضئيل لحدوث أى عطل فيها ؟

أجابنى بكبرياء . . سيدى . . أنت تهيننى بهذه الكلمات ، لا يوجد احتمال للخطأ ولا واحد فى المليون . .

واحد فى المليون ، لقد استمعت لهذه الجملة قريباً . . آه . . تذكرت ، قالها الرئيس صدام حسين فى حديثه مع مراسل «سى . إن . إن» عندما سأله عن احتمال خسارته للحرب . لم أطمئن لكلام البروفيسير وبدت أشعر باضطراب لا أعرف سببه شعرت بأن هناك شيئاً ما يتهدد الصفقة هل من المعقول أن المخابرات الأمريكية والمصرية والإسرائيلية غافلة عما يحدث فى الفيللا ؟

ألا يمكن رصد الإشعاعات الذرية المتصاعدة من الفرن الذى أقيم فى الحديقة بواسطة الأقمار الصناعية ؟

عن هذه النقطة أجاب البروفيسير : ولا الأقمار الصناعية الخاصة بالشيطان نفسه تستطيع رصد هذا الفرن ، لأنه مصنوع من الطين والتبن، إن تفاعل الطين مع التبن يمتص كل الإشعاعات الذرية فلا يصل منها إلى الهواء الجوى شىء .

ـ والفلاحون والجيران الذين أتيت بهم يا بروفيسير لمعاونتك فى بناء الفرن . . ألن يتكلموا ؟! . . ألن يصل ما قالوه إلى أسماع رجال المباحث؟

ضحك البروفيسير وأجاب : لنفرض أن شرلوك هولمز نفسه يعمل رئيساً لمباحث أمن الدولة فى الجيزة . . وأبلغته مصادره أن مواطناً بنى فرناً فى حديقته . . هل سيتصور أن هذا الفرن ذرى ؟ . . صدقنى ما نفعله هو سر بيننا نحن الثلاثة . . أنا وأنت وهند . . إلا إذا تكلمت هند أو أبلغت عنا . .

ـ أنا واثق طبعاً أن هند لن تتكلم لأى سبب من الأسباب مع أى مخلوق . . ولكن ماذا عن العقيد أحمد قلقاسة ، بالتأكيد هو مُتابع من أجهزة الأمن المصرية .

رد البروفيسير : هذا رجل مدرب على الإفلات من المراقبة ، وتنكره فى هيئة بائع لبن يدل على أنه عبقرى ، لن يتصور المخبرون فى الصباح

الباكر أن هذا الرجل ذا الجلباب الذى يغطى وجهه بكوفية ويركب بسكليتة عليها أقساط اللبن ، هو نفسه ناظر محطة المخابرات التابعة للدولة العربية الشقيقة . . اطمئن يا صديقى واهدأ . . غداً صباحاً سنقبض القسط الأول ونصبح من الأثرياء .

ـ قل إن شاء الله يا بروفسير . . قدم المشيئة .

ـ حاضر . . بإذن الله . . اهدأ . . اضطرابك ناشىء من أنك لاتصدق أنك ستكون ثرياً .

اشتريت جرائد الصباح ونحن عائدان إلى البيت بعد منتصف الليل وفى الصفحة الأولى قرأت خبراً أزعجنى . . كان الخبر يتكلم عن زيارة مفاجئة قام بها «روبرت جيتس» رئيس المخابرات الأمريكية للشرق الأوسط ، من النادر فى التاريخ المعاصر بل من المستحيل أن يعلن جهاز للمخابرات عن زيارة رئيسه لمكان ما . . فلماذا الإعلان بهذا الوضوح عن هذه الزيارة ؟ إن الأجهزة عملها سرى بالحتم والضرورة . . فلماذا الإعلان عن اسم الرجل ؟!

هذه رسالة مفتوحة لشخص ما أو لجهة ما معناها : نحن هنا . .

إذن هذه الزيارة لا شأن لها بالسياسة أو بقادة الدول . أو مستقبل المنطقة القريب والبعيد . . ترى . . ماهو الهدف من هذه الزيارة ؟

بعد لحظات قلت للبروفيسير : على . . قلبى يحدثنى أننا نحن المقصودان . . بمعنى أدق أنا المقصود بهذه الزيارة . . لقد عرفوا بأمر القنابل والفرن الذرى والصفقة .

قال البروفيسير : المخابرات الأمريكية ليست من الجن كما تعرف . . هل تتفضل وتشرح لى كيف عرفوا بأمر الصفقة ؟

ـ المسألة بسيطة للغاية . . المخابرات الأمريكية مخترقة لأجهزة الأمن التابعة للدولة العربية الشقيقة . . عندما أبلغ العقيد قلقاسة قيادته السياسية بأمر الصفقة ، تولى عميلهم هناك إيصال هذه المعلومات .

قال البروفيسير : فى هذه الحالة كانوا سيمررون هذه المعلومات للمخابرات المصرية فتفشل الصفقة . . ولنفرض أننى وافقتك على هذا التحليل . . لماذا يرسلون رئيس المخابرات شخصياً ؟ ولماذا يعلنون عن الزيارة ؟

ـ هو ثأر قديم بينى وبين «روبرت جيتس» يعود لمرحلة الستينيات ، عندما كان يعمل مسئولاً عن إدارة العمليات فى الشرق الأوسط . . كان يكسب جولة فأكسب منه جولات ، هو لن يغفر لى أننى كشفت العديد من رجاله ، ولن يغفر لى أننى أحبطت الهجوم على كوباً فى خليج الخنازير، ولن يغفر لى أننى كنت السبب الرئيسى فى كشف فضيحة «ووتر جيت» واستقالة الرئيس نيكسون صديقه الحميم . . لقد تركت

الخدمة السرية منذ زمن بعيد ، بينما ظل هو يعمل فى المخابرات الأمريكية إلى أن أصبح رئيساً لها . .

ـ وهل يعرفك شخصياً ؟

ـ لا هو يعرفنى ولا أنا أعرفه شخصياً . . ولكنه كان يحرص على أن يرسل لى تهديداً كل عدة شهور بأننى لن أفلت من يده . . وكنت أنا أيضاً أرسل له تهديداً كل عدة شهور بأنه لن يفلت من يدى . . ولكن بالطبع بعد تركى للخدمة نسيت عنه كل شىء إلى أن فوجئت بقراءة اسمه الآن فى الصفحات الأولى .

ساد الصمت بيننا إلى أن وصلنا إلى كشك سجائر فى شارع الهرم تعودت أن أشترى منه سجائرى كل مساء بجوار الكشك كان يوجد شخص فى حوالى الخمسين من عمره ذو ملامح أجنبية يشرب زجاجة مياه غازية ، نظر لى مبتسماً وقال : الشبح . . أليس كذلك ؟

أجبته : نعم يا سيدى . . هل أتشرف بمعرفة من أنت ؟

فضحك ضحكة عالية وقال : ستعرفنى عندما تشاهد هذه الصور الفوتوغرافية .

على ضوء لمبة الفلورسنت المعلقة فوق الكشك أخذت أتأمل الصور الفوتوغرافية . . كانت صوراً فوتوغرافية ملتقطة من على ارتفاع كبيراً جداً لبائع لبن يركب بسكليته . . لحسن الحظ لم تكن ملامح العقيد أحمد قلقاسة واضحة فى الصورة .

قلت له بهدوء : مرحباً يا سيدى «روبرت جيتس» هل جهازك الآن يضيع وقته فى تصوير باعة اللبن فى الصباح الباكر وهم يمرون على زبائنهم فى الشرق الأوسط ؟

فأجاب : نعم . . نحن نضيع وقتنا فى ذلك ، خصوصاً عندما يكون بائع اللبن ليس بائعاً للبن .

ـ ماذا تقصد يا سيدى ؟

فقال : الذى أثار شكوكنا يا صديقى ودفعنا للاهتمام بالأمر ، هو أن أقساط اللبن كانت فارغة . . خبراء التصوير بالأشعة قالوا إن أقساط اللبن ليس بها لبن . . ولكن يا صديقى . . هل ستتكلم هكذا على قارعة الطريق ؟ ! ألن تدعونى لاحتساء قدح من الشاى فى بيتك . . على الأقل لكى ترى شريط الفيديو الذى صور العملية كلها .

المثل الشعبى المصرى يقول «قليل البخت يلاقى العظم فى الكرشة» والكرشة إذا لم تكن تعلم هى معدة الحيوان ، من المستحيل أن يوجد بها عظم ولكن هذا ما يحدث فقط لسيىء الحظ ، وهذا ما حدث لى بالتحديد ، بعد ساعات فى الصباح الباكر سيأتى العقيد أحمد قلقاسة ومعه خمسون مليون دولار ، القسط الأول من الصفقة نصيبى منها أنا والبروفيسير على سخانوف خمسة وعشرون مليون دولار ، وإذا صارت الصفقة على مايرام سيكون نصيبنا منها ١٢٥ مليون دولار عن القنبلة الواحدة . . يعنى مليار ومايتين وخمسين مليوناً عن العشر قنابل ، كل

هذا البناء الضخم من الأحلام فى الثراء انهار فى لحظة واحدة عندما فوجئت برؤية رئيس المخابرات المركزية الأمريكية ، شعر البروفيسير على سخانوف بالدهشة لرؤية هذا الشخص ذى الملامح الأجنبية وهو يركب معنا ولابد أنه قرأ على وجهى شعوراً بالاستياء والاضطراب جعله يشعر بقلق لوجود هذا الشخص وان كان لايعرف من هو . . أمام الفيللا ، توقفت بالسيارة ، ودعوتهما للداخل حاولت أن أبدو طبيعياً ولكنى فى الواقع كنت مضطرباً جداً .

فى صالة المعيشة قال روبرت : أهلاً يا بروفيسير سخانوف . كيف حالك . . أرجو أن تكون المعيشة قد طابت لك فى القاهرة .

ابيضّ وجه الرجل عندما ناداه روبرت باسمه . أردت أن أحسم الأمر فلا داعى للعبة القط والفأر ، ليكن اللعب على المكشوف ، قلت للبروفيسير بهدوء : بروفيسير على . . اسمح لى أن أقدم لك السيد / روبرت جيتس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية ، وهو فى زيارة إلى القاهرة كما ترى لإحباط مشروعنا . . أرجو أن تستمتعا بالدردشة معاً إلى أن أنتهى من عمل الشاى .

دخلت إلى المطبخ وقمت بعمل الشاى . هذه الدقائق كانت كافية لاستعادتى بعض هدوئى . عدت إليهما فى غرفة المعيشة . كان البروفيسير يجلس منهاراً فى حالة ضياع لا حد لها .

اعتذر روبرت عن تناول الشاى لأنه لا يتناول أى شىء بعد العاشرة مساءً .

أى مشتغل بالعمل السرى لايتناول أية مشروبات أو أطعمة فى مكان لم يسبق تأمينه . .

وبدأ روبرت الحديث : أيها السادة . . أنا آسف لما سببه لكما ظهورى من استياء وإزعاج . . ولكنى أتيت بنفسى لأقول لكما بوضوح شديد . . هذه القنابل لايجب أن تصل بحال من الأحوال إلى البلد العربى .

صرخ البروفيسير على : نعم ؟ . . ماذا تقول يا سيدى . . بعد ساعات سأمسك بيدى ملايين الدولارات . . هل جئت تطلب منى أن أتركها . . لماذا . . وباسم ماذا . . وباسم من ؟ .

رد روبرت : باسم الجنس البشرى . .

صرخ على سخانوف : نعم . . ؟ الجنس البشرى ؟ . . وهل عيّنك الجنس البشرى متحدثاً باسمه ؟ وهل الجنس البشرى يكون أفضل حالاً عندما أتعطل وأجوع . . ماذا تريدنى أن أعمل بعد أن أفنيت عمرى أنا وزملائى فى العمل فى الذرة . . ؟ ماهو المستقبل الذى ينتظرنى عندما تحرمنى من مهنتى . . أن أعمل ماسح أحذية ؟ . . لن أسمح لك بإحباط هذه الصفقة لأى سبب من الأسباب . . سنبيع هذه القنابل وسأحصل على الدولارات ثم أشترى جزيرة فى أى مكان لأقضى بها بقية عمرى .

قال ذلك ثم أشار بأصبعه مهدداً وكأن الشيوعى القديم قد استيقظ

بداخله : اسمع أيها الرجل المسئول عن حماية الامبريالية فى العالم . . أنا على استعداد لقتلك ودفنك فى حديقة هذه الفيللا إذا تطلب الأمر ذلك .

ضحك روبرت ضحكة عالية : ياعزيزى الشبح . . لماذا لاتشرح لصديقك أصول اللعبة . . هو يتصور أننى بمفردى هنا . . ويرى أنه من السهل قتلى ودفن جثتى .

قلت للبروفيسير : على . . اهدأ . . لاتفقد أعصابك . . لسنا وحدنا . . كل كلمة تقال الآن مسموعة فى عشرة أماكن على الأقل ، ومرئية أيضاً . . دقق فى زراير الجاكت التى يرتديها السيد/ جيتس . . ستكتشف أنها كاميرات صغيرة ، من المؤكد أن الرئيس بوش يرانا الآن يالألوان ، ويستمع إلى ترجمة فورية للحوار الدائر بيننا .

ابتسم روبرت جيتس وقال : والسيد جون ميجور . . والسيد ميتران . . والأمن القومى المصرى . .

قال البروفيسير على وهو يكاد يبكى : يا إلهى . . ألا يستطيع الإنسان أن يحمى حياته الخاصة فى هذا العصر ؟

روبرت : يستطيع إذا ابتعد عن صنع القنابل الذرية .

الآن لا صفقة قنابل ذرية ولا يحزنون ، أسلمنى ذلك لنوع من اليأس المريح وبدأت أستمتع باللعبة ، عاد روبرت يقول : يا عزيزى البروفيسير

. . لا داعى لأن تفقد أعصابك . . لقد قلت لك إن الصفقة لايجب أن تتم ولم أقل إنك ستحرم من الدولارات . . دعونا نفكر فى الطريقة التى تحصل بها على الدولارات دون أن تتم الصفقة .

لاحظ أنه استخدم كلمة تحصل ولم يستخدم كلمة ـ تحصلان .

فسألته : هل أتخطى حاجز السرية إذا سألتك كيف عرفتم بأمر هذه القنابل ؟ . . هل أبلغكم بها عميل من داخل النظام فى الدولة العربية الشقيقة ؟

ضحك روبرت ضحكة عالية وقال : حصل . . ولكن لم يلتفت أحد لتقريره ، وتصورنا الأمر خيالاً أو دعابة أو نصباً . . ولم نتنبه إلا بعد ورود تقارير من عدة عواصم تشير إلى نفس الموضوع . . عند ذلك أخذ الأمر بالجدية الواجبة ، هناك تقارير متابعة من عملائنا فى الاتحاد السوفييتى عن علماء الذرة السوفييت . فجأة لاحظنا اختفاء البروفيسير على سخانوف من جمهورية قرعستان ، وبالمزيد من التحريات عرفنا أنه ينحدر من أصول مصرية . . قال المحللون عندنا أنه سيحاول اغراء المصريين بصنع القنبلة ولكن المصريين سيرفضون . . وأعتقد أن ذلك حدث فعلاً . . إذن سيحاول إغراء أى شخص بالإنفاق على مشروعه ثم بيع القنابل لدولة عربية ، كثفنا من حركة الأقمار الصناعية فوق القاهرة، صوبنا كاميراتها إلى محطات المخابرات التابعة للدول العربية المهتمة بالحصول على قنابل ذرية . . تابعنا بدقة تحركات مسئولى المخابرات التابعين لهذه الدول . . إلى أن وصلنا إلى هذا الفيلم .

أخرج روبرت جيتس من جيبه شريط فيديو ووضعه فى جهاز الفيديو فشاهدنا فيلماً يصور العقيد قلقاسة خارجاً من منزله متنكراً فى هيئة بائع لبن ثم وهو يسير فى شوارع القاهرة فى الصباح الباكر إلى أن وصل إلى الفيللا .

قال روبرت معلقاً : واحد من رجالنا صاح عند رؤية هذه الفيللا : هذه الفيللا فى منطقة الهرم ويسكنها الشبح المصرى . . الباقى سهل بالطبع .

سألته : ولماذا لم ترسل واحداً من رجالك ؟ . . لماذا لم تكتف بإبلاغ المخابرات المصرية لتتولى هى إحباط هذه الصفقة ؟

أجاب : لكى أراك وأتحدث معك . . لقد قضينا سنوات طويلة يصارع كل منا الآخر . . والآن جاءت الفرصة التى تعرف فيها بوضوح من فينا الأذكى والأقوى . . جاءت الفرصة التى أقضى فيها عليك ـ من الناحية المهنية ـ بالضربة القاضية .

فقلت له فى برود : لاتتحدث عن الذكاء يا سيدى . . تحدث عن التكنولوجيا المتطورة والأقمار الصناعية . . أما إذا تعلق الأمر بالذكاء فاسمح لى أن أقول لك بوضوح . . القنابل ليست موجودة فى الفيللا، ولم تتسلمها بعد الدولة العربية الشقيقة . . والدولارات موجودة فى حساب سرى باسمى وباسم البروفيسير على . . والآن كن ناضجاً وتخلَّ عن أوهام القوة ودعنا نتحدث بغير لف أو دوران . . كم تدفعون ثمناً

لهذه القنابل ؟ . . أنا شخصياً لست متحمساً لبيعها للدولة العربية الشقيقة . . ولكنى أريد مبلغاً كبيراً أنا والبروفيسير على . . إذا لم نتفق على المبلغ المطلوب فى ظرف ساعتين فستحصل الدولة العربية على القنابل . . أنا لست أهددك . . أو أبتزك . . أنا فقط أريد حماية هذا العالم المسكين من التشرد والضياع .

قال روبرت وهو يصر على أسنانه : ليس فى ميزانية أمريكا بند لشراء قنابل ذرية . . فقلت له وأنا أنهض واقفاً . . حسناً يا سيدى . . دعنا نتحدث عندما يتم تدبير هذا البند . . هل أقول لك الآن تصبح على خير ؟

الرئس بوش يتدخل :

هنا يثور سؤال ، هل كان الشبح يكذب عندما قال إنه لا توجد قنابل فى الفيللا ؟ بالقطع كان يكذب محاولاً الإفلات من الموقف ، لأنه لم يخبرنى بأنه قد هرب القنابل من الفيللا ووضعها فى مكان آخر . بالإضافة للاضطراب الشديد الذى استولى عليه ـ طبقاً لما قاله لى ـ بظهور رئيس المخابرات الأمريكية على مسرح الأحداث ، عندما قلت له ذلك ضحك طويلاً وأجاب ، كانت كذبة . . ولم تكن كذبة .

فطلبت منه تفسيراً لذلك فأكمل حكايته « ع . س» .

أنت تذكر أننى دخلت المطبخ لدقائق أعد الشاى ، فى هذه الدقائق

ضغطت على زرار معين فى المطبخ ، هذا الزرار يعتبر من أهم عناصر تأمين الفيللا ، لأنه يفتح على الفور خطاً لاسلكياً بينى وبين منزل هند سكرتيرتى الخاصة . كنت أعرف بالطبع أن هند غير راضية عن هذه الصفقة وغاضبة منى ، ولكن من المؤكد أنها لن تتركنى فى هذا المأزق ، لقد استمعت هند وهى فى بيتها لكل كلمة من الحوار الدائر بيننا ، وهكذا فهمت أننى فى مأزق خطر ، وأن عليها أن تأتى فوراً إلى الفيللا وتخفى القنابل . قبل ذلك عليها أن تتصل بالعقيد أحمد قلقاسة وتحذره من القدوم بالمبلغ وهذا هو ما فعلته هند بالضبط ، اتصلت به تليفونياً ولم تفصح عن شخصيتها واكتفت بأن أسمعته جملة واحدة من أغنية نجاة : لا . . لا . . لاتكذبى ، إنى رأيتكما معاً .

ففهم بذكائه الحاد أن هناك خطراً يتهدد الصفقة وأن جهازاً معادياً قد كشف الصفقة بعد أن رآنا معاً . . بعد ذلك جاءت هند إلى الفيللا وتسللت بهدوء إلى المعمل وأخذت القنابل وأخفتها فى مكان أمين .

أعود الآن إلى جلستنا فى غرفة المعيشة ، بعد أن أعلنت أن القنابل غير موجودة فى الفيللا ، اهتز روبرت جيتس للحظة واحدة ، ثم تماسك وقال : أنت تكذب يا سيدى . . هى موجودة فى مكان ما فى هذه الفيللا ، سأستخرجها أمامك الآن ولو كانت مدفونة على عمق ألف متر.

فرددت عليه : خذها مجاناً يا سيدى إذا عثرت عليها .

أخرج روبرت من جيبه جهاز «فاكس» صغير وضغط على بعض الأزرار وهو يشرح لنا ما يفعله بابتسامة : جهاز «الفاكس» هذا متصل بمعمل فضائى ، المعمل الفضائى مزود بكاميرا اليكترونية تلتقط صوراً الآن بالأشعة لمنطقة الجيزة والأهرامات . . لكل سنتيمتر فيها . . وهو قادر على كشف القنابل المدفونة تحت الأرض . . اتفضل . . هذه صورة للفانلة التى ترتديها وهذه ماركتها .

كانت الصورة بالفعل تظهر جزءاً كبيراً من ملابسى الداخلية . .

قلت له ساخراً : لنفرض أننى خبأت القنابل فى حى آخر . . فى حى الزمالك مثلاً .

عند ذلك اسمعنى أصوات « بيب . . بيب . . . بيب » صادرة من جهاز «الفاكس» وقال : القمر الصناعى الخاص بمنطقة الزمالك أعطى «تماماً» بأنه لاتوجد قنابل ذرية . . كما أن بقية الأقمار المخصصة لوادى النيل أعطت «تماماً» بأنه لا توجد قنابل ذرية . . التركيز يتم الآن على تصوير منطقة الهرم . بعد لحظات ظهرت صورة القنابل واضحة على ورقة قذف بها جهاز «الفاكس» فقال بانتصار : هذه هى القنابل .

ـ خذها يا سيدى ، كما قلت لك من قبل ، خذها إذا عثرت عليها .

أنت تعلم أنه ليس من حقى أن أفتش هذه الفيللا . . وكل أملى أن تكون عاقلاً بما فيه الكفاية وتعطينى هذه القنابل بنفسك حرصاً على مستقبل الجنس البشرى .

ـ فتش الفيللا يا سيدى ، أنا أعطيك الحق فى تفتيشها . . المعمل الفضائى أرسل صورة تؤكد أن القنابل موجودة هنا . . حسناً فتش الفيللا وخذ القنابل ولاتضيع وقتى ووقتك .

نهض روبرت وأخرج من حقيبته عداد «جيجر» صغيرا ، وهو العداد الذى يكشف عن أى إشعاع ذرى مهما كان ضئيلاً ، كانت أول غرفة بحث فيها هى غرفة المعمل ، ولم يجد القنابل هناك فشعرت بالارتياح ، لقد خبأتها هند فعلاً ، لمدة ساعتين ظل يبحث عن القنابل مستعيناً بكل أجهزته فلم يجدها ، فتخلى عن ثقته الشديدة بنفسه وبمعداته وحاول أن يستميل على سخانوف . وقال له فى لهجة ودية : بروفيسير . . سلمنى القنابل وأنا أضمن لك أن تعيش بقية حياتك فى نعيم .

تدخلت قائلاً : البوفيسير على لايعرف مكانها . . ومن فضلك لاتتحدث معه تحدث معى . .

فى تلك اللحظة ظهرت هند ، قدمتها له فقال : من المؤكد أنك أنت التى أخفيت هذه القنابل . .

فردت عليه ببساطة : نعم . . هذا ما حدث . . والآن اسمحوا لى أن أتكلم . . أنا الآن أمتلك هذه القنابل وهذا يعطينى الحق فى حسم هذا الموضوع وفقاً لما أراه . . خصوصاً بعد أن فشلت أنت فى العثور عليها بكل معداتك وبالرغم من تأكدك من وجودها . . سأقوم بتسليمك هذه القنابل بشرط أن تتعهد بالعثور على وظيفة لائقة للبروفيسير على فى

أوروبا أو فى أمريكا . . وأن تكتب له شيكاً بمائة ألف دولار ينعش نفسه بها من بند الحوافز والمكافآت . . وأن تكتب شيكاً آخر بمبلغ ألف دولار باسم الشبح وهو المبلغ الذى أنفقه فى صنع هذه القنابل . . بعدها سأسلمك القنابل ونغلق ملف هذا الموضوع نهائياً .

فى تلك اللحظة حدث شىء غريب ، سمعنا صوتاً يقول بالإنجليزية : نفذ يا روبرت ، هذا اقتراح ممتاز وأنا أوافق عليه .

رد روبرت : حاضر يا سيدى الرئيس سأفعل . . ولكن بعد أن أرى القنابل وأتسلمها .

فعاد الصوت يقول : نفذ ما أقوله لك ، هند إنسانة شريفة وهى تعنى ما تقول .

فرد روبرت حاضر يا سيدى الرئيس .

كان الصوت هو صوت الرئيس بوش ، الواقع أنه يعرف هند منذ وقت طويل ويثق بها فقد أنقذته من ورطة قديمة لم يحن الوقت بعد للكشف عنها .

أخرج روبرت جيتس ورقة بيضاء عليها شعار مكتب الرئيس الأمريكى وكتب تعهداً بالعثور على وظيفة لائقة للبروفيسير على ، ثم كتب له شيكاً بمائة ألف دولار ، ثم كتب لى شيكاً بألف دولار ، بعد ذلك خرجت هند وعادت بعد دقيقة واحدة تحمل حلة ألومنيوم ،

كشفت غطاء الحلة ، كانت ممتلئة حتى حافتها بالملوخية . أمسكت ملعقة خشبية كبيرة وبدأت تخرج من أعماق الحلة القنابل الذرية واحدة بعد الأخرى بحرص شديد ، بينما روبرت جيتس والبروفيسير ينظران لها مصعوقين . قالت هند : الملوخية هى السائل الوحيد الذى يخدع عداد «جيجر» لأنها تصدر نوعاً من الغازات يعطل وصول الإشعاع الذرى إلى الجهاز . . ولذلك فشل السيد / جيتس فى اكتشاف القنابل التى خبأتها فى الثلاجة .

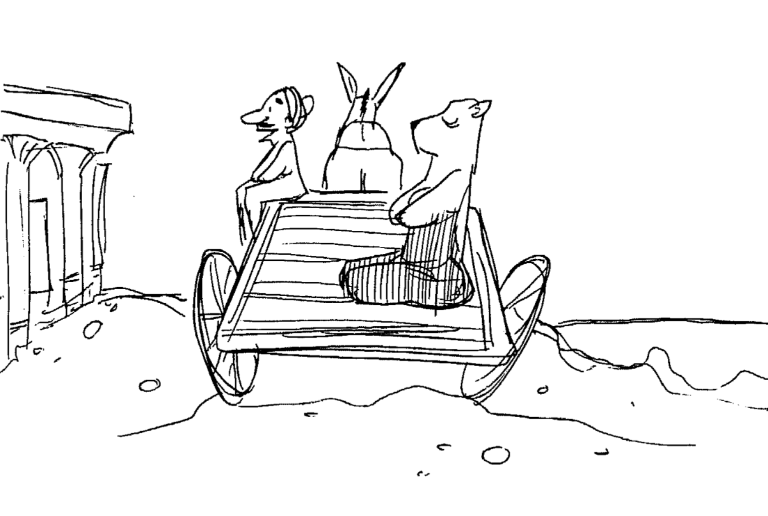
نهاية العملية :

بناء على أوامر من الرئيس بوش انتهت حكاية صنع القنبلة الذرية الخاصة ، فبناء على تدخل من هند ، وافق رئيس المخابرات الأمريكية على إعطاء البروفيسير على سخانوف مائة ألف دولار ، ليبدأ بها حياته ، كما دفع ألف دولار للشبح ، وهو المبلغ الذى أنفقه على صنع القنبلة . أما البروفيسير على فقد تم إلحاقه بوظيفة هامة فى مصنع أدوية ومستحضرات تجميل بمدينة لوس أنجلوس ، كما حصل على الجنسية الأمريكية ، وتزوج من حسناء أمريكية من أصل بولندى تعمل معه فى نفس الشركة ، أما العقيد أحمد قلقاسة ومبلغ الخمسين مليون دولار ، فقد اتضح فيما بعد أن المبلغ كان تحت تصرفه بالفعل وعند إلغاء الصفقة وسوس له شيطانه أن يحتفظ بالمبلغ وأن يهرب به إلى أوربا ويعيش هناك تحت اسم مستعار ، ولكن جهاز المخابرات

التابع لبلاده تمكن من معرفة محل إقامته فقام بتصفيته واستعاد جزءاً من رأس المال . وبذلك يكون ملف هذه العملية قد أغلق إلى الأبد . ومع ذلك فمن المحتمل ، وأنت تقرأ هذه السطور أن يكون هناك شخص ما فى هذه المنطقة يحاول الحصول ، أو صنع قنبلة ذرية خاصة .

وفى اليوم التالى للقائى الأخير مع الشبح ، اتصلت به لأهنئه بحلول شهر رمضان المعظم فردت علىّ هند وأخبرتنى أنه طار إلى الأقصر لمعاونة الأمن هناك فى العثور على تمثال «سخمط» المسروق من معبد الأقصر . . بعدها بيومين اتصلت بى هند وأخبرتنى أنه أنهى مهمته فى الأقصر بنجاح وسيعود إلى القاهرة بالطائرة مساءً ، وأنه يدعونى لتناول السحور معه ، وعلى مائدة السحور قص علىّ الشبح حكاية لاتصدق عن سرقة الآثار المصرية .

«ع . س».





العربجيان

لم تشر الصحف بكلمة واحدة إلى الدور الذى قام به الشبح فى القبض على العصابة التى سرقت تمثال «سخمط» من معبد الأقصر وهذا أمر طبيعى ، فهو حريص على إخفاء دوره عندما يشترك فى مهمة من هذا النوع . ولكن الأمر المدهش هو تلك السرعة المذهلة التى تمكنت بها أجهزة الأمن من العثور على التمثال والقبض على اللصوص ، تلك السرعة التى تحمل بصمات الشبح . ولذلك عندما دعانى لتناول السحور معه فى فيللته فى منطقة الهرم ، سألته فى لهفة عن تفاصيل رحلته فضحك وأجاب : ولا حاجة . . دول شوية عيال هواة . . اكتشفتهم فى نصف ساعة .

ثم أراد أن يغير الموضوع غير أننى أصررت على أن يحكى لى تفاصيل ما حدث ، فاستجاب لى وأخذ يقص تفاصيل رحلته السريعة إلى الأقصر بينما هند سكرتيرته الخاصة تعد مائدة السحور .

«ع . س » .

بعد أن نشرت الجرائد خبر سرقة التمثال ، لم أفكر فى الأمر كثيراً . فالآثار المصرية تسرق كل يوم بل فى كل لحظة ، ويتم تسريبها خارج البلاد لتأخذ مكانها فى قصور الأغنياء والهواة أو المتاحف . . غير أن مكالمة تليفونية من صديق عزيز يحتل منصباً هاماً لاداعى لذكر اسمه ، جعلتنى أتحمس للسفر إلى الأقصر ، وفى الطائرة بدأت أتذكر ما أعرفه عن هذا التمثال ، هو تمثال لداعية الحرب عند المصريين القدماء ، وهو على هيئة لبؤة يعلو رأسها قرص الشمس ، لاحظ أنها ترمز للحرب بكل شرورها ، والمصريون كانوا يكرهونها بشدة . . وحتى الآن مازال اسمها يتردد فى القرى المصرية وفى الأحياء الشعبية ، إن الجرائد نشرت اسمها «سخمت» بينما النطق الحقيقى للاسم هو «سخمط» بالطاء وليس بالتاء والفعل منه «يُسَخْمِطُ» بمعنى يؤذى ، أو يرتكب شيئاً بشعاً . ومن الشائع أن تسمع إحدى الأمهات تعنف ابنها صائحة : كده يا ولد سخمطت هدومك ؟ . . يسخمطك يا بعيد !

وأحياناً تقال على سبيل الاحتقار والسخرية : إيه يا خويا السخماط ده ؟

أما كلمة السخام أو يسخّم فليست لها أصول فرعونية ولا صلة لها بالسخمطة . أعود إلى حادث السرقة ، بعض الصحف قالت إن وزنه نصف طن وأنه لابد من سيارة نقل لتحميله عليها ، ولابد من ونش لرفعه من مكانه ، كما ذكرت صحيفة أن رجال المباحث عثروا على آثار عجلات عربة كارو فى مسرح الجريمة ، وفى بعض الصحف كان هناك

تلميح إلى أن الفاعل ربما يكون عضواً فى بعثة آثار أمريكية كانت تقوم بعمل ترميمات للآثار فى الموقع وانتهت من عملها قبل حادث السرقة بيوم واحد .

أخذت أفكر فى خطة البحث ، استبعدت تماماً أن يكون السارق أحد أعضاء البعثة فالعقل الغربى عندما يخطط لسرقة فى مجال الآثار فهو يسرق ماخف وزنه وغلا ثمنه ، عدة تماثيل صغيرة مثلاً من داخل فاترينة مغلقة ، ويحرص على أن يتركها لك مغلقة . كما أنى أستبعد أن يستخدم عربة كارو فى نقل التمثال ، وحتى إذا استخدمها فسوف يحرص على إزالة آثار عجلاتها . باختصار لابد أن يفكر فى وسيلة أكثر تعقيداً . ولكن من الواضح أن توقيت السرقة قصد منه أن تتجه الشبهات لهذه البعثة .

غير أن الأمر المؤكد هو وجود عربجى وعربة كارو فى الحادث ، حسناً المطلوب الآن البحث عن هذا العربجى وهذه العربة من بين آلاف العربجية فى الأقصر .

فى مطار الأقصر استقبلنى صديقى اللواء عبد الرحمن أحمد معانقاً ، لم أكن قد رأيته منذ سنوات طويلة ، صحت به عندما شاهدته فى المطار، عملوها فيكم الأمريكان ؟ !

فضحك طويلاً ثم أخذنا نتحدث همساً ، أدرك على الفور مقصدى من هذه الجملة ، بعد دقائق ستملأ الأقصر كلها إشاعة بأن الأمن يحصر

شكوكه فى بعثة الترميم الأمريكية ، عند ذلك يطمئن اللصوص ويتصرفون بشكل طبيعى وبلا حذر .

اتجهنا على الفور إلى معبد الأقصر وألقيت نظرة فاحصة على المكان ، كان الخفراء هناك فى أماكنهم ينظرون إلينا فى خجل وعجز ، أخبرنى صديقى أن التحقيق معهم لم يصل لشىء، وهم فى الغالب كانوا نائمين عندما حدثت السرقة ، تحدثت معهم وأدركت على الفور أنه ولا واحد فيهم له صلة بالحادث ، أخرجت من جيبى مائة من الجنيهات وطلبت من أحد الخفراء واسمه عم صديق أن يؤدى لى خدمة .

ـ تحت أمرك يا سعادة الباشا .

قلت له : بعد ساعة سيصل القطار السريع ، سنيزل منه شخص اسمه فتحى عبد الستار ومعه عشرة حقائب كبيرة وخمسة صناديق خشبية، خذ المائة جنيه هذه . . استأجر عربة كارو وحمّل عليها هذه الأشياء ، واطلب من الأستاذ فتحى أن ينتظرنى فى بوفيه المحطة .

قال الرجل بأدب : مائة جنيه كثير يا سعادة الباشا .

فرددت عليه مجاملاً : يا راجل ، كل سنة وأنت طيب ، الحاجات ثقيلة وستحتاج لشيالين أقوياء .

ذهبت وصديقى إلى الأوتيل حيث أفطرنا ، سألنى اللواء عبد الرحمن: من هو فتحى عبد الستار الذى سيأتى فى القطار السريع ؟

أجبته : لا يوجد شخص بهذا الاسم ، ولا توجد حقائب ولا صناديق ، هناك عربجى قام بتحميل التمثال على عربته ، هذا العربجى قريب من الخفراء ، يعرفهم ويعرفونه ولكنهم لا يتصورون أنه لص ، سيذهب الآن عم صديق مسرعاً إلى هذا العربجى ويطلب منه الذهاب إلى المحطة لأداء المهمة التى كلفته بها .

ـ لنفرض أنه لم يجده وذهب إلى عربجى آخر .

ـ سيجد ، أن اللص سيحرص على التواجد فى الأقصر ، وسيقوم آخرون بنقل التمثال إلى القاهرة ، أو إلى الإسكندرية . . كما أنى أستبعد أن يتم تهريبه فى سيارة نقل ، لأنهم يعرفون أن كل سيارات النقل سيتم تفتيشها بدقة ، إننى أتصور أنهم سينقلون التمثال على طريق النيل أو عن طريق البر فى سيارة أجرة أو ملاكى . . هيا بنا إلى المحطة .

وصلنا إلى محطة القطارات فى الأقصر قبل وصول القطار بدقائق ، كان هناك عم صديق ومعه اثنان من العربجية مفتولا العضلات ، أخبرتهم أن الحقائب ستصل فى الصباح ولكننا نريد العربة الكارو لإجراء تجربة بسيطة داخل معبد الأقصر . اصفر وجها العربجيين وظلا صامتين ، طلبت منهما أن يمرا بالعربة بالقرب من قاعدة التمثال المسروق ، كان واضحاً حتى للأعمى أن آثار عجلات العربة مطابقة تماماً لنفس الآثار التى تركها اللصوص .

قلت له بالانجليزية : هذه هى العربة التى تم تحميل التمثال عليها

. . وإذا جاء خبراء المعمل الجنائى الآن فسيؤكدون نفس الحقيقة .

نسيت أننى فى الأقصر وأن كل البشر فيها يعرفون اللغة الانجليزية ، فهم عم صديق وبقية الخفراء ما قلته ، وفوجئنا بهم ينهالون ضرباً على العربجيين : يا كلاب . . . يا خونة . . ياخونة العيش والمش !

بل إن واحداً منهم جرى بعيداً ثم عاد بسرعة ومعه بندقية لا أعرف من أين أتى بها ثم عمرها أمامنا وصاح : التمثال فين يا كلاب يا ولاد الكلب . . أبعد يا سعادة الباشا . . أبعد لما اجتلهم . .

قلت لصديقى : خلاص . . سيبه يموتهم . . يستاهلوا . . بس احنا لينا طلب عند حضرتك ، موتهم بعد ما نمشى احنا من هنا . .

وهنا صرخ أحد العربجية : أنا ماليش دعوة . . أنا شلت التمثال بس . .

وهنا صاح عم صديق : يسخمطك يا بعيد . . ما تعرفش إن التمثال ده بيسخمط أى حد يلمسه . . ده أنت حاتتسخمط سخمطة فى السجن . .

فى مبنى المباحث تمت سخمطة العربجيين ، ولابد أن السخمطة كانت حاسمة لأنهما اعترفا بكل التفاصيل وبذلك أمكن القبض على بقية العصابة عند سوهاج وهى تخفى التمثال فى عربة ركاب بيجو .

ونحن نأكل القطايف اللذيذة التى صنعتها هند بنفسها ، سألت

الشبح : إذا كانت لديك تلك القدرة الخارقة . على البحث الجنائى لماذا لم تشترك فى البحث عن الآثار المسروقة من المتحف .

أجابنى بهدوء : لم يطلب منى أحد الاشتراك فى البحث . . وفى مهنتنا ، لاداعى للتطفل ، ففى أحيان كثيرة يكون إعلان اسم السارق له آثار أخطر بكثير من عملية السرقة نفسها .

سألته : ماذا تعنى ؟

قال وهو يشرب شفشق قمر الدين : كل سنة وأنت طيب . . كل كنافة .





رئيس الوزراء .. والست بطة

لم أشعر من قبل بمثل ذلك الحزن الذى شعرت به عندما قرأت ذلك الخبر الذى طيرته وكالات الأنباء ، نقلاً عن بعض الصحف الإنجليزية الصفراء ، والذى تناول قصة العلاقة بين السيد / جون ميجور رئيس وزراء انجلترا والسيدة رئيسة الطهاة فى منزله ١٠ داوننج ستريت . والسبب فى حزنى هو أننى شخصياً كنت السبب فيما حدث وسيحدث من متاعب لرئيس الوزراء فى أقدم الامبراطوريات فى العالم . والتى كانت إلى عهد قريب لا تغيب عنها الشمس . لقد كنت أنا الذى عرفته بالسيدة الطباخة التى أوقعته فى حبائلها وأنسته فى لحظات ضعف بشرى مشروع ، زوجته وأولاده وواجبه وجلال منصبه . كنت دائماً أسخر من المثل الذى يقول إن الطريق إلى قلب الرجل هو معدته ، ولكنى الآن أقر وأعترف علنا بصحة هذا المثل ، نعم أيها السادة ، الطريق إلى قلب أى رجل هو معدته ، حتى لو كان اسمه جون ميجور .

دعنى أحكى الحكاية بكل تفاصيلها حرصاً على علاقتنا بالغرب فأنا

أخشى أن تتصور المخابرات الإنجليزية بعد أن تكتشف دورى فيها أن هذه السيدة أوقعته فى حبائلها لحساب بعض الدوائر العربية .

فى الخمسينات وقبل خروج الإنجليز من مصر ، كان السيد «دونالد دك» يعمل مستشاراً ثقافياً وإعلامياً بالسفارة الإنجليزية بمصر ، وبعد خروجه إلى المعاش ظل على علاقة بالمنطقة ومثقفيها حتى بعد أن استقر به المقام فى لندن ، وتوفت زوجته الأولى أم أولاده ، فتزوج بعدها بعدة شهور من سيدة إنجليزية جميلة وفاضلة ، ولقد كنت أحرص فى زيارتى المتعددة إلى لندن أن أزوره وأرحب بدعوته للعشاء ، ليس لأننى طفس أو بِطَنِى ، ولكن لأن زوجته الجديدة التى كنت أسميها الست بطة (ترجمة دك) كانت بحق أفضل إنسان على وجه الأرض يجيد طهو الأصناف الشرقية ، كانت قادرة على صنع حلة محشى ورق عنب كفيلة بأن تذهب بعقلك ، كما كان من المستحيل أن تتناول ملعقة واحدة من شوربة الكوارع بالبهريز التى تقدمها دون أن تتأوه بل قد تصرخ من فرط إحساسك باللذة كما حدث ذات ليلة للسيد / جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت ، وفصل بعدها فوراً من منصبه أيام الديكتاتورية . أما الكفتة بالدمعة الشرقية الأصيلة فكانت تستخدم سياسياً لقمع بعض رموز المعارضة الإنجليزية من بلاد أخرى .

هل دعيت للطعام عند أحد الكرماء فى المغرب ، فى كازابلانكا ، أو مراكش ؟ . . هل شعرت بعدها أنك تحلق فوق السحاب ؟ هذه مجرد بروفة للعشاء عند الست بطة .

وتوفى السيد / دونالددك إلى رحمة الله ، ولكنى حرصت وفاء منى لذكراه على زيارة أرملته الست بطة كلما ذهبت إلى لندن ، وذات ليلة ، بعد جلسة مفاوضات طويلة وشاقة مع السيد جون ميجور بخصوص بعض قضايا المنطقة التى أنوى الكشف قريباً عن أسرارها فى كتاب . بعد جلسة المفاوضات اقترح جون أن أبقى لتناول طعام العشاء ، وافقت، فقد كنت جائعاً بالفعل ، وعلى الفور تم إعداد المائدة ، سلطانية زبادى ،عدة أوراق خس خضراء ، قطعة بنجر ،بيضة مسلوقة ، كوسة ، جزر مسلوق فسألته بدهشة : ما هذا يا جون يا عزيزى ؟

ـ العشاء . هل تجده ثقيلاً بعض الشىء ؟

ـ بل أجده خفيفاً إلى درجة أتعرض معها للموت جوعاً .

فضحك جون وأخبرنى أن هذه الأصناف بتلك الكميات هى ما حددها وزير المالية .

ـ طب إيه رأيك . . ما تيجى نتعشى بره .

ـ يا عزيزى ، أنا أعمل رئيساً للوزراء ، قبل أن أتحرك خارجاً من هذا المنزل لابد من إخطار ألف شخص . . لابد من تأمين أى مكان أزوره .

فى تلك اللحظة لمعت فى ذهنى فكرة أن أدعوه للعشاء عند الست بطة فقلت له : عزيزى جون ، تخلص من أعباء المنصب قليلاً . . تمرد

على هذا الإطار يا رجل ، لن نذهب لأى مطعم أو فندق ، سنتعشى عند سيدة نصف إنجليزية ونصف عربية ، كانت زوجة لدبلوماسى إنجليزى كبير كان عضواً فى حزب المحافظين ، وهى سيدة أرستقراطية طيبة ، وحسنة السمعة وكتوم .

ـ حسناً ، لحظة واحدة ، سأخبر زوجتى لتأتى معنا .

غاب جون لدقائق ثم عاد ليقول : تناولت زوجتى طعام العشاء ودخلت إلى فراشها .

يا لسخرية القدر ، لو أنها جاءت معنا لكان التاريخ قد اتخذ مساراً آخر ، كان من الممكن القضاء على العلاقة التى حدثت فيما بعد بين جون ميجور والسيدة بطة فى مهدها ، ولكن هكذا أراد القدر .

تحدثت تليفونياً مع الست بطة : بطة . . عندك عشا ؟

ـ عندى . . حاتيجى لوحدك ؟

ـ لا . . معايا شخصية ها مة .

ـ تنوروا . . تعالوا .

يوجد شرطى واحد يحرس منزل رئيس الوزراء ، استدعاه جون وطلب منه أن يشترى لى علبة سجائر (جون لا يدخن) بمجرد أن ابتعد الشرطى عن الباب فى طريقه لكشك السجائر القريب ، خرج جون على الفور وقد أنزل حافة قبعته على وجهه ورفع ياقة البالطو ، ثم انتظرنى فى

سيارته على ناصية الشارع . بعد لحظات جاءنى الشرطى بالسجائر فوجدنى واقفاً أمام الباب فشكرته وانصرفت .

فى تلك الليلة جلسنا نأكل ثلاث ساعات متواصلة ، تأتى الأطباق فنجهز عليها ثم تحل محلها . مجاميع أخرى فنجهز عليها وهكذا ، وفى نهاية السهرة كتب جون رقم تليفونه السرى الخاص وأعطاه للست بطة وقال لها سيدتى . . لم يحدث فى التاريخ أن استمتع مخلوق بطعام كما استمتعت أنا هذه الليلة . . أرجوك . . اعطينى شرف خدمتك فى أى شىء تأمرينى به . . أى شىء رقبتى سدادة . . إن انجلترا والشعب الإنجليزى بخير مادام فيه عباقرة مثلك .

وعلى سبيل المجاملة ، أقسم أن ما حدث كان على سبيل المجاملة والتحية فقط ، اقترب منها وطبع قبلتين على خديها .

ولكنى للحقيقة والتاريخ لاحظت منذ تلك اللحظة تغيراً مفاجئاً على سلوك جون ، قال لى هامساً ونحن فى السيارة : هل تعرف ؟

ـ ماذا ؟

ـ خدها ساخن ، ساخن جداً .

فرددت عليه متجاهلاً ما يقول : بالفعل الشوربة كانت ساخنة جداً .

ـ لست أتكلم عن الشوربة .

ـ حسناً يا سيدى رئيس الوزراء . . أنت تقصد الكفتة .

ـ لا . . لست أقصد الكفتة . . أنا أقصد ما قلته .

انتهزت فرصة أن كلمتى «فراخ وخد» متشابهتان فى اللغة الانجليزية فقلت له : آه . . آه أنت تقصد الفراخ . . نعم ، التوابل فيها وخاصة الزعتر كانت ممتازة .

فعاد يقول وهو سارح تماماً : لقد سمعنا كثيراً عن الطعام الذى يأكل الإنسان أثناءه أصابعه . . ولكنها المرة الأولى التى أقابله .

فضحكت وقلت : نعم يا جون . . هذا فعلاً طعام تأكل صوابعك وراه .

ففوجئت به يقول الجملة التى بدأت أشم بعدها الخطر القادم ، قال بمرح : يا سلام ، هذا العشاء لايتطلب أن يأكل الإنسان بعده أصابعه . . بل يأكل بطة .

يا نهار أسود . . رئيس وزراء انجلترا يريد أن يأكل الست بطة .

تجاهلت تلميحه ، تغابيت وقلت له : تأكل بطة يا سيدى ؟ حسناً سأطلب منها أن تعزمنا على بط مطهو على الطريقة الدمياطى .

سكت طول الطريق إلى الفندق الذى أنزل فيه ، أنا أيضاً سرحت فى أفكارى المحزنة ، هل كان من الخطأ أن أعرفه على الست بطة ؟ هل

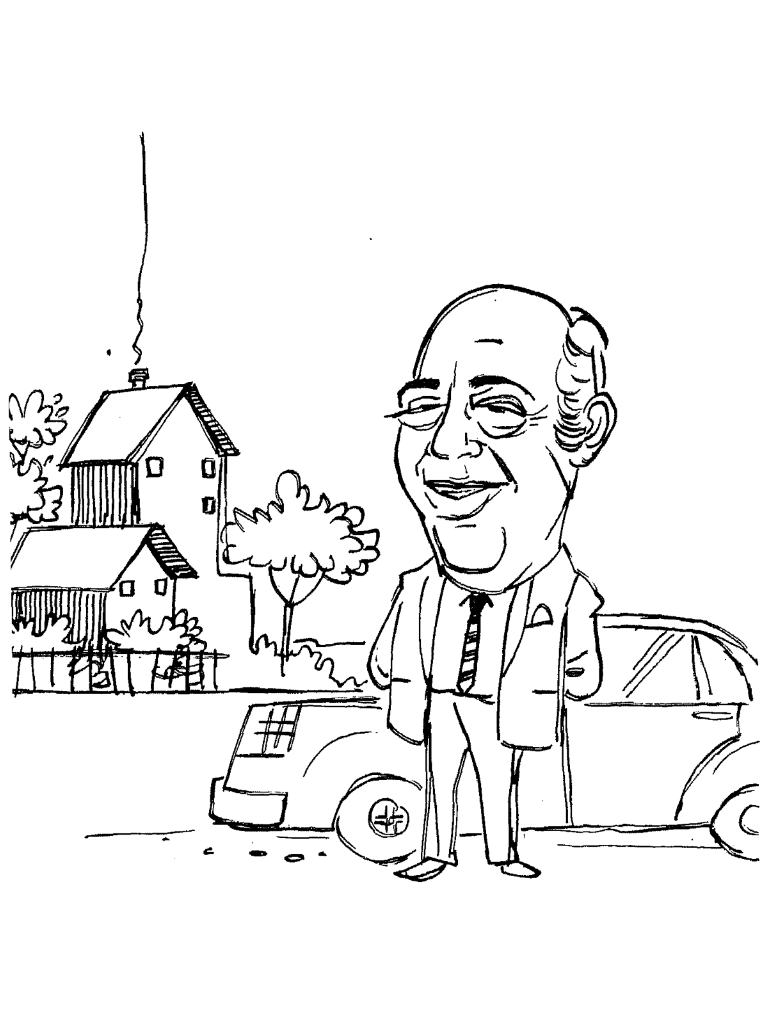
تصادف أن كيوبيد كان يزور لندن فى تلك اللحظة فألقى بسهامه القاتلة فى قلب رئيس الوزراء . . استر يارب !

أمام الفندق قال لى بطريقة عارضة : هو تليفون الست بطة رقم كام؟

أعطيته رقم التليفون ، هل كان من الممكن أن أرفض ، فكتبه فى نوتته الزرقاء الصغيرة المخصصة لأرقام تليفونات زعماء العالم .

ومرت الأيام والشهور ، وعرفت بعد ذلك من مصادرى الخاصة أن العلاقة قد توطدت بينهما وأنه عينها مسئولة عن المطبخ فى ١٠ داوننج ستريت .

يعلم الله أن هذه هى المرة الأولى التى أحكى فيها ما حدث فى تلك الليلة . ولكننى أبرىء هذا الرجل ، ولا أعظم الزعماء وأكثرهم صلابة فى التاريخ ، ولاتشرشل ولا ديجول ولا حتى أنا . . يستطيع مقاومة طاجن كوسة بالباشامل تقدمه الست بطة !





بار .. شي .. لونه
بار .. شى .. حا !

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا على وشك أن أدخل الفراش عندما دق جرس التليفون . فتساءلت ذلك السؤال الشهير الذى يهمس به عادة أبطال المسلسلات التليفزيونية فى مثل هذا الموقف: يا ترى مين هايطلبنى الساعة دى ؟!

رفعت سماعة التليفون ففوجئت بصوت صديقى «الشبح» : أهلاً يا شبح . . أنت فين يا راجل ، من شهور لم أستمع لصوتك ، خير ؟

رد باقتضاب : ارتد ملابسك ، سأمر عليك بعد ربع ساعة .

شعرت باضطراب وتساءلت : خير ؟ ألا تستطيع تأجيل ذلك للصباح ؟

فقال : لا . . نحن مدعوان الآن لمقابلة مسئول كبير لأمر فى غاية الأهمية .

لم أجد ضرورة لأن أسأله فى التليفون عن ماهية هذا الأمر ، فمن

عادته ألا يدلى بأى تفاصيل فى التليفون ، بعد ربع ساعة بالضبط كنت أقف أمام منزلى مرتدياً بدلتى الزرقاء المخصصة للقاء كبار المسئولين . جاء الشبح فى موعده بالضبط وانطلقنا بالسيارة نخترق شوارع القاهرة إلى أن وصلنا إلى «فيللا» فى قرية الحرانية بالقرب من الأهرام خصصها المسئول الكبير للقاءات المهمة التى تناقش فيها أمور البلد الخطيرة ، رحب بنا المسئول فى رقة وقادنا بنفسه إلى غرفة الصالون .

كانت هناك مجموعة كبيرة من علماء النفس والمفكرين ورجال علم الاجتماع والمسئولين عن الرياضة ، وبعض الرسميين من أصحاب المناصب الكبيرة ، أدركت على الفور بحاستى السابعة ماجئنا من أجله ، سيكون الموضوع هو الهزيمة المروعة لفرقنا الرياضية فى برشلونة ، بعد لحظات قضيناها فى التعارف ، انتقلنا إلى غرفة الاجتماعات ، وبدأ المسئول الكبير الحديث : أعتقد أن النتائج السيئة التى حققناها فى برشلونة قد هزتكم من الأعماق .

فهز بعض الموجودين رؤوسهم مؤمنين على كلامه بشكل يخلو من الصدق ، من الواضح أنهم استاءوا بالطبع ، ولكنهم لم يهتزوا من الأعماق ، ولا من غير أعماق ، والدليل على ذلك أن أحدهم تساءل معلقاً : لو سمحت لى يافندم ، ماذا حدث فى برشلونة ؟ لأننى لا أقرأ الصحف ، ولا أستمع للإذاعة ، ولا أشاهد التليفزيون ، أنا متفرغ لأبحاثى كما تعلم ، ماذا حدث هناك ؟

تجاهل المسئول سؤاله وواصل حديثه : ليكن معروفاً للجميع أن

الدولة لم تقصر ، ولم تبخل بالأموال على إعداد هذه الفرق الإعداد اللازم بالرغم من ظروفنا الاقتصادية السيئة ، لقد أقاموا فى أفخم الفنادق وأكلوا المربة والزبدة والبيض المقلى والمسلوق والأومليت والبسطرمة بالإضافة للفول فى طعام الإفطار ، أما الغداء والعشاء فقد كان فى البوفيه المفتوح وكان مفتوحاً على البحرى وناموا على مراتب محشوة بريش النعام، وسافروا بالطائرات ، وتم تخصيص مدلك لكل لاعب ، كما تم تخصيص مجموعة من المدللين لكل فريق .

وهنا قاطعه الشبح برقة : تقصد يا فندم مجموعة من المدلكين . . بالكاف . . ؟

فقال المسئول : لا . . مجموعة من المدللين ، باللام ، يقومون بتدليلهم وتدليعهم من أجل وضعهم فى الجو النفسى المطلوب ، كانت وظيفة هؤلاء المدللين أن يقولوا لهم ليلاً ونهاراً : يا حلاوتكم . . ده أنتم وحوش . . ده إيه الحلاوة دى . . عينى عليكم باردة . . اطلع يا واد يا بتاع السبعة آلاف سنة حضارة . . خش عليهم يا وحش . . يا جامد . .

وهناك فى برشلونة تولت السفارة المصرية والعاملون فيها رعايتهم . . ومع ذلك كانت النتيجة مخيبة للآمال والتوقعات ، أنا أريد منكم دراسة ماحدث ومعرفة الأسباب التى أدت لتلك الهزيمة ، لاتقولوا لى إن الرياضة متخلّفة عندنا ، ولاتقولوا لى إننا دولة فقيرة غير قادرة على إعداد الأبطال ، فهناك دول لاتحظى بعشر ما نحظى به من حضارة واستقرار

حققت نتائج مذهلة ، أريد دراسة من النواحى النفسية والاجتماعية والرياضية كما أريد دراسة أمنية من الشبح وصديقه الكاتب المسرحى «يقصد العبد لله » لاتتسرعوا أريد دراسة متأنية .

وهنا تنحنح أحد علماء الاجتماع وتخصصه علم الكلام : إذا سمحت لى يا فندم . منذ بداية الدورة وأنا غارق فى الأبحاث لمعرفة السبب فيما حدث .

ـ بماذا خرجت ؟

ـ خرجت بنتيجة قد تبدو غريبة ، ولكنها للأسف تكشف عن السبب الأساسى والوحيد لهزيمتنا ، السبب يا سيدى هو أننا كنا ننطق اسم برشلونة ، برشلونة ، بالشين . . وهناك حدثت الصدمة العصبية والنفسية للاعبينا عندما اكتشفوا . أنها برسلونة ، بالسين فأصيبوا عند اللعب بما نسميه صدمة اللغة ، هذه الصدمة سببت لهم اضطراباً تسبب فى هزيمتهم لأنهم كانوا يتساءلون طوال المباريات ، هل نحن فى برشلونة أم فى برسلونة ؟ لذلك كان من المحتم إعادة تأهيلهم على النطق الجديد قبل سفرهم ، هذا هو الخطأ الوحيد وهو ناتج من عدم الاستعانة بعلماء الكلام فى المجلس الأعلى للرياضة ، الأمر الذى نبهنا إليه كثيراً .

قاطعه الشبح : لست أفهم علاقة اسم برشلونة بالهزيمة . . وضح ما تقول .

وهنا أخذ العالم يشرح له بصبر ورقة وكأنه يكلم طفلاً صغيراً :

الكلمات فى حد ذاتها لا تعنى شيئاً ، ولكنها تثير فى الذهن معنى ، هذا المعنى يتحول إلى إطار نفسى يقيد الإنسان ويهزمه ، أو يسمح له بالانطلاق والانتصار . عندما تقول « بار . . شى . . » فإن المقطع «شى» هنا يستدعى فى اللاوعى مقطعاً آخر هو «حا» . . وهنا يشعر الإنسان فى أعمق أعماقه أنه حمار ، لأن المقطع لايقال إلا للحمير فقط ، وبذلك يشعر اللاعب أنه غبى ، بالطبع كل ذلك يتم فى اللاوعى ولا يتنبه له الإنسان نفسه ، وهذا أمر معروف فى علم النفس الرياضى ، أن يشعر الإنسان ظاهرياً بأنه لاعب عظيم ، بينما هو فى أعمق أعماقه على يقين من أنه حمار ، هذه المعرفة لا تصعد إلى السطح إلا عندما يلعب مع لاعبين ينطقون الكلمة الصحيحة ، برسلونة ، لأنها لا تحتوى على المقطع «شى» الذى يتبعه بالضرورة المقطع « حا » . .

وإذا أضفنا إلى ذلك كثرة عدد المرات الذى سمع فيها اللاعب هذا المقطع «شى» أثناء التدريبات أدركنا الأثر النفسى القوى الذى لايمكن إنكاره ، بدليل أنهم حققوا هزيمة لايتصورها مخلوق .

هز الشبح رأسه قائلاً : إننى أجد صعوبة فى تصديق ذلك ، فأنا أيضاً أنطقها بالشين طول عمرى ومع ذلك لا أعتقد أننى حمار .

فرد عليه العالم بابتسامة : لا شأن لى بما تعتقده ، قد تكون مخطئاً فى اعتقادك ، قلت لك إنها مسألة لا واعية تماماً لا ينتبه لها الإنسان بعقله الواعى ، إلا عندما يوضع فى موقف يكشف له عن حموريته الباطنة ، أو

بمعنى أصح المربوطة فى أعمق أعماق اللاوعى ، لو أنهم نطقوها برسلونة بالسين ، هنا كان سيستقر عندهم فى اللاوعى المقطع «سى» الذى يوحى بالقوة والسيادة ، لأن المقطع «سى» فى التراث الشعبى يعنى «السيد» لذلك نقول سى أحمد ، سى عبده ، سى إبراهيم ، لو أنهم تعودوا على نطقها بالسين كانوا سيذهبون إلى أشبانيا ، أقصد أسبانيا وهم يشعرون فى أعمق أعماقهم أنهم أسياد . . وليسوا شى . . حا . .

كان المسئول ينصت فى ضجر إلى الحوار الدائر بين عالم الاجتماع والشبح ، وأخيراً تساءل : أنا أعتقد أن هناك فرقاً أخرى كانت تنطقها بالشين ، ومع ذلك فازت بميداليات ذهبية . . فأجابه العالم على الفور: نعم يا سيدى ، هذا هو الشاذ الذى يثبت القاعدة ، أنا أتكلم عن القاعدة أما الاستثناء فلا يعنينى فى شىء . .

بعد ذلك قيلت آراء كثيرة ولكنها لم ترق إلى مستوى الموقف ، وبعد أن انصرفنا كانت الشمس قد بدأت الشروق على الأهرام ، وكان الشبح يقود السيارة صامتاً وفجأة قال لى : أمامنا مهمة شاقة . . ومع ذلك تصور أننى بدأت أفكر بشكل مختلف فيما قاله عالم الاجتماع . . أنا أعتقد أن الإنسان ينهزم عندما يكف عن الإحساس بالعظمة .

المؤامـرة :

كان من رأيى أننا هزمنا فى الأوليمبياد لأننا لم نحقق الأرقام المطلوبة للفوز نتيجة لضعفنا الشديد ، غير أن الشبح كان من رأيه ألا نتسرع فى

إصدار الأحكام على لاعبينا ، فقد علّمته الأيام أن هناك دائماً أسباباً خبيئة خلف كل حقيقة واضحة ، وأن على رجل الأمن أن يبحث عنها بهدوء و إصرار.

كانت البداية مع مسئول إشرافى كبير فشلنا فى العثور عليه والحصول منه على موعد ، وأخيراً تركنا له رسالة تليفونية على السكرتير الآلى بأنه مدعو على العشاء فى فندق كبير فحضر على الفور ، وعلى مائدة العشاء بدأ يتكلم فى سخط : لاعبونا يستطيعون هزيمة أى فريق على وجه الأرض فى الألعاب الجماعية ، أما فى الألعاب الفردية فهم قادرون على الحصول على الميداليات الذهبية بل والألماظية أيضاً ، ولكن قلة الإمكانيات وانعدامها أحياناً هى التى وقفت عقبة فى طريقنا .

ـ حدثنا عن ذلك ، هذا هو بالضبط ما نريد أن نعرفه منك .

فرد بغضب : الجميع يتصورون أن الإمكانيات المطلوبة هى الإمكانيات المادية ولذلك يقولون ، لقد أنفقنا عليكم كيت وكيت ، بينما الإمكانيات المطلوبة هى الإمكانيات النفسية التى توفر للاعبين جواً نفسياً مناسباً يجعلهم قادرين على هزيمة الجبال وعبور المحيطات ، كيف أطلب من لاعب أن يهزم منافسه بينما هو محبط ، خذ عندك مثلاً واحداً من أبطال الوثب العالى ، لايمكنه الوثوب عالياً إلا بعد أن يأكل فتة كوارع بالخل والثوم ولحمة رأس ، وهو اللاعب المعروف «عبده طحال» تصور . . فوجئنا قبل اللعب بأنه لاتوجد لحمة رأس فى مطاعم

القرية الأوليمية ، اتصلنا بالسفارة فاعتذرت بقلة الإمكانيات ، أما القنصل فقد تهرب منا ، واضطر اللاعب المسكين إلى أن يأكل أكلاً أوروبياً لايتفق مع تقاليدنا وتراثنا ، فلم تهضمه معدته بسهولة ، كانت النتيجة أن اللاعب المسكين شعر بإحباط شديد أعجزه عن الوثب ، بل حتى عن المشى ، ستسألنى من المسئول عن ذلك ، أرد عليك ، المشرف الإدارى على الفريق هو المسئول عن ذلك ، كان يجب أن يعرف طلبات كل لاعب ويوفرها له قبل الذهاب إلى هناك . . حتى لايضطر هؤلاء الأولاد المساكين إلى أكل الفيليه المشوى والاسكلوب بانيه والإسكالوب ناتير وما أشبه .

ـ أنت تحدثنا عن حالة فردية من المستحيل أن تكون سبباً لهزيمة الجميع .

ـ أؤكد لكما أنكما ستجدان سبباً وجيهاً للإحباط عند كل لاعب هو المسئول عن الهزيمة ، شكرناه على معلوماته القيمة وانصرفنا فقد كنا على موعد مع هداف الفريق القومى «حسن سكود» . ومن المعروف أن هذه التسمية أطلقت عليه لعدم قدرة أى حارس مرمى فى العالم على صد قذائفه الصاروخية ، وفى المرات القليلة التى تمكن فيها حارس المرمى من صد الكرة التى يشوطها ، أصيب بتمزق فى عضلات اليد والصدر بل إن أحدهم نقل إلى المستشفى بعد إصابته بكسر أربعة أضلاع وسبعة أصابع بسبب تصديه للكرة ، أما إذا اصطدمت كراته بالعارضة الخشبية

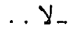
فهى تكسرها على الفور لذلك تحرص الفرق المنافسة على أن تكون قوائم الجون الثلاثة من الألومنيوم المتين أو الصلب .

من الغريب أنه فى كل المباريات التى لعبها فى الأوليمبياد لم يصوب فى اتجاه الجون تصويبة واحدة . وفى المرات القليلة التى شاط فيها على الجون كانت شوطاته ضعيفة لدرجة أن حارس المرمى كان يلتقط الكرة وكأنها وردة طائرة قذفت بها واحدة من المعجبات . قابلناه فى منزله ، قالت لنا والدته إنه لم يغادر غرفته منذ أن عاد من الأوليمبياد .

ودخلنا عليه بهدوء فوجدناه راقداً على سريره محدقاً فى السقف بشرود .

ـ حسن . . لقد جئنا لنسمع منك شخصياً الإجابة على سؤال يحيرنا ، لماذا لم تشط على الجون ؟ . . هل خفت أن تقتل حارس المرمى فيقبضوا عليك هناك ؟





ـ لا . .

ـ هل كنت محبطاً ؟

ـ لا . .

ـ هل كنت مصاباً ؟

ـ لا . .

ـ ماهى الحقيقة إذن ؟

فرد فى عذاب وألم : الحقيقة أننى أحب بلادى وأكره أن أعيش بعيداً عنها .

أدهشتنا إجابته ولكننا صمتنا لكى نشجعه على الاستمرار فى الكلام، فمضى يقول فى جمل متقطعة بصوت أقرب للهمس : فى الليلة السابقة على بدء المباريات قابلنى رئيس مجلس إدارة «تورو برسيمو» وهو ناد كبير من أشهر نوادى أوربا .

أخبرنى بأنه يتابعنى ويدرس طريقة لعبى فى مصر منذ زمن طويل . وأنه معجب بى ويريد شرائى لناديه ، وأن أعضاء مجلس الإدارة شاهدونى أثناء التدريبات ووافقوا على أن يدفعوا خمسة ملايين دولار خلوا للنادى الذى ألعب له ، بالإضافة لمليون دولار مرتباً شهرياً ، بالإضافة لفيللا وسيارة بالسائق وعروسة إسبانية تنحدر من أصل عربى أندلسى . شعرت فى البداية بفرحة لاتوصف ولكن بعد دقائق عندما أخذت أفكر فى الأمر على مهل اكتشفت أبعاد المؤامرة ، إن الغرب يسرق العقول من الدول النامية ، وهاهو يسرق لاعبى الكرة الممتازين ، ماذا يتبقى لجماهير الكرة فى بلادنا ؟ وهنا استجمعت قوتى وقررت أن أحبط هذه المؤامرة . لن ألعب بقوة . سألعب بمنتهى الضعف وبذلك أقضى على حماستهم لشرائى ، والحمد لله نجحت خطتى تماماً ، وهأنذا عدت لبلادى الحبيبة .

سأله الشبح : ألم يكن من الممكن أن تلعب بقوة وتنتصر فى الأوليمبياد ثم تعتذر لهم وتعود لبلدك .

وهنا ضحك حسن سكود فى ألم وقال : أعتذر لهم ؟ . . هل يستطيع مخلوق على وجه الأرض أن يعتذر عن قبول مليون دولار شهرياً وفيللا وسيارة وعروسة أسبانية من أصل عربى أندلسى ؟ . . لو أننى فعلت ذلك لقتلنى زملائى ومزقونى إرباً أو على الأقل أودعونى مستشفى الأمراض العقلية . . كانت الطريقة الوحيدة للقضاء على مؤامرة الغرب هى أن ألعب بضعف ، وبذلك أتمكن من العودة لجمهورى الحبيب .

• • •

ونحن نازلان على السلم قلت للشبح : مسكين . . لقد أصيب بالجنون .

فقال : بالعكس . . هذا الشاب عاقل تماماً ، قطاع عريض من البشر يفكر بطريقته ، أى خير قادم من الغرب هو مؤامرة ، والطريقة الوحيدة للتصدى لهذه المؤامرة هو أن نحتمى بالضعف والتخلف والبلاهة ، هذا تمجيد فى كل لحظة للتخلف والبلاهة ، كيف تتوقع من هذا الشاب أن يفلت من هذا المناخ الذى يحيط به . الواقع هذه القصة الطريفة التى قصها علينا لم تحدث جملة وتفصيلاً ، وهو لايعرف أنه يكذب هو يتخيل أنها حدثت حقيقة ، يصدق أنها حدثت ، أما الحقيقة فهى أنه اكتشف فى الملعب أن صورايخه فشنك ، هو سكود عندما يلعب مع أقرانه هنا ، أما هناك فهو لاشىء ، وعندما عجز عقله عن استيعاب هذه الحقيقة لجأ لاختراع الأوهام ، وأنا أؤكد لك أن قصته سيصدقها

الكثيرون لأن الحدود بين الواقع والوهم قد أزيلت ، ولم يعد من الضرورى الحصول على تأشيرة من العقل للمرور بينهما .

كان اللاعب الثالث الذى سنقابله هو بطل رفع الأثقال الشهير . . عبد الحميد أبو حديد . .

يا أم العواجز :

استطعنا بعد صعوبات جمة الوصول إلى مدرب رفع الأثقال المسئول عن الفريق ، لم يكن قد أفاق بعد من هزيمة فريقه ، عثرنا عليه مختبئاً فى بيت أسرته الريفى فى قرية قريبة من القاهرة ، قال لنا : أنا مندهش، أنا منذهل ، أنا متحير ، أنا مصدوم ، أنا حيران ، أنا زعلان ، أنا تعبان .

كان يردد هذه الكلمات فى بلاده ، طلبنا منه أن يحدثنا عن الأسباب التى أدت لهزيمة فريق رفع الأثقال فقال : لا أحد يتصور كمية سوء الحظ التى تعرضنا لها ، كان الأمل فى الحصول على الذهبية معقوداً على البطل عبد الحميد أبو حديد ، ولكنه خدعنى فأثناء التدريبات كان يبلغنى أنه حقق أرقاماً كبيرة ، بل مذهلة ولكن اتضح لى أنه كان يحسب وزن الحديد بالرطل وليس بالكيلوجرامات .

ـ وأين كنت أنت ؟ ألم تكن تشرف على التدريبات ؟

ـ كنت أشرف عليها ولكن من مكتبى . كنت مشغولاً بحساب بدل السفر والمكافآت ، ولقد اكتشفت هذا الخطأ فى آخر لحظة قبل السفر

بليلة ، وهناك فى أسبانيا حاولت أن أقنع المشرفين بحساب الرفعات بالرطل ولكنهم رفضوا ، وبعد ذلك جاءت مشكلة الدقيق ؟

ـ نعم ؟ . . الدقيق ؟ . . تقصد الخبز ؟! . .

ـ لا ، أقصد الدقيق ، هناك بودرة بيضاء ناعمة يضع فيها اللاعب كفيه قبل رفع الحديد لكى لا «تتزفلط» أصابعه ، ولكن عبد الحميد أبو حديد لم يكن يستخدم هذه البودرة ، كان يستخدم الدقيق الفاخر ، لأن استيراد هذه البودرة كان ممنوعاً لسنوات طويلة . ولذلك فشل هناك فى الرفعات الثقيلة ، أما الكارثة الحقيقية فقد كانت مترجم السفارة ، من المعروف أن اللاعب وهو يرفع الحديد يصيح صيحة عالية تطلق الطاقة الكامنة بداخله فتساعده على الرفع والنطر ، هناك من يقول : هوب . . أو هيلاهوب . . أو ياقوى . . أو سيد يا بدوى . . أما عبد الحميد فقد تعود من سنوات طويلة ، منذ أن كان يعمل شيالاً فى محطة مصر على أن يصيح : يا أم العواجز .

من أجل المظهر الحضارى اقترحت عليه أن يقولها باللغة الأسبانية تحية للدولة المشرفة على الأوليمبياد . . ولكن المترجم سامحه الله ترجمها بما معناه ، يا أم المساكين ، أو يا أم الضعفاء ، لأنه فشل فى معرفة كلمة العواجز بالأسبانية ، فكانت النتيجة أن عبد الحميد عجز عن أن يصيح الصيحة المناسبة ، لذلك فشل فى رفع الحديد ، فإذا أضفنا لهذه العناصر التى لم تكن فى الحسبان عنصر الأرض عرفنا السبب فى هزيمتنا .

ـ مالها الأرض ، أعتقد أنه كان يتدرب هنا واقفاً على أرض خشبية واللعب هناك يتم على أرض خشبية . .

ـ نعم ، ولكن نوع الخشب هنا مختلف تماماً عن نوع الخشب هناك .

ـ حسناً دعنا الآن من الماضى ولنفكر فى المستقبل ، ماذا تقترح للأوليمبياد القادم ؟

وهنا قال بصدق وحماس : أن نستعد له من الآن ، التدريبات لابد أن تبدأ الآن فى نفس المكان الذى سيقام فيه الأوليمبياد ، فى ولاية «أتلانتا» بأمريكا ، يجب أن يعيش اللاعبون فى نفس المناخ الذى سيلعبون فيه ، وأن يقيموا شهراً فى كل ولاية من أجل المزيد من التعرف على المناخ ، وأن يحصلوا على مكافآتهم وبدل سفرهم من الآن بنفس عملة البلد الذى سيلعبون فيه . . بالدولار . . على أن نبحث من الآن عن مترجم جيد يعطينا ترجمة جيدة وصحيحة لجملة يا أم العواجز باللغة الانجليزية ، وأن يتدرب عليها عبد الحميد من الآن لكى ينطقها بشكل طبيعى فى الأوليمبياد القادم .

ـ أنت مصر على إشراك عبد الحميد فى الأوليمبياد القادم . هل نفهم من ذلك أنك ستذهب بنفس اللاعبين ؟

ـ طبعاً . . لأنهم اكتسبوا خبرة كبيرة فى برشلونة ، من الحماقة أن نضحى بهذه الخبرة ؟

ـ إذا نفذنا اقتراحاتك ، هل تضمن لنا الفوز بميداليات ذهبية المرة القادمة ؟

فصاح غاضباً : هو أنا مغسل وضامن جنة ؟! . . احنا وحظنا بقى .

• • •

فى قريته القريبة من طريق مصر اسكندرية السريع قابلنا العداء الشهير «أبو سريع السريع » الذى كان أبطأ عداء فى الدورة . . الأمر المذهل أننا وجدناه يسابق القطار «التوربينى» السريع واستطاع أن يسبقه فعلاً وقال لنا أهل القرية : إنه أمر معروف لكل سكان المنطقة أن «أبو سريع» يجرى على الطريق الزراعى ويسبق سيارات البيجو بمنتهى السهولة ، وأنه أحياناً يضطر للإبطاء فى سرعته خوفاً من الرادار . وعندما انتهى من التدريب وجدنا فى انتظاره ، فرحب بنا ودعانا إلى منزله، وسأله الشبح : لماذا لم تجر بمثل تلك السرعة فى الأوليمبياد ؟ أنا شخصياً أجزم أنك أسرع شخص فى العالم ، لماذا فشلت هناك ؟

فقال أبو سريع بابتسامة حزينة : لأننى لم أتناول الأقراص .

ـ ولكنك تعرف يارجل أن تناول الأقراص المنشطة بكل أنواعها ممنوع تماماً .

ـ أعوذ بالله ، من قال إنى أتناول أقراصاً منشطة ؟ . . أنا أتناول أقراصاً مهدئة تسمى أقراص النسيان ، هى تجعلنى أنسى كل شىء

فأتحول إلى طائرة ، أو صقر ، أو حمامة ، هى أقراص مهدئة كتبها لى الطبيب ، أنا أعانى من مشاكل عديدة تجعلنى أجرى بشكل متوتر فوصف لى طبيب النادى هذه الأقراص ، وهناك فى برشلونة خوفنى منها المدرب ، قال من الممكن أن تظهر آثارها فى تحليلات العرق والبول فيتصوروا أنها أقراص منشطة ، فلم أتناولها .

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ فى بداية الجرى ، انطلقت كالصاروخ ، وفجأة وجدتنى أتذكر كل تفاصيل حياتى المؤلمة ، الفتاة التى أحبها وعجزى عن تدبير شقة مناسبة نتزوج فيها ، وظيفتى فى الحكومة ومرتبى الضئيل ، فشلى فى الالتحاق بوظيفة فى بنك استثمارى ، فلوسى التى أضعتها فى شركات توظيف الأموال ، حلمى المجهض فى أن أشترى سيارة ، . . . و . . . . و . . . بدأت الذكريات تهاجمنى فبدأت خطواتى تبطؤ إلى أن وجدتنى فى آخر الطابور ألهث من التعب . . كانت أقراص النسيان تساعدنى على التركيز فى الجرى فقط ، بهذه الأقراص كنت أتحول إلى طائر ، وبدونها تحولت إلى عربة كارو .

شعرنا بعطف كبير عليه وقال له الشبح : اسمع يا «أبو سريع» امتنع عن تعاطى أقراص النسيان .

ـ سأتحول لعربة كارو أو حصان عجوز عاجز عن الجرى .

لن نحرمك منها ، ولكنك لن تتناولها على هيئة أقراص بل على هيئة

خدمات ، سنتيح لك فرصة الحصول على شقة فى مكان قريب من عملك ، وستتزوج من الفتاة التى تحبها ، وسنعطيك مرتباً يتيح لك تحقيق حلمك فى الحصول على سيارة صغيرة وسنقتص لك من هؤلاء الذين سرقوا أموالك ، وبذلك لن تهاجمك الذكريات المرة وأنت تجرى . . هل تعدنا أن تواصل التدريب وأن تسبق السيارات والقطارات ، نريدك أن تتحول لطائرة .

فقال : الطائرة بطيئة ، فى هذه الحالة سأتحول لصاروخ .

عندما تركناه كنا نشعر بحزن لانعرف مصدره .

أبــو العـــلا :

عالى أبو العلا هو اللاعب الوحيد الذى كان حصوله على الميدالية الذهبية فى الوثب العالى أمراً مفروغاً منه ، وهو لاعب كانت تحكى عنه الأساطير قبل سفره إلى برشلونة . قيل لنا إنه عندما كان طفلاً كان يعبر أوسع ترعة بقفزة واحدة ، بل يروى عنه أنه لم يكن يستخدم المعدية عندما كان يعبر النيل أمام قريته ، ولم يكن يستخدم الكوبرى ، كان يوفر الوقت بأن يقفز إلى عنان السماء ويعبر النيل فى قفزة واحدة ، وعندما تحرينا عنه فى المنطقة التى يقيم فيها قال لنا صاحب كشك السجائر فى أول شارعهم ، إنه يسكن فى الدور الرابع ، وإنه فى أحيان كثيرة لم يكن يستخدم السلم أو الأسانسير ، كان يقف أمام المنزل ثم يصيح . . يا قوى . ثم يقفز قفزة عالية لينزل فى بلكونة الشقة .

كيف إذن لم يحصل على ميدالية ولو صفيحية ؟ وهل كان ما قيل لنا أثناء التحريات هو كذب وأوهام وخيال ؟ خصوصاً أننا سألنا صاحب كشك السجائر ، هل رأيته بنفسك وهو يقفز إلى بلكونة شقته فى الدور الرابع ؟

فقال إن زوجته المرحومة هى التى شاهدت ذلك ، وحكت له وهى على فراش المرض . وعندما ذهبنا إلى قريته لم نقابل شخصاً واحداً شاهد واقعة واحدة من وقائع قفزاته المزعومة بعينيه ، الكل سمع من الآخرين . وأخيراً قابلنا اللاعب نفسه . بدون إضاعة أى وقت سأله الشبح : لماذا هزمت هناك ؟

فوجئنا به ينفجر فى الرد بحماس : هذا هو السؤال الذى أحلم بأن يوجهه لى أحد منذ أن عدت من برشلونة ، لقد ذهبت إلى المجلس الأعلى للشباب والرياضة وقلت لكل المسئولين ، أرجوكم ، اسألونى . . أريد أن يسألنى أحد لماذا هزمنا هناك . . ؟ قدمت عدة طلبات وشكاوى ، أرسلت عشرات التلغرافات ومع ذلك لم يسألنى أحد . أنا سعيد جداً لأنكما وجهتما إلى هذا السؤال . . لقد هزمنا هناك يا سادة بسبب العِلْم .

حمدنا الله على أننا وجدنا أخيراً شخصاً يتكلم عن العلم ، سألناه : العلم ؟! . . ماذا تقصد . . ؟ تقصد أنك لم تتدرب على أساس علمى . . وأن الآخرين تدربوا على أساس علمى ؟

ـ لا . . أقصد التكنولوجيا الحديثة . . لقد راقبت اللاعبين الأجانب

باهتهام ، فأدركت على الفور أنه ولا مخلوق على الأرض يستطيع أن يقفز هذه القفزات العالية بقوته الذاتية .

ـ تقصد أنهم كانوا يتعاطون المنشطات ؟

ـ لا . . السر كله فى الحذاء الكاوتش الذى يرتدونه .

ـ ما له . . ؟

ـ الحذاء الكاوتش كان مجهزاً بمحرك صاروخى صغير ، وهو يعمل بشكل أتوماتيكى عندما يرتفع الجسم فوق الأرض ، مثل محرك الطائرة النفاثة تماماً . . انه يشفط الهواء الجوى من تحت قدمى اللاعب ، فيطير فى الهواء ، وفى الوقت نفسه يعطى جسمه شحنة كهربية إليكترونية تحوله إلى قذيفة ، بالطبع أنتما لا تصدقان هذا الكلام . . ولكنى لحسن الحظ ، استطعت الحصول على حذاء من هذا النوع ، وكان على مقاسى ، وكان من الممكن أن أستخدمه يوم الماتش ولكنى رفضت الحصول على ميدالية ذهبية عن طريق الغش .

ـ أين هذا الحذاء ؟

ـ حجزوه منى فى مطار مدريد ؟ ولكنى مستعد للحلفان ، أن اللاعبين الذين حصلوا على ميداليات ذهبية ، كانوا يرتدون هذا الحذاء .

ـ من غير حلفان ، مصدقينك .

• • •

واصلنا التحريات ، ذهبنا إلى أسبانيا ، قابلنا عددا كبيراً من النقاد الرياضيين ، عرفنا منهم ـ ومن بعض الفتيات ـ معلومات كثيرة عن اللاعبين . اكتشفنا الأسباب العلمية وغير العلمية التى أدت لهزيمتنا ، كتبنا تقريراً وافياً ضمناه اقتراحاتنا من أجل المستقبل ، ثم ذهبنا لمقابلة المسئول الكبير الذى كلفنا بالعمل ، رحب بنا مدير مكتبه وأدخلنا إليه ، رحب بنا بحرارة وعانقنا ، وتبادلنا القبلات .

ـ أهلاً . . أهلاً . . كنتم فين الغيبة الطويلة دى . . تحت أمركم . . أى خدمة ؟

ـ لقد أعددنا التقرير .

ـ تقرير إيه ؟

ـ التقرير اللى حضرتك طلبته عن أسباب هزيمتنا فى برشلونة .

صمت قليلاً وهو يحاول التذكر : هل طلبت منكما تقريراً عن ذلك ؟ متى ؟ . .

ـ بعد هزيمتنا مباشرة .

ـ آه . . آه . . تذكرت يا جماعة . . ده موضوع قديم راح لحاله ، ما الذى ذكركما به . . ؟

ـ ذكرنا به أنك كلفتنا به .

ـ نعم . . نعم . . الرأى العام كان غاضباً فى ذلك الوقت . . أما

الآن فالموضوع أصبح قديماً . . وعموماً هاتوا التقرير . . سأقرأه بكل دقة ، وسأعمل على تنفيذ كل ما جاء به من اقتراحات .

قال ذلك وضغط على زر فوق مكتبه فدخل سكرتيره الخاص : يا عبده . . البهوات حايدولك تقرير فى غاية الأهمية ، ضعه فى حقيبة أوراقى الخاصة ، سآخذه معى وأدرسه الليلة فى البيت .

وهنا قال الشبح ببرود : لقد قضينا أسبوعين فى أسبانيا ونريد الحصول على بدل السفر فقال بحماس : واصرف لهم بدل السفر .

خرجنا من المكتب وقد امتلأنا بخيبة الأمل ، فوجئت بالشبح يقول للسكرتير : التقرير فى السيارة ، سأحضره بعد دقائق .

أدهشنى سلوك الشبح فقد كان التقرير معنا ، نزلنا إلى السيارة ، تناول الشبح مجلة قديمة وضعها فى مظروف أصفر كبير أغلقه بإحكام وكتب على المظروف ، سرى للغاية ، اقتراحات خاصة بتحقيق الانتصارات الرياضية فى الأوليمبياد القادم . صعد مرة أخرى إلى المبنى وأعطى المظروف إلى السكرتير .

قلت له : ستحدث كارثة عندما يفتح الرجل المظروف وسيعد ذلك إهانة كبيرة له .

رد الشبح بهدوء : بجوار السكرتير ، توجد «مفرمة» أوراق ، لاحظت أنها تعمل طول الوقت ، المظروف الآن دخل هذه المفرمة ، وسأثبت لك ذلك .

بعد يومين ، اتصل الشبح بالمسئول تليفونياً : هل قرأت سيادتك التقرير ؟

ـ قرأته ليلتها ، وناقشنا كل المقترحات التى وردت فيه ، اطمئن ، سيأخذ طريقه للتنفيذ فوراً واسمح لى أن أشكرك على المجهود الكبير الذى بذلته أنت وزميلك .

حدثت بعد ذلك مشكلة بسيطة فى بدل السفر ، مدير الحسابات يريد معاملتنا على أننا سافرنا إلى بلد عربى ، قال إن الأندلس ـ يقصد أسبانيا ـ طبقاً للوائح مازالت بلداً عربياً بالرغم من خروج العرب منها من ٧٠٠ سنة ، فقد بحث فى الملفات ولم يعثر على القرار الإدارى الخاص بتحول أسبانيا إلى بلد أوربى .

ولكن الشبح الخبير بألاعيب البيروقراطية أخرج له صورة من القرار معتمدة ومختومة على قطعة من جلد الغزال .



الفهرس

عربية للطباعة والنشر
٧ ، ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الآن أرفع القناع

الاستاذ على سالم غنى عن التعريف بمؤلفاته التى أثرى بها « المسرح الكوميدى » ومقالاته التى نشرتها العديد من الصحف المصرية والعربية والتى كانت علامة بارزة فى مجال « الأدب الساخر » ، بالاضافة إلى كتبه الكثيرة التى تنوعت موضوعاتها وتناولت مختلف شئون الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية مكتوبة بالأسلوب النقدى الساخر الذى تميزت به جميع كتابات ومؤلفات هذا الكاتب القدير .

وفى هذا الكتاب « الآن أرفع القناع . . (٣٠) سنة فى العمل السرى » يتقمص المؤلف شخصية الشبح ، ليجعلنا نضحك معه على مغامراته مع الرئيس جونسون . . وحقيقة الدور الذى قام به بين شاه إيران والخومينى . . وكيف تقابل مع العفريت الغامض فى ميناء الاسكندرية . . وكيف أنقذ جورباتشوف من المؤمرات التى تعرض لها . . وكيف عرف سر « الزرار النووى » وحال دون قيام حرب ذرية . . كما عرّفنا بحرامى البترول وحكاية « الشيك أبو اتنين مليون دولار » . . وعرّفنا أيضاً بضيف جاء من « قرعستان » . . وبحكاية العربجيين اللذين سرقا تمثال « سخمت » من المعبد الفرعونى . . وحكاية الغرام الذى حدث بين رئيس الوزراء البريطانى والطباخة التى تطبخ له الطعام فى ١٠ داوننج ستريت بلندن . . بالاضافة إلى عديد من المساخر المعروفة فى عالم الرياضة . . .





مكتبة الدار العربية للكتاب
طباعة - نشر - توزيع

Al-Arabia Lel-Ketab
Printing · Publishing · Distribution

شارع الطيران - بجوار المخبز الآلى - الحى السابع - مدينة نصر - تليفون : ٢٦٣٩٨٥١ - فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - ص.ب

Madinet Nasr - Tayaran St. Cairo - Tel : 2639851 - Fax : 3909618 - P.O Box : 2022 - Cairo